A
953.02
F24a

# العرب

## في حضارتهم وثقافتهم

الى آخر العصر الاموي

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة
عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

بيروت
١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م

دار العلم للملايين
بيروت

١/٣٠٠٠/١٢/٦٦

جميع الحقوق محفوظة

بيروت
شعبان ١٣٨٦
كانون الاول ١٩٦٦

# مقدّمة

هذا الكتاب ليس جديداً ، اذا عَدَدْنا الجديدَ في الكتب ما كان تأليفاً غير مسبوقٍ ؛ وهذا الكتاب مسبوقٌ في بعض أوجهه ، فانّ عدداً من فصوله مأخوذٌ من كتابين لي سابقين :

من كتاب **تاريخ الجاهلية** [١] ،

ومن كتـــاب **العرب والاسلام في الحوض الشرقي من البحر الابيض المتوّسط** [٢] .

ومع هذا فان هذا الكتاب ليس تكراراً لهذين الكتابين المذكورين ، فإنّ الفصول المضمومة اليه في **تاريخ العلم** لم تظهر من قبل كما هي اليوم [٣] ، وبعضها لم يظهر قبل الآن .

اما السبب الذي دعا الى الجمع في هذا الكتاب بين مادّة منشورة من قبل وبين مادّة غير منشورة من قبل فهو حاجة اقتضاها تبديلٌ في مناهج التاريخ في جامعة بيروت العربية .

---

(١) دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٤ .
(٢) منشورات المكتب التجاري ، بيروت ، ١٩٦٦ .
(٣) ظهرت خلاصة من فصل « العلم في الجاهلية » في مجلة « العلوم » ( بيروت ) وخلاصة من فصل « العلم في العصر الاموي » في مجلة المجمع العلمي العربي ( مجلة اللغة العربية ) في دمشق.

غايةُ هذا الكتابِ أن يتناولَ تاريخَ العرب في الجاهلية وصدر الاسلام، الى آخر العصر الاموي ، من الناحية الحَضارية . والحَضارةُ في الحقيقة هي التاريخ كلّه . عـلى أنّنا نكتفي عـادة في تاريخ الحضارة بالجوانب الاجتماعية والفكرية ونكتفي من التاريخ السياسي بالقدرِ الذي يكون إطاراً للحياتين الاجتماعية والفكرية .

والمؤرّخ يتقيّد في تأريخه للجانب الحضاريّ من الحياة بأمرين اثنـين تقيّداً شديداً :

ليس في تاريخ الشعوب في العصور التاريخية نشوء للحضارة ، فحضارة كلّ أمّة إنّما هي تطوّر من حضارات الامم التي سبقتها في موضعها من العالم في الاكثر وفي غير موضعها من العالم في الاقـلّ . فالامم لا تسير منفردة في التاريخ ، ولكنّهـا تسير متعارضة — جنباً الى جنب — هي والامم المعاصرة لها . من أجل ذلك قلّ أن نجد أمّة في نطاق التاريخ الذي وصلت الينا أخباره تعيش في حضارة خاصة بها لا صلة لها بالذين سبقوها في التاريخ ولا صلة لها بالامم التي تعيش معها في الزمان .

وثاني الامرين أنّ الحضارة نفسها أوجه كثيرة وطبقات عديدة . ان الحياة في الاسرة والنظام الذي تسير عليه الحكومات وعلم الطب والفلك وفنّ الغناء والادب كل هذه من الحضارة . غير أنّنا حبّاً بالإيجاز فقط لا ندرس هنـا الادب — وان كنّا نشير اليـه — ذلك لأن الادب فن محظوظ تكثر التآليف فيه ؛ ثمّ ان له دروساً خاصّة به في مناهج المدارس والجامعات .

ثمّ انّ هنالك أمراً آخر على جانب من الاهميّـــة في التأليف وفي الدراسة .

مهما حَرَصَ المؤلّف على التقصّي فانّه لا يستطيع أن يجمع كلّ مـا يدور في عالم الحضارة . فلا بدّ اذن من التخيّر في جمع الموادّ . والمعوّل



في التأليف على إبراز الاسباب والنتائج وعلى تنسيق الخصائص . أما جمعُ مفرداتِ المعلوماتِ متراكمةً فأمر قليل الجَدْوى .

ونحن في تاريخ الحضارة نريد ان نُبرز صورةَ الحيـاة العربية من جميع جوانبها قَدْرَ الامكان ، وليس يَضرّ القارىءَ ولا المؤلّفَ أن تكون بيئةٌ مقصّرةٌ عن بيئةٍ أخرى في جانب من حضارتها أو في أكثرَ من جانب .

**وأهمّ من كلّ ما تقدّم في دراسة الحضارات** أنّنـا ندرس كلّ حضارة بالاضافة الى الزمن الذي كانت فيه . أنّنا نجانب الإنصاف اذا حكمنا على الحضارة الجاهلية بما وصل اليه اليونانُ في الفلسفة في أيامهم أو بما وصل اليه العلمُ والفنّ في أيامنا نحن . ومع ذلك فانّنا قد نجد للجاهليين وللامويّين أوجهاً ماديّة من الحضارة لا تُقصّر عمّا عندنـا — أو عند بعضنا — اليوم . وربما وجدنا أوجهاً من الحضارة الروحية تمتّع بها القدماء وكانت أرقى مما نعرفه نحن اليوم من ذلك .

على أن في تاريخ الحضاوة شيئاً مؤسفاً هو أن الانسان الحاضر — برُغْم ما وصل اليه من العلم والقوة — لا يزال الانسانَ الاول تَدْفَعُهُ في طريقه حاجاتهُ وعاداته وغرائزه لا مُثُلُه العُليا ولا عقله ولا الواجبُ الملقى على عاتقه . لا أعتقد — ولا أظنّ أحداً غيري يعتقد — أن الحروب القديمة التي نسمّيها بربريّة وحشيّة قد كانت أكثر بربريّة ووحشية من الحروب التي نشاهدها اليوم .

ولا ريبَ في أن تاريخ الامم إنّما هو تاريخُ حضارتها أو — عـلى الاصح — تاريخ الخدمة التي أدّتهـا للحضارة . وكلّ أمّة من الأمم المعدودة قد حملت الحضارةَ في تاريخها شوطاً . وعظمة الامةّ منسوبةٌ أبداً الى طول الفترة التي كانت قد حملت فيه مِشْعَلَ الحضارة والى عُمق الأثر الذي خلّفته حضارتها في حياتنا .

واذا كان التاريخ يجري على حُسْبان معقول – وهو يجري الى حد ما على مثل هذا الحسبان – فانّ المستقبل الحضاري لغير أُمَمِ الغَرْبِ ، فهل يكون لنا نحن العَرَبَ !

لا أرى أن أجيب على هذا السؤال في مقدمة هذا الكتاب ، ذلك لأنّ هذا الكتابَ يَقِفُ في قَصَصِه قبل ألفٍ ومائتي عامٍ من تاريخنا الحاضر. غير أن الذي يبدو أن حظّنا نحنُ من حضارة المستقبل – إذا نحن أدخلنا العاملَ الروحيّ في حسابنا – أوفرُ من حظّ غيرِنا .

ع . ف .

٢٢ شعبان ١٣٨٦
٥/ ١٢/ ١٩٦٦



# فهرست


المصادر والمراجع . . . . . . . . . . . . . . ٩
الساميّون والعرب . . . . . . . . . . . . . . ٢٦
العرب الباقية . . . . . . . . . . . . . . ٣٧
الاستعمار القديم . . . . . . . . . . . . . . ٥١
حضارة الجاهليين . . . . . . . . . . . . . . ٦٦
الجانب الفكري من حياة الجاهليين . . . . . . . . . . ٨٩
الدعوة الاسلامية . . . . . . . . . . . . . . ١١٨
الاسلام والعلم . . . . . . . . . . . . . . ١٣٢
عصر الخلفاء الراشدين . . . . . . . . . . . . . . ١٤٩
صورة الحياة في العصر الاموي . . . . . . . . . . ١٥٩
العلم في العصر الاموي . . . . . . . . . . . . ١٨٩
الفهرس الابجدي . . . . . . . . . . . . . . ٢١١

# المصادر والمراجع[1]

الحَديثُ رِوايةٌ ودِرايةٌ[2] :

الحديث هو الأقوال المَرْوِيّةُ عن مُحمّدٍ رسول الله من الاحكام والآراء والأخبار والآداب . وقد وصل الحديثُ إلينا بالرواية نقلاً عن رسول الله : نقله أصحابُه عنه ثم أدّوْهُ الى الجيل الذي خلَفَهم ؛ وأهلُ هذا الجيلِ أدّوْهُ إلى من تلاهم ، جيلاً بعد جيل ، حتى وصل الى الذين دوّنوه . وللحديث سَنَدٌ يجب أن يكونَ مُتّصِلاً : ان يكون كلّ راوٍ قد عرَفَ الذين روى عنه ؛ كما يجب أن يكون جميع رجال السند ، جميع هؤلاء الرواة ، ثِقاتاً مشهوداً لهم بالايمان والصدق والعلم والنزاهة .

على أنّ الاستيثاقَ ، في رواية الحديث ، بصِحّة الرواية وحدَها ، لا يكفي . يجب أن يكون للمُحدِّث ، أي للعالم الذي يحفظ الحديث ويحدّث به الناس ، درايةٌ : علمٌ بالأحاديث المروية عن رسول الله يتعلّق بمعناها وألفاظها وبالأحوال التي قيلت فيها وبالغرض المقصود منها يومَ قولها . وقد يكون الحديث صحيحاً ثابتاً عن رسول الله ولكنّه مَنْسوخٌ ، أي أُبْطِلَ العملُ به في أيام رسول الله نفسه . فعلى المحدّث ، إذَنْ ، أن

---

(١) هذا الفصل مأخوذ من « تاريخ الجاهلية » .

(٢) قواعد التحديث لجمال الدين القاسمي ( دمشق ١٣٥٣ هـ ) ص ٥١ – ٥٣ ؛ مصطلح الحديث لعبد الغني محمود ( مصر ، الطبعة الثانية ١٣٣١ هـ – ١٩١٣ م ) ، ص ٢ – ٥ .

يكون جامعاً بين صحة الرواية في الحديث وبين سَعَة الدراية به وبالأحوال الملابسة له .

والتاريخ كالحديث خبرٌ مَرْوِيّ عن الذين تقدّمونا ، فيجب على المؤرّخ أن يكون جامعاً بين صِحّة الرواية للحوادث التي يحاضر بها أو يؤلّف فيها وبين سَعَة الدِراية بالأحوال المتّصلة بتلك الحوادث .

هذه الاصولُ في الاستيثاقِ من صِحة الحديث تعرف عند العلماء المسلمين باسم « مُصْطَلَح الحديث » . « والواقع أن الميثودولوجية [1] الغربية ... ليست غريبة عن علم مصطلح الحديث ، بل تَمُتّ إليه بِصِلَة . فالتاريخ دراية ورواية كما أن الحديث دراية ورواية . والقواعد التي وَضعها الأئمّة (المسلمون) منذ قرونٍ عديدة للتوصّل الى الحقيقة في الحديث تتّفق في جوهرِها واتّجاهِها والأنظمةَ التي اكتشفها علماءُ أوروبةَ فيما بعد في بناء علم المثودولوجية . ولو أن مؤرّخي أوروبةَ في العصور الوسطى والعصور الحديثة اطّلعوا على مُصنّفات الأئمّة المُحدّثين لَمَا تأخّروا في تأسيس علم المثودولوجية حتى أواخر القرن الثامنِ عَشَرَ . وبامكاننا أن نصارح زملاءنا في الغرب فنؤكّد لهم أن ما يفاخرون به من هذا القبيل نشأ وترعرع في بلادنا ؛ ونحن أحق الناس بتعليمه والعمل بأسسه وقواعده » [2] .

*

على أننا في هذا الفصل سنَقْصُرُ الكلام على جانب الرواية فقط . فبما أن التاريخ اذن ، في أبسط أوجهه لا في أصحّها على كل حال ، خبرٌ عن الماضي ، فعلينا أن نكون أولاً على ثِقَةٍ من صحة هذا الخبر الذي نُقل الينا . وطريقنا الى الماضي هو المستندات التي بَقِيَتْ لنا أو وصلت من ذلك

(١) الميثودولوجية : الوسيلة المنطقية التي ندرس بها المعارف الانسانية (تنظيم الدراسة على أسس من التدرج والمنطق والبرهان) .

(٢) مصطلح التاريخ للدكتور أسد رستم (بيروت ١٩٣٩) ، الصفحتان : و ، ز .



الماضي . فلا بُدّ لنا اذن من درس هذه المستندات التي تُقسم مصادرَ ومراجعَ .

المصدر هو المُسْتَنَدُ الذي بَقِيَ لنا أو وصل الينا من العصر الذي نريد دراسة أحواله . والمستند يكون أثراً ظاهراً أو بناء باقياً أو وثيقة مكتوبة أو كتاباً مدوّناً . فالحِرار : (جمع حَرّة) ، أي الأراضي البركانيةُ المنتشرة في الشّمال الغربي من شبه جزيرة العرب خاصة ، ونقش النمارة [1] والكعبة المشرّفة وما يشبهها من الأبنية الباقية ثم القرآن الكريم ، كلّها مصادرُ لدراسة أحوال العصر الجاهلي والعصر الاسلامي اللذين نستعرض حضارتهما وثقافتهما في هذا الكتاب .

ويلحق بالمصادر المتعلّقة بالعصر الجاهلي خاصةً اللغةُ التي وصلت الينا من الجاهليين والأمثالُ والاشعارُ والخطب والوصايا ، وان لم تكن قد دوّنت في

(١) نقش النمارة كتابة على شاهد (حجر منصوب على قبر) بالخط النبطي (بعض أحرفه تشبه الخط الآرامي وتكتب متصلة ، وبعضها يشبه الخط العبري وتكتب منفصلة) . يتألف هذا النص من خمسة أسطر (نحو خمسين كلمة) . بعض ألفاظ هذا النص عربية فصيحة ، وبعضها عربية غريبة وبعضها سامية غير عربية على الحصر (آرامية ونبطية) . ولا يبدو على كلمات هذا النقش اعراب . وهو يرجع الى عام ٣٢٨ للميلاد (راجع العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ٢٢٦ – ٢٢٨ ؛ تاريخ آداب العربية لجرجي زيدان ١ : ٣٣ ؛ تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ٣ : ٤٣٧ – ٤٤٧ ، ٤ : ٣٣) .

– هذا النص لا يمثل اللغة العربية المعاصرة له (اللغة التي كانت قبل نحو مائة عام من لغة المعلقات التي وصلت الينا وقبل ثلاثمائة عام من لغة القرآن الكريم) لأن لغتنا العربية يجب أن تكون قد تمت على ما كانت في الشعر الجاهلي قبل هذا النص بقرون كثيرة . فالنص هذا يجب اذن أن يكون مكتوباً بلهجة محلية ضيقة . وكلمة « بر » هي كلمة « ابن » بالآرامية . أما كلمة « ملك » فلا يجب أن تعني أكثر من « شيخ ، رئيس » . وكلمة « عرب » تقابل كلمة « بدو » . واذا اتفق أن يكون هذا الملك ، على افتراض صحة فهم النص فهما تاريخياً ، قد حارب عدداً من مشايخ العرب وهزمهم ثم ملك (تغلب) على قبائلهم ، فانه لا يزيد على أن كان في خدمة الروم والفرس (كما يذكر النص نفسه) لجمع الضرائب للروم والفرس ولصد هجمات القبائل عن تخوم امبراطورية الفرس والروم (بجنود عرب وغير عرب) . وليس في هذا النص من القيمة التاريخية أكثر مما نجد في تاريخ المناذرة والغساسنة من محاربة هؤلاء للقبائل (النجدية البدوية) في خدمة الفرس والروم. ثم ليس له قيمة لغوية للغتنا العربية، لأن لغتنا العربية كانت ، لما كتب هذا النص، قد بلغت في التطور مبلغاً كبيراً جداً .

الوقت الذي نشأت فيه ، لأن الاجماع على صِحّتها (أو على صِحّة الجانب الأكبر منها) يقوم لها مقام التدوين .

أما المَرْجِعُ فهو عادةً الكتابُ الذي كُتِبَ عن عصر ما ، ولكن بعد انقضاء ذلك العصر . وكلّما كان المَرْجِعُ أقربَ الى العصر الّذي يعالج أحداثه وأحواله كان أهمّ وأوثق .

والمراجع نوعان أساسيّان :

هنالك مراجع اعتمد مؤلّفوها كُتُباً ضاعت . إن أبا الفرج الاصفهانيَّ مؤلفَ كتاب الأغاني يسمّي في ثنايا فصول كتابه كتباً اعتمدها ونقل منها ، ولكنّ هذه الكتبَ لم تصل الينا . من أجل ذلك يلحق كتاب الأغاني بالمصادر ، فهو مَرْجِع بِمَثابةِ المَصْدَرِ ؛ ونحن نعدّه اليوم من الناحية العملية مصدراً من مصادر الحياة الجاهلية والحياة في صدر الاسلام .

وأما النوع الثاني من المراجع فيتناول الكتبَ التي اعتمد مؤلّفوها مصادرَ ومراجعَ لا تزال موجودة بين ايدينا ، ككتاب تاريخ آداب اللغة العربيــة لجرجي زيدان . ان هذا الكتاب يعتمد كتباً نَعْرِفُها فيجب ، اذا كتبنا في تاريخ الأدب العربي ، ان نرجع اليها هي لا اليه هو . ولكنّ للمرجعِ الذي هو من طبقة كتاب تاريخ آداب اللغة العربية (في اتساعه وشموله ومحاولة اثبات عدد من المصادر والمراجع بعد كل ترجمةٍ لشاعر او خطيب او لغويّ أو نحوي) فائدتيْنِ :

أ — الاستدلالُ على ما يتعلق بالأديب الذي نريد دراسة آثاره في وقت قصير ، او الرجوعُ اليه في استطلاع خبر أديبٍ استطْلاعاً عارضاً .

ب — قد يتفق ان نجد في مثل هذا المرجع ملاحظةً او تعليلاً او تفسيراً يكشف بعضها لنا جانباً من حياة ذلك الأديب ومن خصائصه .

اننا من المصدر نأخذ الحقائق والآراء ؛ أما من المرجع فنأخذ الآراء فقط .



وتُقسم المصادر من جهة ثانية قسمين : مصادرَ أساسيةً ومصادر مساعدة :

حينما نريد أن نؤلّف في تاريخ الحِقَبِ فاننا نعتمد بطبيعة الحال مصادرَ أساسيةً ، أي مصادرَ ألّفها أصحابُها في تاريخ تلك الحِقبة وقصدوا أن يُلِمّوا بأحداث تلك الحقبة وبأحوالها الحَضارية . غير أننا نقع أحياناً على حقائقَ تاريخية تتعلّق بالأحداث وبأحوال الحضارة منثورةً في كتب لم يؤلّفْها أصحابها ليَقصّوا تاريخاً أو ليصفوا حضارة . قد تكون هذه الكتب دواوين شعرٍ أو قواميسَ أو كُتباً في الفقه أو الموسيقى . فبالاضافة إلى أن هذه الكتبَ مصادرُ للجوانبِ اللغوية والأدبية والاجتماعية والفنية من البيئة التي ندرسها ، فاننا نجد فيها أحياناً إشاراتٍ الى التاريخ السياسي على جانب من الأهميّة .

ان الذي يقصد التأليف في التاريخ يحاول أن يَتَخَيَّرَ الحوادثَ التي يبني عليها كتابه ويحاول أن يَرْبِطَ بعضَها ببعض ؛ وقد يُهْمِلُ أشياءَ عَفْواً أو قصداً لأنها لم تتّسق في السلسلة المنطقية أو القَصَصيّة التي أخذ نفسه بسرد وقائعها . أما الشاعر مثلاً فانه قد يشير الى حادثة وهو خالي الذهن من الملابسات كلّها فتكون هذه الاشارة عنده ، أحياناً ، أصحَّ في التاريخ الواقع وأدل على منطق الاحداث مما جاء عند المؤرّخ في هذا الشأن . وبما أننا لا نعتمد دواوين الشعر وكتب الفقه وقواميس اللغة عند التأليف في التاريخ اعتماداً أساسياً ، بل نأخذ أحياناً منها كلها أشياءَ تفيدنا في تعليل أحداثٍ تَرِدُ في كتب التاريخ الأساسية غامضةً كثيراً أو قليلاً ، فاننا نسمّي هذه الكتب مَصادرَ مساعدةً .

وهنالك كتبٌ هي مصادرُ ومراجع في وقت واحد :

هنالك كتب تعالج عصراً واحداً : ان كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م) يتكلّم على عدد من الاحداث والاحوال شَهِدَها أسامةُ في قتاله معَ الإفرنج (الصليبيين) ، ثم لا يتجاوزها الى غيرها . فكتابُ

الاعتبار اذن مصدر من مصادر تاريخ الحروب الصليبية في القرن السادس الهجري (الثاني عَشَرَ الميلادي) على الحصر .

غير أن عز الدين أبا الحسن عليَّ بنَ الأثير قد ألّف كتاباً مبسوطاً في التاريخ بدأه بالخليقة وانتهى به الى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٣١ م) . وبما أن ابن الأثير قد تُوفّيَ في سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) ، فان كتابه في التاريخ المسمّى «تاريخ الكامل» هو مصدر للتاريخ في السنوات الأخيرة من القرن السادس وفي الثلث الأول من القرن السابع الهجريين (السنوات الأخيرة من القرن الثاني عَشَرَ والثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلاديين) ؛ ثم هو مَرْجِعٌ لكل ما سبق ذلك . ومُعْظَم كتب التاريخ الواسعة ، كتاريخ الطبريّ والمسعوديّ وابن خلدون ، من هذا الباب .

فبعدَ اعتبار كلّ ما تقدّمَ نتساهلُ في ما نسميه مصدراً لتاريخ الجاهلية ونقبل كل ما أُلّفَ في العصور الوسطى (إلى اواخر القرن التاسع للهِجْرة : آخر القرن الخامسِ عَشَرَ للميلاد) على أنها مصادرُ للأسباب التالية :

— كان العلم بين العرب الى ذلك الحين لا يزال يعتمد الروايةَ : نقلَ الخالف عن السالف ، وكان العالم لا يزال يعتمد الرحلةَ والتدوينَ نقلاً عن الرجال في الأقطار المختلفة . من أجل ذلك نستطيع أن نقول إن كثيراً من الكتب التي أُلّفَتْ قبل ذلك الحد من الزمن كانت كتباً أصيلة في موضوعاتها وروايتها .

— ان الحروب الصليبية في مصرَ والشامِ واجتياحَ التتار للعالم الإسلامي في المشرق وتضافُرَ الأوروبّيّين على إخراج العرب من الأندلس قد رافقها إتلاف كبير للمكتبات ، فنحن نعتبر الكتب التي وصلت إلينا من تلك الحِقبة المديدة «مصادرَ» ، وإن كان بعضها نَقْلاً عن بعض لأنها تمثّل الكتب التي ضاعت وتقوم ، من الناحية العملية ، مقامَها .

— لا ريب في أن شيئاً من الشعر الجاهلي منحولٌ (موضوع على لسان



شعراءَ لم يقولوه) . وهنالك أيضاً كتب يقال إنها موضوعة ككتاب المحاسن والمساوىء وكتاب التاج في أخلاق الملوك (وينسبان الى الجاحظ) ثم كتاب الامامة والسياسة (المنسوب الى ابن قُتَيْبة)[1] . ثم ان بناء الكعبة اليومَ ليس البناء الذي كان لها في الجاهلية الأولى . ان الكعبة قد تهدّمت مِراراً في الجاهلية وفي الاسلام ثم أعيد بناؤها مرة بعد مرّة .

فنحن اذن نقبل الشعر الجاهلي كلّه (الثابت والمشكوك فيه) ، على أنه من مصادر الحياة في الجاهلية لأن الذين وضعوا ذلك القدر من الشعر الجاهلي قد حَرَصوا على أن يقلّدوا خصائص الجاهليين المعنوية واللفظية . وهكذا يظل هذا الشعر المنحول يدلّ على ما يدلّ عليه الشعر الثابت (وان كنّا في الأدب لا نقبل الشعر المنحول للجاهليين على أنه جاهلي) . وشأن الكتب الموضوعة كهذا الشأن أيضاً .

وكذلك شأن الكعبة :

«في سنة خمس وثلاثين من مولد رسول الله (١٧ قبل الهجرة = ٦٠٥ م) هَدَمَتْ قريشٌ الكعبة ؛ وكان سبب هدمهم إياها أنها كانت رضيمة[2] (وكانت) فوق قامة الرجل ، فأرادوا رفعها[3] وتسقيفها»[4] . ولمّا اختلفوا فيمن يردّ الحجر الأسودَ الى مكانه حكّموا في ذلك محمدَ بن عبد الله قبل مبعثه[5] . وبعد ثمانين سنة احترقت الكعبة لمّا غزا مُسْلِمُ بنُ عُقْبةَ المرّيّ مكّة في أيام يزيدَ بن معاوية ، في ذي الحجة من سنة ٦٣ (آب — أغسطس ٦٨٢ م) . فلما استقرّ الأمر لابن الزبير بعد موت يزيدَ هدم الكعبةَ حتى

(١) راجع مقالا لجبرائيل جبور : كتاب الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة — من هو مؤلفه (مجلة الابحاث — بيروت ١٣ : ٣ ايلول ١٩٦٠) .

(٢) مبنية بحجارة مرصوف بعضها فوق بعض (بلا ملاط ، أي بلا طين) .

(٣) رفع البناء : تشييده عالياً . سقف البناء تسقيفاً ؟ جعل له سقفاً .

(٤) ابن الأثير ٢ : ١٧ .

(٥) ابن الأثير ٢ : ١٧ .

لَحِقَتْ بالأرض ، وكانت حيطانها قد مالت من إصابتها بحجارة المنجنيق . فحفر ابن الزبير فوجد أساساً أمثال الجمال (يقصد حجارة كبارا) ... فقال أقرّوها على أساسها وبنائها، وجعل لها بابين يُدْخَلُ من أحدهما ويُخرج من الآخر . وذلك سنةَ ٦٥ أو ٦٤ هـ (٦٨٣ — ٦٧٤ م) [1].

## طبقات المصادر وأصنافها

أرفعُ طبقاتِ المصادرِ القرآنُ الكريمُ :

نَزَلَ القرآنُ الكريم مُنجّماً (متفرّقَ السورِ والآياتِ حسْبَ الحاجة) في مَدى ثلاثٍ وعشرين سَنَةً ، من ١٣ ق . هـ . الى ١١ هـ . (٦١٠ — ٦٣٢ م) . وكانت السور والآيات تُدوّن ساعة نزولها . ثم جُمِعَ القرآنُ الكريم (رُتّبت سُوَرُهُ ، فقد كانت الآياتُ مُرتّبةً على ما هي في السور الآن منذ نزولها) مرتين : مرّةً في أيام أبي بكر ومرّةً في أيام عثمانَ بنِ عفّان . فالقرآن الكريم أقرب الوثائق المدوّنة الى الجاهلية . ثم هو تنزيل لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه .

وقد أخّرنا النقوش عن هذا المقام لقلّة عددِها ولضَعْفِ دلالتها على تاريخ الجاهلية بالاضافة الى سائر المصادر (راجع الحاشية ١ على الصفحة ١١ فيما يتعلق بنقش النمارة) .

ويلي القرآنَ الكريمَ في طبقات المصادرِ الحديثُ الشريف :

الحديثُ لم يُدوّن الا في أيام عمرَ بنِ عبد العزيز ؛ ومعَ ذلك فان هذا التدوين لم يصل الينا .

وقيمةُ الحديث أنه يفصّل ما أجمله القرآن أو يشرح ما ذكره القرآن . من أجل ذلك نستطيع اعتمادَ الحديث في الدين وفي التاريخ اذا كان موافقاً لما ورد في القرآن الكريم .

(١) ابن الأثير ٤ : ٨٧ ، راجع ٣٠ .



ومجاميع الحديث كثيرة منها مُسْنَدُ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب من رواية أبي يوسف يعقوب بن شَيبة (ت ٢٦٢ هـ = ٨٧٥ م) . ومنها المُوَطّأ للامام مالك (ت ١٧٩ هـ = ٧٩٥ م) ، مسند الامامِ أحمدَ بن حَنْبل ، سُنَنُ الدارمي ، صحيح البُخاري ، صحيح مُسلم ، سنن أبي داوود ، سنن الترِمذي وسنن النَسائي (وقد تُوُفّي هؤلاء قبل ٣٠٣ هـ = ٩١٥ م) .

وللقرآن الكريم تفاسيرُ وضعها العلماء لتبيان ما أُوجز فيه أو ما أشير اليه فيه اشارةً عارضةً او لِما غمض علينا نحن من تشابيهه واستعاراته وألفاظه ، أو لشرح أحكامه .

وأشهر التفاسير وأهمها : جامعُ البيان عن تأويل القرآن لأبي جعْفرٍ محمد ابنِ جريرٍ الطبَريّ (ت ٣١٠ هـ = ٩٢٣ م) وهو مشهور باسم تفسير الطبري . وتفسير الطبريّ تفسيرٌ تاريخي يحاول ان يفسر الآياتِ بذكر الأحوال التاريخية والاجتماعية التي رافقت نزولها ، ولا غرو فالطبري في الأصل مؤرخ . ثم ان الطبري يستعرض جميعَ الرواياتِ الواردةَ في تفسير الآيات ، رواياتِ الحديث وروايات التاريخ وروايات الأدب ، بعدئذ يفاضل بين تلك الرواياتِ ويُرجّح ما يراه في نظره أقربَ الى الواقع مما لا يعارض نص الآيات . والطبري يسلك في التفسير مسلكاً سَلَفياً فهو فقيه من أصحاب المذاهب الفقهية التي بادت (بطَلَ العمل بها) . فهو لذلك أقرب الى ما تُقرّه الروايةُ الصحيحة والواقع التاريخي .

وهنالك أيضاً الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل لأبي القاسم محمودِ بنِ عمرَ الزمخشريّ (ت ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م) ويعرف باسم تفسير الزمخشري . يَسْلُكُ الزمخشريّ في التفسير مَسْلَكاً لُغوياً بلاغياً في الدرجة الأولى ، فهو يعتمد في التفسير الذوقَ البلاغيَّ اكثرَ من اعتمادِ الواقعِ التاريخي . ثم ان الزمخشري كان من المُعتزلة الذين يحاولون تعليلَ مظاهرِ الوجود بالنظر العقلي اكثرَ مما يعتمدون الرواياتِ التاريخيةَ والدينية . من أجل ذلك كَرِهَ الفقهاءُ تفسيرَ الزمخشري .

ويلحق بكتب التفسير الكتبُ التي تبحث في « أسباب النزول » ( الأسباب التي دعت الى نزول السور والآيات في الزمن الذي نزلت فيه كلّ واحدة منها ) ، وكتب « الناسخ والمنسوخ » ( الكتب التي تذكر الآيات المنسوخةَ التي بَطَلَ حكمُها والآياتِ الناسخة التي حلّت مَحِلّ الآياتِ المنسوخة ) .

والكتب المعنونة باسم « الناسخ والمنسوخ » كثيرة أشهرُها بلا ريب لابن حزم الاندلسي ( ت ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م ) . ثم هنالك كتب أخرى في هذا الموضوع وبهذا الاسم للطباطبائي الرّسيّ ( ت ٢٤٦ هـ = ٨٦٠ م ) ، ولأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي ( ت ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م ) ولابن الجوزيّ ( ت ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م ) ولغيرهم .

أما « أسباب النزول » ففيها كتاب لأبي الحسن عليّ الواحديّ النيسابوري ( ت ٤٦٨ هـ = ١٠٧٥ م ) وآخر للسيُوطي ( ت ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م ) .

وللحديث الشريف أيضاً كتب ناسخ ومنسوخ منها « ناسخُ الحديث ومنسوخُه لأبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين ( ت ٣٨٥ هـ = ٩٩٥ م ) .

ومن مصادر الحياة في الجاهلية الأدب الجاهلي :

الأدب الجاهلي شعرٌ ونثر ؛ والشعر الذي وصل الينا مَرْوِيّاً عن الجاهلية كثير جداً بالاضافة الى ما وصل الينا من النثر الجاهلي . ومع أن الأدب الجاهليّ أقدمُ في الزمن من نزول القرآن الكريم ومن الحديث ، فانّنا قد أخّرناه في طبقات المصادر لأن تدوينه تأخّر ولأن الرُواة لم يَتحرّصوا على ضبطه وصِحّته حِرْصَهم عن تحرّي الصحّة والضبط في تدوين القرآن الكريم وجمعه ونسخه . ثم ان الأدب الجاهلي ضاع معظمه ثم تجرّأ كثيرون عليه بالنَحل [1] ، إما بنقل شيء من قائل الى قائل وإمّا بوضع شيء منه على ألسنة الناثرين والشعراء . والشعر الجاهلي في التاريخ على كلّ حال مصدر مساعد .

---

(١) راجع فوق ، ص ١٤ — ١٥ .



فمن مجاميع الشعر الجاهلي « المُفضّليّات » للمُفضّل الضبّيّ ( ت نحو ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م ) ، و « الاصمعيّات » للأصمعيّ ( ت ٢١٦ هـ = ٨٣١ م ) وديوان الحماسة لأبي تمّام ، والحماسة للبحتري ، وشرح المعلّقات السبع الطوال الجاهلية لأبي بكر الأنباري ( ت ٣٢٨ هـ = ٩٤٠ م ) ، وجَمْهرة أشعار العرب لأبي زيدٍ القُرَشي ، وشرح المعلّقات السبع للزوزني ، وشرح المعلّقات العشر للتبريزي ( ت ٥٠٢ هـ = ١١٩٠ م ) ، وشرح حماسة أبي تمّام للتبريزي أيضاً .

ومن دواوين الشعراء الجاهليين المطبوعة : ديوانُ الشعراء الهُذَليين ، ودواوينُ أمرىء القيس ، عمرو بن قَميئة ، عَبيد بن الابرص ، علقَمة الفحل ، أوس بن حجَر ، الشَنْفري ، الأفوه الأوْديّ ، المُتلَمِّس ، طرَفَة ، الخِرْنِق أخت طرفة ، المُثقّب العَبْدي ، عمرو بن كلثوم ، تميم بن أبي مُقبل ، الحارث بن حِلّزَة ، طُفيل الغنوي ، أبي دُوَاد الأيادي ، القتّال الكلابي ، النابغة الذبياني ، حاتم الطائي ، جِران العَوْد النَمري ، سلامة ابن جَندل ، عبد القيس بن خِفاف البُرجمي ، عنترة ، السَمَوْأل ، زُهير ، لَبيد ، كَعْب بن زهير ، أعشى قيس ، الخنساء ، أُميّة بن ابي الصَلت . ويلحق بمجاميع الشعر مجاميع النثر ومنها : أمثال العرب للضبّي وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري والمُستقصى في امثال العرب للزمخشري ومجمع الأمثال للميداني .

وهنالك ايضاً مجموع حديث يدعى جَمْهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت .

ومن مصادر الحياة في الجاهلية كتبُ اللغة :

ان اللغة العربية التي نكتب بها وننظم هي نِتاج العصر الجاهليّ ، فهي من أجل ذلك لا تزال تدل بمفرداتها على اوجه الحضارة الجاهلية . والقاموس العربي اليوم ليس القاموسَ العربي وحدَه ، بل هو القاموسُ الساميّ ايضاً ،

ذلك لأن علماء اللغة جمعوا في كتب اللغة وفي القواميس خاصةً جميعَ ما سمعوه دائراً على الألسنة في البلاد التي سُمِعَتْ فيها العربية . ان كثيراً من الألفاظ التي يُقال فيها إنها غريبة يجب ان تكونَ بقايا اللغاتِ البابلية والكلدانية والحِمْيَرية والآرامية وسواها .

والقاموس العربي ليس للمفردات اللغوية فحَسْبُ ، بل هو في الحقيقة يجمع المفرداتِ اللغويةَ والمعارفَ الجغرافيةَ والتاريخية والعلمية والعملية والفنية . من اجل ذلك كانت كتب اللغة العربية ، ومعاجمُ اللغة خاصة ، مصادرَ مهمةً للحياة في الجاهلية . وقواميسُ العرب الكبرى هي : القاموسُ المحيط للفيروزابادي ، ولسان العرب لابن منظور ، وتاج العروس للمرتضى الزَبيدي .

وهناك كتب في اللغة هي قواميس اختصاص يُعْنَى كلٌّ واحد منها بجانبِ واحدٍ من مفردات اللغة او بمنهج واحد في دراسة مفردات اللغة . هذه الكتب تساعد على استعمال المفردات في وجوهها الصحيحة لأنها تجمع الكلمات في نِطاقها المعنوي الصحيح ، بينما القواميس تفرق تلك الكلمات تفريقاً آلياً بحَسْبِ الحروف .

فمن كتب اللغة : فِقْهُ اللغة للثعالبي ، الخصائص لابنِ جِنّي ، المُخَصّص لابن سِيْده ، شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين الخفاجي ، ليس في كلام العرب لابن خالويه ، كتاب النبات لأبي حنيفة الدينَوَريّ ، كتاب الخيل لأبي عبيدة مَعْمَر بن المُثنّى ، كتاب الاصنام لابن الكلبي ، كتاب الانواء ( الرياح والأمطار والنجوم ) لابن قتيبة .

وهنالك كتب في اللغة تجمع بين مفردات اللغة وسائر المعارف اللغوية ، معَ الاستطراد الى الأدب والجغرافية والتاريخ والاجتماع ، منها : الأمالي في لغة العرب لأبي اسماعيل علي بن محمد القالي ، الكامل في اللغة لأبي العباس المُبَرّد ، خِزانة الأدب ولُبّ لسان العرب لعبد القادر البغدادي ، المُزْهر في علوم اللغة للسيوطي ، أنساب الخيل في الجاهلية والاسلام لأبي المنذر هشام



ابن محمد الكلبي .

ويلحق بكتب اللغة كتبُ النحو ، وهي كثيرة جداً يكفي ان نثبت هنا منها كتاب سِيبَوَيْهِ ، المُفصّل للزمخشري ، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريينَ والكوفيين لابي البركات عبد الرحمن بن محمد الانباري .

اما المصادرُ الأساسية للحياة في الجاهلية فهي كتبُ الجغرافية والتاريخ :

فمن كتب الجغرافية : صفة جزيرة العرب للهَمْداني ، معجم ما استعجم للبكري ، ثم معجم البلدان لياقوت الحموي الرومي . ومعجم البلدان في الحقيقة دائرةُ معارفَ اكثرُها الجغرافية ، ولكن فيه استطراداً كثيراً الى التاريخ والأدب — وفيه ملاحظاتٌ كِثارٌ تتعلق بالحضارة والثقافة .

وعمدة كتب التاريخ عند العرب تاريخ الرسل والملوك ( او الامم والملوك ) لأبي جعفرِ محمد بنِ جريرِ الطَبَريّ ، جمع مؤلفه فيه جميع الروايات التي وصلت اليه ، على مِثال ما فعل في التفسير [1] ، الا انه في التاريخ يُورد الروايات من غير ان يُرجّح إحداها على الأخرى الا نادراً . ومن كتب التاريخ ايضاً تاريخ الكامل لابن الاثير ، وسيرة ابن هشام وكتاب الاصنام لابن الكلبي والمعارف لابن قتيبة ثم التنبيه والاشراف ومروج الذهب واخبار الزمان للمسعودي ، والاخبار الطِوال لأبي حنيفة احمد بن داود الدينَوَريّ والعِقد لابن عبد ربه وكتاب المُعَمَّرين لابي حاتم السَجِسْتاني وكتاب العِبَر لابن خلدون .

وهنالك كتب تعالج الناحية الاجتماعية من التاريخ اشهرُها وأجلّها قيمة : الجزء الأول من كتاب العِبَر لابن خلدون وهو المعروف بمقدمة ابن خلدون . وهنالك ايضاً نهاية الارب في فنون العرب صدر منه ثمانية عَشَرَ جزءاً تحاول ان تجمع أوجه الحضارة العربية في كتاب واحد .

(١) راجع فوق ، ص ١٧ .

ومن مصادر الحياة في الجاهلية كتبُ الأدب :

في كتب الأدب مراجع تقوم مقام المصادر وتعالج الجانب الأدبي من حياة العرب وتتناول الجاهلية كثيراً أو قليلاً . من هذه الكتب : عيون الاخبار لابن قُتيبة ، كتاب الاغاني لابي الفرج الإصفهاني أجمعُ كتب الأدب في تصوير الحياة العربية من الناحية الأدبية والاجتماعية . ومنها معجم الشعراء للمَرْزُباني ، طبقات الشعراء لابن سَلاّم الجُمَحي ، الشعر والشعراء لابن قُتيبة ، البيان والتبيين والحَيَوان للجاحظ .

ولا ريب في أن كتب الأدب التي تتّصل بالحياة الجاهليـــة من قرب أو من بعد كثيرة جداً . وفي عدد منها تاريخ مفصّل لعدد من نواحي الحياة الجاهلية .

ويحسن أن نعلم أن معظم هذه الكتب التي هي مصادر أو مراجع للعصر الجاهلي هي في الوقت نفسه مصادر ومرجع للعصر الاسلاميّ ( في أيام الرسول وأيام الخلفاء الراشدين وفي أيام الدولة الامويّة ) .

*

وفي عدد من كتب اليونان وكتب السّريان التي أُلِّفَتْ في مدى العصر الذي ندرسة إشارات الى العرب ؛ أن المتعلّق من تلك الاشارات بتاريخ الجاهلية ، بتاريخ عرب الشمال في الجاهلية القريبة ، قليل .

أما المراجع في تاريخ الجاهلية السياسي والاجتماعي والفكري فأكثر من أن تُحصى ، وسيُشار الى أهمّها وأشهرِها في أعقاب الفصول المختلفة . ولكن لا بُدّ هنا من الكلمة التالية .

ان أجمع المراجع لتاريخ الجاهلية بكل ما فيها وأحدث تلك المراجع « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد علي [1] . وقد حاول المؤلف

(١) صدر في ثمانية أجزاء (مطبوعات المجمع العلمي العراقي ) ، وطبع في مطابع متعددة في بغداد بين سنة ١٣٦٩ (والرقم ١٣٧٩ على الجزء الأول الذي طبع في مطبعة التفيض خطأً مطبعي ) وبين سنة ١٣٧٨ للهجرة ( ١٩٥٠ – ١٩٥٩ م ) .



ان يجمع في كتابه كلّ ما قاله العرب قديماً وحديثاً في تاريخ الجاهلية في اليمن ونجد والحجاز والعراق والشام . ثم هو يُضيف الى ذلك ما قاله المستشرقون في ذلك . ولا ريب في ان هذا الكتاب يُغني عن مراجعة عدد من اصول التاريخ ، ومراجعه . ومع اتساع نطاق هذا الكتاب وتنوّع ما يتناوله مـــن وجوه التاريخ فإن مؤلّفه يناقش رواياتِ المصادر والمراجع ويقارن بينها ويرجّح بعضَها على بعض ؛ فهو من أجل ذلك أوفى ما كتب في تاريخ العرب قبل الاسلام .

ومن مراجع تاريخ الجاهلية « تاريخ العرب قبل الاسلام » والجزء الأول من « تاريخ التمدن الإسلامي » ، لجرجي زيدان . وهنالك ايضاً : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لمحمود شكري الألوسي ، العرب واطوارهم : طور العرب والعربية في أطوار الجاهلية لمحمد عبد الجواد الأصمعي ، مدنية العرب في الجاهلية والاسلام لمحمد شكري ( مصر ١٣٢٩ هـ – ١٩١١ م ) ، بلوغ الأرب في مآثر العرب لمحيي الدين بن ابراهيم العطار ، تاريخ الفلك عند العرب تأليف كارلو نالينو ، تاريخ الموسيقى العربية تأليف هنري جورج فارمر ( منقول ) ، القيان والغناء في العصر الجاهلي لناصر الدين الاسد ، تذكرة في تاريخ الطب قبل الاسلام للدكتور شوكت الشطّي ، اختـــلاط الجنسين عند العرب ، دراسات حول وضع المرأة الاجتماعي والقانوني في العصور القديمة لمحمود سلام زناتي ، الخ .

ومن مراجع الأدب الحديثة « مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها » لناصر الدين الأسد ، تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي ، تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان الجزء الأول ( نقله عبد الحليم النجار ) ، تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان .

وفي عام ١٩٢٦ اصدر الدكتور طه حسين كتاباً سماه في « الشعر الجاهلي » وتكلم فيه على صِحة الشعرِ الجاهلي . وصحة الشعر الجاهلي قضية معروفة مفصول فيها في جميع كتب الأدب القديمة . غير ان طه حسين استطرد

استطراداً جانبياً الى صحة الرواية المتعلقة ببناء الكعبة فأثار ضجة ادبية وضجة دينيـــة .

اما الضجة الأدبية فأسفرت عن صدور رُدودٍ منها كتاب « نقض كتاب في الشعر الجاهلي » لمحمد الخضر حسين ، وكتاب « نقد كتاب الشعر الجاهلي » لمحمد فريد وجدي و « النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي » لمحمد احمد الغمراوي ( القاهرة ١٩٢٩ ) . واما الضجة الدينية فحملته على الاعتذار عما كان قد أعلنه وعلى ان يعيد اصدار الكتاب في عام ١٩٣٣ باسم « في الأدب الجاهلي » بعد أن حذف منه الأشياء التي اثارت الضجة .

*

**مراجع للتوسّع** في فلسفة التاريخ والطريقة العلمية للتأريخ وفي المؤرخين العرب . إن القائمة التالية تمثل هذين الفنين ولكنّها لا تستنفد الكتب المؤلّفة فيهما . ويحسن أن نعرف أن بعض هذه المراجع منقول عن اللغات الأجنبية، كما أن بعضها أحدث من بعضها الآخر ( وأن بعض ما ذكرناه يقوم مقام بعضٍ ما لم نذكره في هذا الباب ) :

قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ، تأليف السيد جمال الدين القاسمي الدمشقي ، دمشق ١٣٥٣ هـ ( ١٩٣٥ م ) .

مقدمة ابن خلدون .

دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، تأليف ساطع الحصري ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٣ .

مصطلح التاريخ لمؤلفه الدكتور أسد رستم ، بيروت ١٩٣٩ .

التاريخ : مجاله وفلسفته ، تأليف نوري جعفر ، بغداد ١٩٥٥ .

منهج البحث التاريخي ، تأليف حسين عثمان ، القاهرة ١٩٤٣ .

علم التاريخ عند العرب ، تأليف فرانتز روزنتال ( ترجمة صالح أحمد



العلي ) ، بغداد ١٩٦٣ .

نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، تأليف حسن نصّار ، القاهرة ...

بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب تأليف الدكتور عبد العزيز الدوري ، بغداد ١٩٦٠ .

مختصر دراسة التاريخ ، تأليف أرنولد توينبي ( ترجمة فؤاد محمد شبل ) ، القاهرة ١٩٦٠ — ١٩٦٢ .

ما ساهم به المؤرخون العرب في المئة سنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربي وغيره ، باشراف هيئة الدراسات العربية في الجامعة الاميركية في بيروت ، ١٩٥٩ .

# السامِيّون والعَرَب

## شبه جزيرة العرب

شبه جزيرة العرب واسعة جدّاً ، وسطحها مختلف متفاوت : اكثره **بادية** ( أرض تصلُح للزراعة ولكن لا ماء فيها ) وبعضه **صحراء** ( أرض لا تصلح للزراعة ولو سقط عليها الماء ) . وفي البوادي **جِواء** ( جمع جوّ أو جوّة : منخفض من الارض تتجمّع فيه المياه وتبقى مدّة طويلة فينبت فيه العشب ) . وفي بلاد العرب أيضاً نجود ( مرتفعات ) وجبال ، وفيها عدد من الحِرار ( جمع **حرّة** ، وهي أوض بركانيّة لا ينبت فيها شيء ولا تسكن ولا يستطيع الانسان أن يسير فيها الاّ بصعوبة شديدة ) .

والغالب على مُناخ بلاد العرب أنّه قاريّ صحراويّ يميل الى الجفاف كما تميل الحرارة فيه الى الاشتداد نهاراً ، على ان الحرارة تنخفض في بعض الانحاء الداخلية من شبه جزيرة العرب في االيل انخفاضاً كبيراً .

والمطر في البوادي قليل ، وإذا سقط المطر في بقعة فان العشب ينبت في تلك البقعة بعد أيام قليلة ثمّ إنه ينمو ثمّ يصفرّ ثم يذوي بسرعة .

هذه الحال في البادية هي التي جعلت البدْوَ رُحّلاً : يتَنَزّلون في مكان ريثما يَيْبَسُ عشبه ويَجفّ ماؤه ثم يتركونه الى مكانٍ آخرَ سقط فيه غيثٌ جديد .



والحياة في البادية في الشتاء أقسى من الحياة فيها في الصيف ، على قَساوة الحياة في الصيف . من أجل ذلك يمدحون الكرم في الشتاء ويتمدّحون به . ولذلك قالت الخنساء في رثاء أخيها صَخْرٍ : « وإنّ صخراً اذا نشتو لنَحّار » [1] .

*

كان المؤرخون الغربيون يقسمون الجنس البشري ثلاثةَ عروق : العِرقَ الساميَّ والعرق الحامي والعرق اليافثي ( الآري ) نسبة الى أولاد نوحٍ الثلاثة سام وحامٍ ويافث ، على ما في التوراة . ثم فَقَدَت هذه التسمية قيمتها لأنّ العروقَ البشريةَ أكثرُ من ثلاثةٍ ولأن ثلاثةً نفرٍ ابناء رجلٍ واحد لا يمكن أن يخرجَ منهم ثلاثةُ عروقٍ متباينة ( بمثلِ السرعة التي يُخيِّلها أولئك المؤرخون ) . ولقد عرَض ابن خلدون لهذه الروايةِ القديمة فقال ( المقدمة ، بيروت ١٩٦١ ، ص ١٣٤ — ١٤٤ ) :

« وقد توهّم بعضُ النسابين ممن لا علمَ ( لهم ) بطبائع الكائنات أن السودان هم ولدُ حامِ بن نوحٍ اختُصّوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه ... وفي القول بنسبة السواد الى حامٍ غفلةٌ عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفي ما يتكون فيه من الحيوانات ، وذلك أن هذا اللون شَمِل أهل الاقليم الاول والثاني [2] من مِزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة في الجنوب ... ( حيث ) يكثر الضوء ويُلِحّ القيظ الشديد عليهم فتسودّ جلودهم لإفراط الحرّ » .

### « السامية » مدرك لغوي

ومع أن قسمة البشر ساميين وآريين وحاميّين لا تزال مألوفةً ، فليس المرادَ منها اليوم أن تدل على عروق بشرية بل على خصائصَ لغوية :

---

(١) نشتو : نكون في الشتاء . نحار : كثير النحر ( الذبح ) للغنم والابل لتوزيع لحمها على القبيلة .

(٢) الاقليم الأول والثاني : اقليم خط الاستواء والذي الى الشمال .

ان السومريين والأشوريين والعبرانيين قد تكلموا لغات سامية ً في خصائصها ولكنهم هم لم يكونوا كلُّهم ساميين خالصين . وأهل الصِقع الواحد يتكلمون في الزمن الواحد عادة لغة واحدة ، ولكن ليس من الضروري أن يكونوا ذوي نسب واحد .

إن شبه المُجمَع عليه أن الشعوب التي سكنت بلاد العراق والشام ثمّ تفرّقت جماعاتٌ منها في شمالي إفريقية كله قد خرجت من شبه جزيرة العرب في أزمنة متعاقبة : ان الأكّديين والبابليين والآراميين والفينيقيين قد انتقلوا الى مواطنهم المعروفة من شبه جزيرة العرب . غير أن البلاد التي انتقلوا اليها لم تكن خاليةً من الشعوب ، فاختلط الساميون الطارئون بتلك الشعوب. ولقد اتفق للعرب الذين بقُوا في شبه الجزيرة أيضاً ، وخصوصاً في اليمن وعلى السواحل الجنوبية والشرقية شيء من الاختلاط بشعوب أخرى : إنّ العنصر الإفريقي بارز جداً في جميع سواحل شبه الجزيرة ؛ وكذلك العنصر الأسيوي ( من الفرس والهنود خاصة ) ظاهر الأثر على الساحل الشرقي .

فاذ قلنا نحن اليوم « ساميون » فإننا لا نعني أقواماً خالصي النسب بقدرِ ما ندل بذلك القول على جماعات تتكلم لغة ذاتَ خصائص يقال فيها إنهـا سامية [1] .

**« العرب » ومعنى كلمة « عرب »**

من المألوف أن تنتسبَ الامم والشعوب الى أسلافٍ لها حقيقيين أو

(١) تختلف اللغات السامية من اللغات الآرية الأولى في أمرين أساسيين : تكون الكلمات السامية صيغاً ( فعل ، فاعل ، مفعول ، مفاعل ، مستفعل ، الخ ) مشتقة على قياس واحد من أصول لغوية يقال لها جذور ؛ بينما الكلمات الآرية تأتي بالنحت ، أي بالجمع بـين كلمتين أو أكثر ، أو بين أجزاء من كلمتين أو أكثر في الكلمة القاموسية الواحدة . ثم ان الجملة السامية مستقيمة التركيب ( الفعل فالفاعل فالمفعول به ) ، بينما التركيب الآري تركيب مجانب متفاوت تأتي الكلمات فيه على حسب أهميتها بالنسبة الى المتكلم ، فقد يأتي الفعل متقدماً أو يأتي متطرفاً في آخر الجملة . ويميل الآري اليوم الى أن يأتي بالفضلة ( بالجمل الوصفية أو الظرفية ) في أول الكلام ، بينما السامي يؤثر العمدة ( الجملة الدالة على المعنى الأساسي ) في أول الكلام .



خرافين فيتألف من ذلك الانتساب جماعات قَبَلِيّة صغيرة أو كبيرة ، كما عرفنا في تاريخ العرب من انتسابهم إلى عدنان أو قحطان ثم تقسّمهم بكراً وتميماً وأسداً وعبْساً وشيبان أو طيئاً وخزاعة وأزداً وعنساً وهمْدان . ومثل هذا كان شأن الهنود واليونان والجرمان .

وإذا اتفق أن اتخذت الأمم أسماء جامعة فهي إما أن تشيرَ بذلك الى نفسها بأنها « الشعب » أو « الأمة » ، وإما أن تتخذ اسماء « كريمة ». إن سكان شمالي غربي إفريقيـة يسمون أنفسهم « الإيمازيغن » أي الأشراف ، والجرمان يدّعون ان اسمهم محرَّف من « هرمان » ، أي السيد ، وكذلك الإفرنسيون يزعمون أن اسمهم معناه « الأحرار » .

غير أن جميع الأسماء المشتهرة على الأمم في التاريخ إنما هي من صنع جيرانها أعداءً كانوا أو أصدقاءَ . إن سكان شمالي غربي إفريقية سماهم الرومان البربر ، وهذا هو الاسم الذي أشار به إليهم امرؤ القيس في شعره . ويبدو أن الغاليين هم الذين سموا الجرمان باسمهم هذا اشتقاقاً من كلمة « غير » ، بمعنى الجار . والإفرنسيون سُمّوا بذلك لأن سلاحهم القبَلي الخاص بهم كان يسمى « فرانقا » أي عنزة ؛ والعنزة هي الرمح القصير . والصينيون سماهم التجار القادمون إلى بلادهم من الشمال والجنوب أسماء كثيرة ( صين ، ثين ، شين سيريس ، كاثاي ) لا ندري اليوم معناها . والهنود يزعمون أنهم ينتسبون الى بهارتا فارشا ، وقد أطلقوا على بلادهم بعد استقلالها اسم « بهارتا » ، مع أن اسمهم المشهور في الشرق والغرب قديماً وحديثاً « الهند » اختصار من التسمية الفارسية : ما وراء النهر ، نهر الهند المحرف اسمه عن الكلمة السنسكريتية « سند » ومعناها النهر عامة ، وتطلق على نهر السند خاصة . ولقد أطلق الفرس اسم « الهند » في العالم الشرقي ، كما جعل اليونان كلمة الهند « اندس » ، على مقتضى لفظهـم وإعراب الكلمات في لغتهـم ، ثم أطلقوا الاسم في العـالم الغربي : إنديا .

وما كان اسْمُ العربِ بـدعاً في أسماء الأمم !

*

يبدو أن سكان ما بين النهرين القدماء ، البابليين والأشوريين ، كانوا على حق لما أطلقوا على أقاربهم الساميين وجيرانهم إلى الغرب والجنوب الغربي اسم « أ — ري — بي » .

ولا مَعُدى لنا عن الرجوع بهذه الصيغة « أريبى » إلى الجذو « ء — ر — ب » . غير أن هذا الجذر هجين جداً في لفظـه وفي معناه ، إن الهمزة في هذا الجذر تأتي في الصيغ التي يقال إنها مشتقة منه مفتوحة ومُمالة ، وربما جاءت مكسورة ، والباء فيه في الأصل باء تنفرج عنهـا الشفتان بيُسر ، ولكن قد ترد في عدد من مشتقات هذا الجذر باء مهموسة أومنفوثة .

وكذلك معاني المشتقات التي يقال إنها من هذا الجذر كثيرة جداً . ثم هي مزيج غير مؤتلف في بعض الأحيان ، ويبدو أن المعنى الأصيل لهـذا الجذر « الغرب » الذي يقابل « الشرق » . ثم تناول هذا الجذر معانيَ تتصل بجهة الغرب من قرب ومن بعد . من هذه المعاني غروب الشمس ، والمساء ، والعتمة . ثم هنالك الغُراب لأن لونه يشبه لون العتمة . ومن المعاني المتعلقة بهذا الجذر من بُعْدٍ ، الجرادُ لوجوده في تلك المنطقـة الغربية بالإضافة الى سكان ما بـين النهرين ، ومن معانيـه أيضاً القفْر « الصحراء » لطبيعة تلك المِنطقة عموماً .

ويهاجر هذا الجذر من بلاد ما بـين النهرين بمشتقاته غرباً فيسلك طريقين أساسيتين إحداهما تنحرف شَمالاً والثانية تتجّه جَنوباً .

في اثناء هذه الهِجرة ينخفض مبعث الهمزة في الحنجرة فتصبح هاء مرة نحو « أيكلو » التي تصبح هيكل ، وعينا مرة ثانية نحو « أنزو » التي أصبحت « عنزة » ، وتصبح غينا مُعجَمة مرة ثالثة نحو « أريبى » فإذا هي ( غروب ) . وأحياناً تبقى الهمزة همزة نحو « أربا » بفتح الهمزة



وأمالتها بمعنى أربعين ، وقد تتحيّر الهمزة أحياناً فنجد في القاموس العربي كلمات مثل : أرب ، وعرب وذرب ، بمعنى واحد هو فساد المعدة . وأحياناً يذكر القاموس مثل هذه الجملة : « الأربان بضم الهمزة لغـة في العربان بالعين » ( تاج ١ : ١٤٧ ) .

ليس في ما مرّ تعرّضٌ للّغة التي أخذت من أختها ، إذ الغاية مما مر أن ندل على أن كلمة « عرب » تَشْرَكُ كلماتٍ كثيرة تبدأ بغير العين في لغة مُضَرَ التي نتكلمها ونكتب بها . من أجل ذلكً وجب أن يكون الجذر الذي جاءت منه هذه الكلمة جذراً هجيناً غير خالص .

ونمر بالشعر الجاهلي الذي وصل إلينا فلا نجد فيه صيغة من حذر « ع — ر — ب » للدلالة على معنى قومي يتعلق بالجنس ولا على معنى يتعلق باللغة التي نتكلمها ؛ وهذا أمر له تعليله من تاريخنا السابق على الإسلام . لقد كان الجاهليون غارقين في منازعاتهم القبلية فلم يكن لديهم ، فيما لدينا من التُراث اللغوي ، ما يدل على المدرك القومي الجامع . ولكن لما وقف الجاهليون في أعقاب العصر الجاهلي وجهاً لوجه أمام الفرس على حدودهم الشرقية ثم كرهوا الحكم الفارسي الذي كان قد استطال في شبه الجزيرة ، بدأوا يستشعرون شيئاً من البُغضة للفرس ، وشعر عنـترة بهذه البغضة فقال معلقته عن ناقته :

شرِبَتْ بماء الدُّحْرُضَينِ فأصبحت   زَوْرَاءَ تَنْفِرُ عن حِياض الديلم[1] .

إن عنترة قد أحس بالدافع القومي الجامع ، ولكن لم يجد الكلمة التي تعبر عنه فاضطر إلى أن يدور حول المعنى ببيت كاملٍ من الشعر .

وجاء الإسلام ونزل القرآن الكريم مُنَجّماً في ثلاث وعشرين سنةً في مكةَ والمدينة فلم يرِدْ فيه من الجذر « ع — ر — ب » إلا ثلاثَ صيغ : « عُرُباً » جمع عَروب ( بفتح العين ) نعتـاً للمرأة المتحبّبة

(١) راجع لسان العرب ( مادة « دلم » ) . و « مفردات الراغب » في مادة « عرب» .

لزوجها في قوله تعالى « عُرُباً أتْرَاباً » ( ٥٦ الواقعة : ٣٧ ) . ثم جاءت الصيغة « أعراب » عشر مرات في سُوَرٍ مدنية فقط . منها ست مرات في سورة التوبة وحدَها . ولا حاجةَ بنــا الى الاستهشادِ على أن كلمة أعراب تدل في القرآن وفي غير القرآن على البَدْو .

أما الكلمة الفاصلة في هذا الشأن فهي كلمة « عربي » التي وردت في القرآن الكريم إحدى عَشْرَةَ مرةً ، في سور مدنية وفي سور مكية أيضاً . غير أن هذه الكلمة قد وردت عشر مرات نعتاً للّغة التي نزل بها القرآن بأنها لغة واضحة بيّنة ، من مثل قوله تعالى : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » ( ١٢ يوسف : ٢ ) ، أي تفهمون . ويبدو أن هنالك مكاناً واحداً استُعمِلَتْ فيه الكلمة « عربي » لتنعت شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، في قوله تعالى : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلَتْ آياتُهُ ، أأعجميٌّ وعربيٌّ ؟ » ( ٤١ السجدة : ٤٤ ) أي أكتابٌ أعجميَّ اللغة ، ونبيٌّ عربيٌّ » ؟

إن استعمال كلمة عربي في القرآن الكريم دلت الشعراء على التعبير الذي لم يقع عليه عنترة . ومنذ السنة الثالثة للهجرة قال كعب بن مالك يذكر رسول الله :

بدا لنا فاتّبعناه نصدّقُــه وكذّبوه ، فكنا أسعدَ العَرَبِ .

وبعد ذلك بمدة يسيرة ، فيما يبدو ، قال حسان بن ثابتُ يقرّع بني هُذيل لما اشترطوا على الرسول أن يُحِلَّ لهم الزنا حتى يدخلوا في الإسلام :

سالَتْ هُذيلُ رسولَ الله فاحشةً ، ضلّت هذيلُ بما قالت ولم تُصِبِ :
سالوا رسولَهُمُ ما ليس مُعْطِيَهُمْ حتى المماتِ ، وكانوا سُبَّةَ العربِ !

وهكذا بدأ في الشعر العربي مَدْرَكٌ لم يكن معروفاً من قبلُ ، هو أن العرب جماعة واحدة ذات نِطاق من الوَحدة الجامعة . على أن مدرك العُروبة يومذاك ، أو المدرك القومي العام على الأصح ، كان والإسلامَ شيئاً واحداً . بعد غزوة الخندق ، في السنة الخامسة للهجرة ، وإجلاء اليهود من بني النضير



وبني قُرَيظة ، رثى شاعر بني الأشهل ، واسمه الضحّاك ، لحال أولئك اليهود . من أجل ذلك هجا حسانُ بن ثابتٍ هذا الشاعرَ ، وذكّره بأن نفراً من قبيلته بني الأشهل ، قد كانوا مسلمين حقاً ، منهم إياس بن أوس بن عَتيك الذي استُشْهِدَ في غزوة أُحُد ، وأنس بن أوْس بن عتيك الذي استشهد في غزوة الخندق . وهكذا قال حسان بن ثابت للضحاك هذا :

أتُحِبّ يُهْدانَ[1] الحجاز ودينَهم ، كَبِدَ[2] الحمار ، ولا تحب مُحمّدًا .
لو كُنتَ منا لم تُفارِقْ دينَنــا وتَبِعْتَ دينَ عتيكَ حين تشهّدا .

وسَرعانَ ما برزت كلمةُ ( عرب ) في مقابل كلمة ( روم ) وكلمة نَبيط ( آراميين ) واكتسبتْ بذلك معنىً قومياً واضحاً . جاء في الاغاني ( دار الكتب ١٤ : ٨٧ — ٨٨ ) :

بعد فتح مكة ، في السنة الثامنة للهجرة ، قَدِمَ قيسُ بن عاصمٍ وعمرُو ابن الأهتم ابنُ عمه على الرسول . فلما صارا عنده تسابّا وتهاترا . ثم قال قيس بن عاصم للرسول عن عمرو وقومه : « والله ، يا رسولَ الله ، ما هم منا ؛ وإنهم لمن أهل الحيرة » . ثم قال عمرو بن الأهتم : « بل هم ، والله ، يا رسول الله ، من الروم وليسوا منا » ، ثم قال عمرو بن الأهتم مخاطباً قيس ابن عاصم :

إن تُبْغضونا فإن الروم أصلُكُمُ ، والروم لا تَمْلِكُ البغضاءَ للعرب !

ولقد نَهى الرسولُ صلى الله عليه وسلم قيساً وعمراً عن هذا التلاحي ، وأفهمهما تلميحاً أن الإسلام قد أغرق العصبياتِ كلَّها .

وفي أثناء الفتوح العربية ، أو الفتحِ الاسلاميّ على الأصح ، في أيام عمرَ بنِ الخطاب ، بلغ الشعورُ العربي من الناحية القومية مبلغاً يتمثل في البيت

(١) يهدان جمع يهود .
(٢) في شرح القاموس – مادة هود ( عبد ) بدل ( كبد ) . كبد الحمار . يا كبد الحمار .

التالي ليَرْبوع بن مالكٍ ، والذي أورده الطبري ( ١ : ٢٥٣٦ ليدن ) ، وهو :

إذا العرب العَرْباءُ جاشت بحورُهـا — فَخَرْنا على كل البحور الزواخـر .

ثم تقلبت كلمة « عرب » بعد ذلك بين المدرك القومي الخالص وبين المدرك المتصل بالإسلام اتصالاً وثيقاً ، وجرى المدركان جنباً الى جنبٍ عصوراً ، والشواهد على ذلك كله كثيرة تحتاج الى دراسة مستقلة .

هذا كله من الناحية اللغوية في تاريخ كلمة « عرب » . ولكن يبدو لنا أيضاً أن الإسلام هو الذي جعل لكلمة « عرب » هذا المقامَ في شعور الجماعة ، ولكن نَهَى عن أن يكونَ هذا الشعورُ عاملاً مُفَرّقاً بين صفوف الأمة التي وحّدها الإسلام .

## طبقات العرب

يذهب مُعْظَمُ المؤرّخين الى أن العرب ثلاثُ طَبَقاتٍ : بائدة وعاربة ومُسْتَعْرِبَة . والأصوبُ أن نأخذ برأي صاعدٍ الاندلسي ( ت ٤٦٢ هـ — ١٠٧٠ م ) فنجعلَهم طبقتين فقط : بائدة وباقية ( طبقات الأمم ٤١ ) .

أما العرب البائدة ، ويُطْلق عَلَيْهِم اسمُ العاربةِ أو العَرْباء ، فهم الذين كانوا عرباً صُرَحاء خُلّصاً ذوي نسب عربي خالص ( نظرياً على الاقل ) . هؤلاء كانوا قبائلَ عاد وثَمودَ وعِمْليق وطَسْمٍ وجَديس وقد يضاف اليهم أحياناً عَبيل وجُرْهُمُ الأولى ثم وَبار .

وأما العرب الباقية ، ويُسَمّوْنَ أيضاً المتعرّبة والمستعربة ، فهم الذين ليسوا خُلّصاً ؛ وهم بنو يَعْرُبَ بنِ قَحْطانَ وبنو مَعَدِّ بنِ عدنانَ بن أُدّ . وكان يعرب بن قحطان ، في قول الرواة ، أولَ مَنِ انعدل لسانُه عن السُريانية الى العربية ، أو أولَ من تكلّم بالعربية [1] . وكيف قَدّرنا

(١) الجمهرة لابن دريد ١ : ٢٦٦ ، نهاية الأرب ١٤ : ٣٣٩ ، المزهر للسيوطي ١ : ٣١ — ٣٢ تاج العروس ١ : ٣٧١ ، ٢ : ٤٣٧ .



أقوالَ الرواة ، ومهما قدّرنا لمعدّ بن عدنان بن أُدّ من الزمن ، فان اللغة العربية أقدم من ذلك كثيراً ، مما نَعْرِفه من صرفها ونَحْوها وشِعرها ونثرها .

## انقراض العرب البائدة

في تاريخ العرب قبل الاسلام حِقْبتان : الحِقبةُ القريبة من الاسلام ، وكانت نحو مائتي عام ، وهي التي سمّاها القرآن الكريم « الجاهلية » [1] على الحصر . ثم هنالك حِقْبةٌ سبقت هذه الجاهلية يجوز أن نُسَمّيَها الجاهليةَ القديمة أو الجاهلية الاولى [2] ، وهي تمتدّ في الزمن رجوعاً الى فجر التاريخ .

وجميع أخبار الجاهلية القديمة أو الجاهلية الأولى قد ضاعت ، الا ما بَقِيَ من آثارها المادّيّة على وجه الأرض .

ويبدو أن العرب البائدة قد بادوا أوِ انقرضوا بعاملين طبيعيّين : بالرمل الزاحف وبهياج البراكين .

أما الرمل الزاحف فقد قضى على المدن التي كانت في أواسط شبه الجزيرة ، وفي الاحقاف على أطراف الربع الخالي خاصة .

وأما هِياج البراكين فنتُج منه ظواهرُ متعدّدةٌ : قوّةُ الانْفجار ، خَسْفُ الأرض ، الغازات المنتشرة من البركان ، تساقط الرّماد والحِجارة ، الريحُ الشديدة العقيمُ .

ومن العرب البائدة ( المنقرضة ) عاد وطسم وجديس وبنو لِحْيان الأوّلون وثمود : انقرض معظمهم بالحوادث الطبيعية ثمّ اختلطت بقاياهم بالقبائل الاخرى .

(١) ٣ : ١٥٤ (آل عمران) ، ٥ : ٥٣ (المائدة) ، ٣٣ : ٣٣ (الاحزاب) ، ٤٨ : ٢٦ (الفتح) ، ٤٩ : ٦ (الحجرات) .

(٢) في سورة الأحزاب : «ولا تبرجن (بتشديد الراء وسكون الجيم وفتح النون) تبرج الجاهلية الأولى ( ٣٣ : ٣٣ ) .

## اليهود والنصارى في بلاد العرب

ومنذ القرن الأول للميلاد جاء الى بـــلاد العرب جماعاتٌ من اليهود والنصارى .

ثار اليهود على الرومان فقضى الرومان على ثورتهم وأبادوا جموعاً منهم ( عام ٧٠ م ) ثم حرّموا عليهم الدخول الى القدس . وتفرق اكثر الباقين من اليهود في الأرض فجاء جماعة منهم الى بلاد العرب لاجئين الى عدد من المدن ذات الزراعة والتجارة . وقد كثروا خاصة في منطقة تمتد من يَثْرِب الى خَيْبَرَ الى تَيْماء . ولما جعل قسطنطين الأولُ النصرانيةَ ديناً للدولة ( عام ٣١٢ م ) أصبحت الدولةُ مُتَنازَعةً بين أصحاب المذاهب المختلفة . فكان اذا استولى اهل مذهب على الحكم أسرعوا الى اضطهاد اصحاب المذاهب الاخرى . وكانت تلك السياسة الدينية تحمل في كل فترة جماعةً من المضطهدين على مغادرة بلادهم . ولقد كانت شبه جزيرة العرب مكاناً صالحاً لِلُجُوءِ أولئك المُضْطَهَدين ، لأن شبه الجزيرة لم تكن خاضعة للروم ، بخلافَ العراق والشام وآسية الصغرى ومصر وسائر بلاد العالم القديم .



# العَرَبُ البَاقِيَة

حينما نقول العربُ البائدةُ والعرب الباقية لا نعني أن أقواماً انقرضوا فلم يَبْقَ منهم أحدٌ وأن أقواماً لم يكونوا ثم نشأوا من جديد . ان الذي يجب ان نَعْنِيَه هو المَدْرَكُ التاريخي التالي :

قد يقلّ عددُ قومٍ بالكوارث أو بالذَوَبان في غيرهم ( بالإستعمار أو بالانتقال من دين الى دين او من حكم سياسي الى حكم سياسي ) فيتوقّف تاريخُهم وتَبْطُلُ حضارتُهم ، فنقول : إن هؤلاء القومَ قد بادُوا : معَ العلم بأنه قد يكون قد بَقِيَ منهم بقايا قليلةٌ أو كثيرة ولكنْ من غير قيمة حَضارية . والتاريخ انما هو « تطورُ الحضارة » . أما الأمة الجديدة أو الجماعة الجديدة فهي أمة أو جماعة قديمةٌ بالمعنى الطبيعي ، أي أن أسلافَها موجودون منذ الأزلِ ككل جماعة بشرية أخرى . فاذا عَظُمَتْ هذه الجماعة في زمن من الازمان بأنْ ظهرٍ على يَدَيْها وجهٌ من أوجه الحضارة فإن اهتمامنا بها حينئذٍ يزيد فنبدأ بدرس تاريخها . بهذا المعنى تكون الجماعة أو الأمّة جديدةً : ان وجود الجماعات أوِ الأممِ في التاريخ يبدأ بنشوء حضارتها .

أما فيما يتعلّق بالعرب في الحِقْبة التي ندرس تاريخَهم فيها — في الجاهلية — فان أقواماً منهم ذوي حَضارات قد بادوا وانقرض مُعْظَمُ أفرادِهم فبادت حَضارتهم بانقراضهم . ثم برز أقوام آخرون من هؤلاء العرب أنفسِهم لم تصلْ اليهم أيدي الكوارث وظهروا بوجه من الحَضارة البدوية

وبدأوا يَشْغَلون الأقوامَ الذين حَوْلَهم . هؤلاء الاقوامُ الذين شَغَلونا في طورٍ متأخر من أطوار التاريخ بالإضافة الى أقوام سبَقوهم في الزمن نقول عنهم إنهم أقوامٌ من العرب الباقية . انهم جَديدون لأن حَضارتَهم جديدةٌ فبدأنا نحن تأريخَ حياتِهم ببَدءِ ظهورِ حَضارتِهم .

## العرب الباقية هم البدو

ان البَدْوَ الذين يعيشون اليوم في خيامهم في بَوادي شبه جزيرة العرب وفي بادية الشام هم أحفادُ البَدْوِ الذين عاشوا في هذه البوادي نفسِها منذ أقدم أزمنة التاريخ التي وصلت الينا أخبارُها . ان النقوش المصرية والنقوش البابلية والاشورية تُرينا هؤلاءَ أسرى أو يقدّمون الجزية لملوك مصر والعراق . وفي عام ٨٥٤ ق . م . هاجم الملك الاشوري شلمانصّر (سلم نسر) قَرْقَرِ (شَمال حَماة) وحارب ملكَ دمشق الآرامي وحليفيه أحب وجُندبُ (البَدْويين) . وكان في ما غنمه شلمانصّر ألفُ جملٍ لجندب [١] .

وان اللقب «ملك العرب» لم يكن يعني أكثر من «رئيس البدو» أو شيخ القبيلة .

في نحو عام ٢٠٠ قبل الهجرة (٤٠٠ م) كان مُعْظَمُ أهل الجاهلية الأولى من أهل الحَضَر قد بادوا بالكوارث الطبيعية التي أصابت شبه جزيرة العرب . ولا ريب في أن جماعاتٍ من البدو هَلَكوا بتلك الكوارث نفسها أيضـاً .

لقد كان للبادية حضارتُها الخاصةُ بها . ويبدو أن هذه الحضارةَ البدويةَ لم تكن في مُستواها أقل من الحضارات المعاصرة لها . وكان الجانبان الروحي والأدبي من تلك الحضارة ساميَيْنِ جداً . ان اللغة التي وصلت إلينا من أولئك البدو كانت أتم اللغات الساميّة مُفرداتٍ وصَرْفاً ونَحْواً وبلاغة .

---

(١) Hitti, A History of the Arabs 4 th ed. 1949, p. 37 and 286, note 1.



وكان الأدب الذي وصل الينا من الجاهلية أدباً إنسانياً رفيعاً وغزيراً جداً . وكان في هذا الأدب الذي وصل الينا مُثُلٌ عُلْيا وآراءٌ في الحياة وجوانبُ من المعرفة وقواعدُ من السلوك الشخصي والجَماعي تَدُلّ كلّها على المستوى الذي وصل اليه أولئك البَدْوُ في حياتِهِمْ العامّةِ والخاصّة . على أنه كان لهؤلاء البدو مساوىءُ كثيرةٌ حملتهم عليها حياةُ الشظف القاسية التي خَضَعوا لها في بيئتهِم تلك . ان معظمَ تلك المساوىء تبدو مُجَسّمةً لنا كثيراً لأننا نَقيسُها عادةً ببيئتنا نحن وبحضارتنا نحن . وكان كثير من عادات أولئك البَدْو مساوىء بالاضافة الى المُثُلِ العُلْيا والى الاخلاق الشخصيةِ والاجْتماعيّة التي تقبّلها البشر في تاريخ الحضارة الانسانية .

## التُراث البَدْويّ

ان البَداوة لا تَعْرِفُ الكلامِ وتسجيلَ الآراء . والبدو يعتمدون في ذلك كلّه على الذاكرة ؛ ولكنّ الذاكرة الانسانية لا تحفظ الاقوال والآراء القديمة كثيراً ، ثم هي لا تحفظ تلك الأقوال والآراء حفظاً دقيقاً صحيحاً .

بعد أن جاء الاسلام ونزل القرآن الكريم ثم مضى الصَدْرُ الأول ، كان القرآن الكريم هو الشيءَ الأولَ الذي تعلّق به اهتمام المسلمين . لقد أراد المسلمون في الأجيال التالية أن يفهموا القرآن الكريم فهماً تاماً لأنه اساس الدين : لقد ارادوا أن يفهموه لُغَوياً وبَلاغياً وتاريخياً وجُغرافياً واجتماعياً وثقافياً . وبما أن القرآن الكريم قد نزّل باللغة التي كان أولئك البدو يتكلّمونها —وما أرسَلْنا من رسولٍ الا بلسان قومِهِ ليُبيّنَ لهم [١]— فقد اندفع العلماء لجمع كلّ شيء من التراث الجاهلي يمكّنهم من فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً . لقد جمعوا ألفاظَ اللغة من أجل فهم ألفاظ القرآن الكريم فهماً صحيحاً دقيقاً شاملاً . وباستطاعتنا أنْ نقولَ إنّ أولئك العلماءَ الرواةَ لم يهتمّوا الا بما كان له صِلةٌ بفهم القرآن الكريم . غير أن

---

(١) سورة ابراهيم (١٤ : ٤) .

هؤلاء العلماءَ الرواةَ لم يستطيعوا أن يجمعوا إلاّ ما كان لا يزال عالقاً بالذاكرة العربية .

ان هذا الذي وصل الينا من التُراث البَدْوِي هو الطريق الوحيد الى اقتصاص تاريخ الجاهلية مما لم يُشر اليه القرآن الكريم .

## الجاهلية وأهلها

الجاهليةُ هي الزمن الذي مرّ قبل الدعوة الإسلامية ، أو قبل الهجرة على الأصح ، ذلك لأن الحكم السياسي والنفوذَ الاجتماعيّ كانا لا يزالان قبل الهجرة للمشركين من العرب . والجاهلية اسم أطلقه القرآن الكريم على تلك الحِقْبة من الزمن .

ورد لفظُ الجاهلية في القرآن الكريم أربع مرّات :

— في سورة آل عِمْران ( ٣ : ١٥٤ ) : — ... وطائفةٌ قد أهمَتْهُمْ أنفسُهم يظنّون بالله غيرَ الحق ظنّ الجاهلية ؛ يقولون : « هلْ لنا من الأمرِ شيء ؟ » — قل : « إنّ الأمرَ كلَّه لله ! » يُخْفون في أنفسِهم ما لا يُبْدون لك ؛ يقولون : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنا ههُنا » . — قل : « لو كُنْتم في بيوتكم لَبَرَزَ الذين كُتِبَ عليهم القتْلُ الى مضاجعهم [1] ... » .

— في سورة المائدة ( ٥ : ٤٩ — ٥٠ ) : وأنِ احكُمْ بينهم بما أنزل الله ، ولا تَتّبِعْ أهواءَهم ، واحْذَرْهم أن يَفْتِنوك عن بعض ما أُنْزِلَ اليك .. — أفَحُكْمَ الجاهلية يَبْغون ! ومَنْ أَحْسَنُ من الله حُكْماً لقوم يُوقنون !

— في سورة الاحزاب ( ٣٣ : ٣٣ ) : وقَرْنَ في بيوتِكُنّ [2] ولا

(١) لو كان اولئك الذين قدر الله عليهم منكم ( أيها المسلمون ) الموت بالقتل حينئذ في بيوتهم لخرجوا من بيوتهم من تلقاء أنفسهم الى حيث كان المشركون ولقتلوا .

(٢) امكثن ، يا نساء الرسول ( ويا سائر نساء المسلمين ) في بيوتكن ولا تظهرن محاسنكن للرجال ( من غير أزواجكن ) ، كما كان النساء يفعلن في أيام الجاهليه .



تبَرَّجْنَ تبَرُّجَ الجاهليةِ الأولى ... —

— في سورة الفتح ( ٤٨ : ٢٦ ) : اذ جعل الذين كفروا في قلوبِهِمُ الحَمِيّةَ حَمِيّةَ الجاهلية ... —

مما تقدّم ، ومما وَصَفَ اللهَ به العربَ قبل الاسلام من غير أن يُطْلِقَ عليهم لفظ الجهل هذا ، ندرك أن « الجاهلية » مشتقّة من « الجهل الذي هو ضِدّ الحِلْم » ، لا من « الجهل الذي هو ضد العِلم » .

فأهل الجاهلية اذن هم العربُ الذين عاشوا قبلَ الاسلام في بَوادي شبه جزيرة العرب وفي مدنها الباقية ، إذ كان يَغْلِبُ عَلَيْهِمُ التّنازُعُ والتقاتل والعداوةُ والثأرُ والتعاونُ على الإثم والعُدْوان وظلمُ بعضِهم بعضاً بتقديم مصلحة قبيلةٍ على قبيلة وتقديم مصلحةِ الفرد على مصلحة القبيلةِ ، كلّما وجد الفردُ فرصةً الى ذلك . كما كان يَغْلِبُ على جماعات منهم أحياناً وَأد الأولاد [1] وشرب الخمر ولَعِبِ المَيْسر وأخذ الربا والاسرافُ في الكرم .

## عرب الشمال وعرب الجنوب

في الاخبار المروية وفي أشعار الفخر والهجاء أن العرب قسمان : قحطانيون من نسل قَحْطانَ أبي عرب اليمن ( أو عرب الجنوب ) ثم عدنانيّون من نسل عدنانَ أبي عرب العاليَةِ ( عرب الشَمال ) . ويُنْسَبُ عربُ الشَمال الى مَعَدّ بن عدنان والى نِزارِ بن معدّ والى مُضَر . ونزار والي قيس ، واسم قيسٍ هذا إلياسُ بن مُضَرَ ( قا ٢ : ٢٤٤ ) . وكان بين القحطانيين

(١) كان بعض الجاهليين من الفقراء والضعفاء يدفنون الأطفال عقب ولادتهم خشية الفقر ( لأنهم لم يكونوا قادرين على إعالتهم ) أو خشية العار ( إذا كان اولئك الأطفال بنات ثم سبين في المعارك أو الغارات ) . القرآن الكريم يذكر وأد الأولاد خوف الفقر . جاء في سورة الأنعام ( ٦ : ١٥١ ) : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ( فقر ) ، نحن نرزقهم واياكم » . وجاء في سورة الاسراء ( ١٧ : ٣١ ) : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم ان قتلهم كان خطئاً كبيرا » .

والعدنانيين [1] عصبيةٌ [2] في الجاهلية والاسلام ، وَرَدَتِ الاشاراتُ اليها في الشعر الاسلامي والشعر الجاهليّ . قال عبد يَغوثَ بنُ وقّاصٍ الحارثي [3] .

أقول ، وقد شدّوا لساني بنِسْعة : أمعشَرَ تَيْمٍ ، أطْلقوا عن لِسانيا .
وتضحكُ منّي شَيْخَة عَبْشَمِيَّةٌ ، كأنْ لم تَرَيْ قبلي أسيراً يمانياً [4] !

يورد الدكتور جواد علي في كتابة القيّم [5] مناقشة طويلة يُحاول أن يُثْبِتَ بها أن العرب يَجْمَعُهُمْ كلّهم أبٌ واحد ، وأنهم ليسوا منقسمين بين أبَوَيْنِ مُتناظرَين : قَحطانَ وعَدنانَ . وسواءٌ علينا أكان العرب منقسمين بين أبوين أو كان يجمعهما أبٌ واحد ، فانّ مساكنَ العربِ البعيدةَ

(١) يلاحظ من القاموس أن جميع معاني أسلاف العرب المشهورين تتعلق بالقحط وبشظف العيش وبالحياة في البادية . قحطان من القحط ( ٢ : ٣٨٧ ) . وعدنان أبو معد مشتق من الجذر عدن : عدنت الابل الحمض ( بسكون الميم : نبات تأكله الابل ٢ : ٣٢٨ ) استمرأته ( وجدته مريئاً : هنيئاً طيباً ) وتمت ( سمنت ) عليه . ثم ان عدن جزيرة باليمن وبلد مشهورة ، وهي وعدنان أبي عرب الشمال من جذر واحد ( ٤ : ٢٤٧ ) . ومعد ابن عدنان أبو العرب مشتق من « عد » وربما كانت الميم فيه أصلية لقولهم : تمعدد أي تزيا بزي معد في تقشفهم أو تصبر على عيشهم . وفي الحديث تمعددوا واخشوشنوا ( ١ : ٣١٣ ) . ونزار والنزر ( القليل ) من جذر واحد ( ٢ : ١٤١ ) . ومضر بن نزار من الجذر « ضر » . والمضارة ( بتشديد الراء ) الشدة والقحط ( ٢ : ٧٥ ) ، وقيل سمي مضر لولعه باللبن الماضر أي الحامض ( ٢ : ١٣٤ ) . وقيس ابن مضر هو قيس عيلان ( بفتح العين ) ، واسمه اليأس بن مضر بن نزار ( ٢ : ٢٦٠ ) ، والناس ابن مضر ( ٢ : ٢٤٤ ) هو اخو الياس بن مضر ( ابن الاثير ١ : ٣١٤ ) .

(٢) العصبية : القتال بين قومين متقاربين في النسب لضغن ( بكسر الضاد ) وثأر بينهما قديمين ؛ واكثر ما كانت تقع العصبية بعد الاسلام بين جماعات ينتسبون الى قيس وجماعات ينتسبون الى اليمن . وكانت العصبيات ( القتال بالعصبية ) تقع في الشام ومصر وافريقية والاندلس .

(٣) عبد يغوث يمني النسب من مذحج توفي عام ٤٢ ق . م ( ٥٨٠ م ) . قاد عبد يغوث قومه اليمانيين يوم الكلاب ( بضم الكاف ) الثاني وحارب بهم بني تميم واحلافهم ( من العدنانيين ) .

(٤) النسعة : زيق من جلد . وتيم هنا : تيم بن غالب بن فهر ( بكسر الفاء ) : قريش . عبشمية : نسبة الى عبد شمس . كأن لم تري : كأن لم تري أنت ( بعد أن قال : وتضحك ) على الالتفات من الغائب الى المخاطب . وهذا من أوجه البلاغة .

(٥) تاريخ العرب قبل الاسلام ١ : ٢٢٠ وما بعدها الى الصفحة ٣٣٦ .



ما بين الشَمال والجَنوب قد جعلت منهم أهل عصبيّتين : عصبيةٍ قَيْسيةٍ وعصبية يَمانية ( أو صِفْ تينك العصبيتين بما شئت من الصفات ) يتنازع أهلُهما ويتقاتلون منذ الجاهلية . وقد ظل هذا النزاع في الشام ( سورية : في فلسطين ولبنان خاصة ) الى القرن التاسعِ عَشَرَ !

ثم ان هذا التباعدَ في المسكن ، بالاضافة الى الاخْتلاف في الجِوار التابع للتباعد في المسكن وإلى التفاوُتِ في طبيعة الأرض بين الشَمال الجَنوب ، قد جعل للعرب قبل الاسلام حضارتين مختلفتين .

## حياة العرب في الجنوب وحياتهم في الشمال

اذا نحن ضربنا صفحاً عن قِسمةِ العرب قِسمةً جنسيةً قحطانيين وعدنانيين ، فلا مَعْدى لنا عن أن نقسمهم قسمةً جغرافية ، جَنوبيين وشَماليين باعتبار اختلاف المسكنين من الجنوب والشمال . أما اذا أدخلنا اليمن السياسية ( التي هي الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة ) في حسابنا فان الفرق سيكون عظيماً جدّاً . من أجل ذلك سنوازن بين العرب في الشمال وبين العرب في الجنوب باستثناء اليمن السياسية :

— ان عرب الشَمال كانوا أصفى أنساباً . واذا فرضنا اختلاطهم بمن جاورهم في الشام والعراق ، فان هذا الاختلاط كان بين عرب وعربٍ أو بين عرب وساميّين . ثم إن الاختلاط بين عرب الشمال وبين الفرس والروم كان أمراً نادراً جداً . إما عرب الجَنوب فكان اختلاطهم بالافريقيّين خاصة وبالفرس والهنود بارزاً جداً .

— ان حياة عرب الشمال كانت في مُعظَمها بـدْوية ، فلم ينزلْ بينهم جَـوال أجنبيةٌ . أما عرب الجنوب فكانت حياتهم أقربَ الى أن تكون حَضَريةً لأن أرضهم على سِيف البحر كانت أكثر خِصباً . ولقد نزلت في الجنوب جَوالِ زَنْجية وهندية وفارسية كثيرة ، مما أثّر في الانساب وفي الحياة الاجتماعية معاً .

— ان النفوذ الاجنبي ( النفوذ الفارسي والنفوذ الحبشي ثم النفوذ الرومي من وراء النفوذ الحبشي ) كان ظاهراً جداً في الجنوب . ومع المقاومة العنيفة التي قاوم العرب الجَنوبيون بها النفوذ الاجنبي ، فإن بعضهم قد تقبل هذا النفوذَ ورَضِيَ أن يكون آلةً لحُكْم إخْوانه عرب الشمال باسم الفرس أو الروم . وأشهر الأمثلة في ذلك المناذرة والغساسنة وآل كِنْدة .

وبما أن الحضارة كانت أغلبَ على عرب الجنوب فإن عرب الجنوب كانوا أبرع في الصناعة والتجارة وجباية الأموال . من أجل ذلك كانوا يحاولون بسط نفوذهم على عرب الشمال البدو . وكانت البداوة في الشمال تَغْلِبُ على المدن أيضاً .

— كان شماليّ بلاد العرب طريقَ التجارة الى العراقِ والشام ومصرَ ، فلم يكن بدٌّ لليمن ، في سبيل المحافظة على سَلامة طريق قوافلها ، من أن يكون لها شيءٌ من النفوذ على شماليَّ بلاد العرب . وقد كان عرب الجَنوب أطوعَ لليمن وأقدرَ على التسلّط فاستخدمهم أهلُ اليمن وغير أهل اليمن ( الروم والفرس ) في بسط السيطرة على شماليّ بلاد العرب.

وكذلك كان شماليّ بلاد العرب ، وهو في اكثره بَدْوِيّ ، محتاجاً الى مصنوعات اليمن فكان سوقاً طبيعية قريبة لتلك المصنوعات . وهذا ايضاً قد دعا اليمن الى بسط شيء من نفوذها على عرب الشمال من وراء عرب الجنوب .

— كانت اللغةُ العربية هي السائدةَ في الشمَال والجَنوب . ولكنّ اللغة العربية الواحدة خضعت في الشمال والجنوب لمجريَيْن مستقلّين من التطوّر حتى كادت ان تصبح لغتين كالعربية والآرامية ، أو كالعربية والحبشية . ولولا أن الاسلام رد جميع المسلمين الى لغة أهل الشمال لكانت اليمن الجغرافية تتكلم اليوم لغة من اللغات السامية تختلف من اللغة العربية كثيراً أو قليلاً .



## البداوة والحضارة

بين البداوة والحضارة فرقٌ أساسيّ واحد : يكتفي البَدْويّ بالضَروري من أسباب المعاش ، بينما يتوسع أهل الحَضَر في اسباب التَرَفِ من المطاعم والملابس والمساكن . من هذا الفرق الاساسي تتفرّع جميع خصائصِ البداوة وجميع خصائص الحضارة المدنية بما في البداوة وفي الحضارة البَدْوية من المحاسن والمساوىء . ونحن نجد أن للبَدْوِ خصائصَ هي :

أ — الرِحْلة في طلب المعاش :

البَدْوي مُضْطرّ الى الانتقال من مكان الى مكان في البادية طلباً للماء والكَلأ : كلّما نَفِدَ الكلأ والماء في مكانٍ ارتاد مكاناً آخرَ يجدُ فيه ماء وكلأً من مطرٍ جديد . فالبَدْويّ من أجلِ ذلك يسكن الخيام ويتخذ من الحَيَوان الإبلَ والخيل والغَنَم ( الضأن والمِعْزى ) لقدرة هذه الانعام على الرِحلة معه[1] . والبدو في الاصل متوحّشون ، أي يَنْزِلون البِقاعَ البعيدة عن العُمران الحَضَري ( عن الأمصار أو الأماكن ذات البناء الثابت والسُكنى الدائمة ) .

ب — القوة والشجاعة :

والبدو أصحّ أبداناً ( من أهل الحَضَر ) للنشأة الطبيعية ولِصحّة الهواء في البادية ، ولذلك كان البدو أقلّ تعرضاً للأمراض ( لقِلّة الأمراض في البادية ) وأقدر على احتمال المَشاقّ والمجاعات . ثم ان البدو أكثرُ شجاعةً لاضطرارهم الدائم الى الدفاع عن أنفسهم وأهلِهم وعمّا يَمْلِكون في وجه العَدُوّ المُغير وفي ردّ الحَيَوان المفترس . من

(١) هذه حال البداوة في المشرق . أما في المغرب فان البدو يقومون على رعاية الحيوان ويعملون في الزراعة أيضاً . وربما اتخذ البدو في المغرب بيوتاً ثابتة مبنية في مكانين مختلفين يشتون في مكان منها ويصيفون في المكان الثاني .

أجل ذلك تصبح الشجاعة ويصبح القتالُ عادتين في البَدْوِيّ ينشأ عليهما منذ الصِغَر .

ومن توابع الشجاعة **النجدة** ، وذلك أن يسرع البدويّ الى إغاثة المظلوم ( المعتدى عليه ، حقّاً او باطلاً ) والملهوف ( الذي ظلمه دهره ) والمستنجد به من غير أن يسأل عن طبيعة المساعدة التي يطلبها المستنجد منه .

ج — العصبية :

يقول ابن خلدون : « العصبية هي النُعْرة على ذوي القُربى وأهل الأرحام أن ينالَهم ضيمٌ أو تصيبَهم هَلَكَةٌ » . وتكون العصبية (الشعور بالصِلة بين أفراد الجماعة الواحدة ) بين أهل النسب الواضح ( القَرابة الظاهرة ) ومَن صاهرهم ( تزوّج نساء منهم أو تزوّجوا هم من نسائه ) أو انتسب اليهم بالولاء ( دخل في حمايتهم أو أصبح رقيقاً عندهم ) أو الحِلفّ ( المعاهدة ) » . وكلّما كان عدد أهل العصبية أكثرَ كانت قيمتهم أعلى وكان نفوذهم أوسعَ وكان استيلاؤهم على الرئاسة أهون وتغلّبهم على خصومهم أيسرَ . والاصل في العصبية القَرابة من النسب ولكن النسبَ لا قيمةَ له في العصبية إلاّ اذا رَفَدَهُ رابطٌ من المصلحة أو الجِوار .

والعصبية عادةً تنقسم عصائبَ صغيرةً ، وتكون الرئاسة على أهل العصبية كلّهم لأقوى تلك العصائب . ولذلك يقع التنافس بين أهل تلك العصائب على الرئاسة . وقلّما انقادَتْ عصبيةٌ لعصبية أخرى بالقهر ، وإنّما تُقَدِّمُ القبيلة للرئاسة شخصاً من أفرادها ترتضيه . ثمّ تُطيعه من تلقاء نفسها . على أن البدوَ يُذْعنون للدعوة الدينية طَوْعاً لأن الدعوة الدينية تُغْرِقُ في نفسها جميعَ العصائب فلا يقعُ فيها التنافس الذي يقع بين العصائب .

ومعَ أن البدو لا ينقاد بعضهم لبعض فانّهم يخضعون لأهل الأمصار، لأن أهلَ الأمصار أقدرُ على أساليب السيطرة والادارة والسياسة ، ولأن



البدو محتاجون الى أهل الأمصار في البيع والشراء للحصول على ما يحتاجون اليه مما ليس في البادية ( كالسلاح والمصنوعات المعدنية والفخّارية وما شابهها).

وبقاء العصبية يقتضي المحافظةَ على الانساب ، فان الشعور بوَحْدة النسب يزيد في تماسك أفراد القبيلة . وهذا أمر نافع جداً في الحرب لأن الجماعة المتماسكة تكون أقدرَ في الدفاع عن نفسها وفي قتال عَدوِّها .

ويتبع العصبيةَ الولاءُ والحلف والجوار والرقّ . ونحسن أن تؤجّل هذه الأحوال الى الكلام على طبقات الناس في فصل « حضارة الجاهليين » .

د — الظُلم والبِرّ :

الظُلم هو العُدوان : ان تَبْدَأَ خصمَكَ بالهجوم عليه قبل أن يتمكّن هو من الهجوم عليك أو استلاب شيء مما تَمْلِكُ . قال زُهيرٌ في معلّقته :

ومنْ لا يَذُدْ عن حوضه بسلاحهِ    يُهَدَّمْ ؛ ومن لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَمِ

وأما البرّ فهو طاعةُ القَبيلِ : أن يطيع الفَرْدُ الجماعةَ التي ينتسب اليها ولو أضَرّ ذلك بمصلحته هو . كان طَرَفَةُ بن العَبْدِ يشكو ظلمَ أهلهِ له : منعوه حقّه في إرثه من أبيه وأساءوا اليه والى أمّه فلم يَزِدْ على أن قال في معلّقته :

فلو كان مولايَ امرَأً هو غَيْرُهُ    لَفَرَّجَ كربي أو لأنْظرني غَدي ؛
ولكنّ مـولايَ امْرُؤٌ هو خانقي    على الشكر والتَسآل أو أنا مُفتدي .
وظُلمُ ذَوي القُربى أشدّ مَضاضةً    على النفسِ من وَقْعِ الحُسامِ المُهَنّدِ!

وأحياناً يَضرّ البر بمصلحة الجماعة نفسها ، ولكنّ ضررَ الجماعة في موقف واحد (في معركة واحدة مثلاً) أفضلُ من تَفَسّخها وتشتّت أمرها بعِصيان أفرادها لها . كان دُريدُ بن الصِمّة بطلاً شجاعاً مُجرّباً في الحروب . فلمّا طعَنَ في السِن وعَجَزَ عن القتال كان قومه يحملونه

معهم للانتفاع برأيه. انتصر قوم دريد في إحدى معاركهم فأرادوا أن ينزلوا في مكان خصيب على مقرُبة من مكان المَعْرَكةِ ليستريحوا. فنصح لهم دريدٌ بألاّ يفعلوا ذلك خوفاً من أن يَكُرَّ عليهم خصومهم وهم غارّون (غافلون وغير مُتَهَيّئينَ لقتال) فلم يقبلوا منه. وحدث ما توقعه دريد؛ وكر أعداؤهم عليهم فانهزموا، وقُتِلَ في تلك المعركة عبدُ الله أخو دريدٍ، فقال دريد:

نصَحْتُ لعارضٍ وأصحاب عارض — ورهط بني السوداء، والقوم شُهّدي.
فلما عصَوْني كنتُ فيهم، وقد أرى — غَوايتهم وأنني غيرُ مُهتد.
أمرتهُمُ أمري بِمُنْعَرَجِ اللِوى — فلم يَستبينوا النُصْحَ الا ضُحى الغد.
وهل أنا إلاّ من غَزِيّةَ إن غوَتْ — غوَيْتُ، وانترْشُدْ غزيةُ أرشُدِ!

فاذا تناست القبيلة البرَّ استحالت جماعاتٍ مُتعاديةً، كما حدث في شأن بني وائل: بكرٍ وتَغلِبَ، فقد وقع بينهم من العداوة والقتال ما لا يقع مثله بين المتباعدين في النسب والحضارة حتى قال عمرو بن كلثوم سيدُ تَغْلِبَ وشاعرهم:

نجُذّ رؤوسهم من غير بِرٍّ — فما يَدْرون ماذا يتّقونا....
إليكمْ، يا بني بكرٍ، إليكم! — ألمّا تعلموا منّا اليقينا:
ألما تعلموا منّا ومنكم — كتائبَ يَطّعِنَّ ويرتَمينا!

وبلغ البرُ في الجاهلية إلى أن أصبح عُرْفاً يقوم مقامَ الدين والرابطة الاجتماعية والأخلاق الشخصية، يدلنا على ذلك قول النابغة الذبياني في حديث الرجل والحيّة:

فلما وقاها اللهُ ضرْبةَ فأسه، — وللبر عينٌ لا تغمّض ناظرهْ..

ومن فضائل البدويّ الوفاء، ومنها الكرم والضيافة.



ه ــ الحياة الفِطرية:

ان البدوي أقربُ بطبيعته الى الخير، ذلك لأن البشر لا يُشارّ أحدُهما الآخرَ إلاّ اذا كان بينهما مُنافسة. والمنافسة تنشأ من الحاجة الى أشياءَ يَقِلّ وجودها ويكثُرُ طالبوها. فكلما كانت حاجاتُ الناس أقلَّ خَفّتِ المنافسة بينهم وخف من أجل ذلك عُنْصر الشر فيهم فغلب عليهم الخير. وبما أن الحياة البدوية تقوم على الضروري من أسباب الحياة، فان البدوي اذا حصلت له أسبابُ الحياة الضرورية لم يَبْقَ له مطمعٌ كبير في ما وراءها.

على أن تنافس البدو على أسباب الحياة الاولى (على الماء والكلأ والماشية) شديد جداً يقود الى الغزو والقتال أحياناً. من أجل ذلك فرضت البداوة على أهلها محامدَ تقاوم الشرّ الناتج من تلك المنافسة: فرضت عليهم الشهامة والنجدة والكرم وحُبّ الضيافة والعفو عند المقدرة والوفاء بالعهد والامانة والحِفاظ على العِرض والمحاماة عن الجار واللاجىء والمُستغيث والدفاعَ عن الضعيف. فانحصرت المنافسة بعد ذلك بين قبيلين: قبيلٍ يملِكُ أسبابَ الحياة فيَضِنّ بها على الذين لا يملكون ما يحتاجون اليه منها، وقبيل لا يملك من تلك الأسباب شيئاً فيريد انتزاع ما يقدر عليه منها من الأغنياء. فعلى الغني في البادية أن يكون كريماً يُنْفق من ماله طوْعاً على المحتاجين وإلا كان عِرْضة للمذَمّة والشتم، كما قال زُهير في معلقته:

ومن يكُ ذا فضل فيبخلْ بفضله — على قومه يُستَغْنَ عنه ويُذْمَمِ!

والبدو بعيدون عن سياسة الملك وعن المداراة والمُصانعة لأن هذه بعيدة عن الفِطرة قريبة من ضرورة الرياء في المدن. ثم ان البدو لا قُدرةَ لهم على الصِناعات ولا حاجةَ بهم الى التأنق فيها. وكما أن البدوي يرى أن الضيافة حقّ على صاحب البيت فانه يرى أيضاً أن على الزائر قَبولَها، ولو كان الزائر أغنى من المَزورِ. قال طَرَفَةُ:

متى تأتني أصَبحْك كأساً رَوِيّةً؛ — وان كنتَ عنها ذا غنىً فاغْنَ وازْدَدِ!

و — تطوّر الحضارة :

البداوة طَوْرٌ طبيعي في الحضارة . ان كل حضارة بدأت بدويةً ثم تطورت بتوسع الناس في المطاعم والمساكن والحكم والسلوك والعلم حتى أصبحت حضارة مَدَنيةً كالتي نشهدها اليوم .

على أن نشوء الحضارة المدنية لا يقضي على الحضارة البدوية (أو العُمران البدوي ، كما يقول ابن خلدون ) ، بل تظل الحضارتان (أو يظلّ العُمرانان ) جنباً الى جنب .

والبداوة ضروريةٌ للحضر : ان أهل المدن قد جاءوا كلهم من البادية التي ضاقت بسكانها أو جاءوا من البادية الى المدن لمّا زادت ثَرَواتهم وأحبوا التمتع بأسباب الترف ؛ وأسباب الترف لا تكون في البادية أبداً بل في المدن . وكذلك الذين يَقْوَوْنَ في البادية وتَقْوَى عصبياتهم يَنْتَقِلون الى الحضر لينشئوا الدول ، فإنّ الدولَ القائمة على المُلْك (على قهر الرعيةِ ، على الطاعة ) لا تكون إلاّ في الحضر . أما في البدو فان الحكم يكون رئاسة بالعصبية (بتراضي الناسِ على تقديم واحد منهم ليحكم بينهم ) .

وأهلُ الحضر يعتمدون على البادية في استيراد المواد الاولية للطعام والصناعة ، كما تعتمد البادية على الحضر في بيع منتوجاتها وشراء المصنوعات من المدن .

وليس بالبدو حاجة الى العلم الكثير ، فان العلم في الاصل ، والتبحّر فيه خاصة ، من توابع الحضارة .

وكان البدو بطبيعة الحال أميين (لا يخطّون ولا يقرأون الخط ) . على أن نفراً من أهل المدن ، وفي البوادي أيضاً ، لم يكونوا أميين . غير أن القراءة والكتابة كانتا في الجاهلية (في البادية وفي المدن معاً ) معروفتين ، ولكن لم تكونا ثقافة عامة في الجاهليين .



# ٱلِاسْتِعْمارُ ٱلْقَدِيمُ
## فِي بِلادِ ٱلْعَرَبِ

إنّ الاحوال الطبيعية في شبه جزيرة العرب قامت حائلاً دون تخطّي جيوش الفاتحين لحدودها ، فلا فتوحُ الاسكندر المقدوني (٣٣٣ — ٣٢٣ ق . م . ) ولا حملات الرومان على بلاد شرق البحر الابيض المتوسّط (٥٠ — ٢٠ ق . م . ) وجدت منفذاً الى بلاد العرب في شبه جزيرتهم . وكذلك لم يستطع الفرس الساسانيّون ان يحكموا شيئاً من بلاد العرب في في شبه الجزيرة حكماً مباشراً ، برُغم ان النفوذ الفارسي كان كبيراً فيها وبرغم أن عدداً كبيراً من القبائل كانوا يحتكمون في خلافاتهم الداخلية الى الاكاسرة ملوك فارس الساسانيّين ، وخصوصاً في القرنين اللذين سبقا ظهور الاسلام .

### النفوذ الاجنبي

**على أن الدول الكبرى في ذلك الحين** (الفرس والروم والحبشة ) قد قنعت بالنفوذ السياسي والاقتصادي في أنحاء شبه الجزيرة . ومن المؤسف حقاً في تاريخنا القديم أن ما عجزت عنه الدول المستعمرة بجيوشها قد استطاعت الوصول اليه باستخدام عدد من القبائل العربية (أو الاسر العربية على الاصحّ ) .

ولم ينفع العرب بعد ذلك أن طبيعة بلادهم كانت تحول دون اختراق الجيوش لتخومها الصحراوية المترامية .

**المناذرة والغساسنة**

المناذرة والغساسنة أقوامٌ يُقال فيهم إنهم من تَنوخَ من عرب الجنوب هاجروا من اليمن الى العراق والشام في مطلع القرن الثالث للميلاد . ويحسُنُ بنا أن ننظرَ إلى المناذرة والغساسنة ، مهما قيل في أصلهم وموطنهم وزمن هجرتهم ، على أنهم أُسرتان حكمتا في العراق والشام تحت سُلطان الفرس والروم ، ولم يكن بين هاتين الاسرتين وبين الشعبين اللذين عاشا في حكمهما صِلةٌ ظاهرة من نَسَبٍ ولا صلة من مودة .

أما الدور الذي قام به المناذرة والغساسنة في الحكم في العراق والشام فكان دوراً قاصراً على أمرين :

—كان المناذرة يجمعون الضرائب من القبائل العربية القريبة منهم ويقدمونها للفرس ، كما كان الغساسنة يجمعون مثل هذه الضرائب للروم .

—كان المناذرة يحمون تخوم الامبرطورية الساسانية من غَزَوات البدوِ الآتية من نجدٍ وبادية الشام ، كما كانوا حاميات وطلائعَ في وجه الجيوش الرومية . ومثلَ ذلك كان شأن الغساسنة بالاضافة الى الروم .

وكان بين المناذرة والغساسنة ، بطبيعة الحال ، عداوةٌ انتقلت إليهم من العداوة التي كانت بين الفرس والروم .

**الغساسنة في الشام**

يبدو أن الغساسنة في الشام أحدث عهداً من المناذرة في الحيرة ، وقد ملّكهم الرومُ على الشام [1] . وقيل ان أول ملوكهم جَفْنة بن عمرو بن عامر ،

(١) مروج الذهب ٢ : ١٠٧ .



ويُعْرف بمُزَيْقِياء [1] . وكانت دولة الغساسنة ، في أول أمرها ، بَدْوية موغلة في البداوة فكان مُقامها في خِيام ينتقل بها أصحابها من مكان الى آخر : نزلوا أولاً في جابية الجَوْلان ، ثم انتقلوا الى جِلِّقَ التي في حوران ثم الى بُصْرى الحرير [2] .

وتاريخ الغساسنة غامض جداً . أما أقدم ملوكهم المذكورين فكان جَبَلة ابن أبي شَمِرٍ في أواخر القرن الخامس للميلاد . وبعد جبلة جاء ابنه الحارث الثاني ( ٥٢٩ — ٥٦٩ م ) ، ويعرف ايضاً باسم الحارث بن أبي شَمِر ويلقب الحارث الأعرج ؛ وقد كان معاصراً للمنذر الثالث بن ماء السماء ملك الحيرة ( ت ٥٤٤ م ) . ورَضيَ الرومُ عن الحارث الاعرج بن جبلة فسمّاه الامبرطور يوستنيانوس « فولارخوش » ( رئيس عشيرة ) وعيّنه بِطريقاً [3] ، في عام ٥٣١ م .

ويبدو أن الغساسنة لمّا اعتنقوا النصرانية إرضاء للروم اتّخذوا المذهب اليعقوبي السائد في الشام والقائل بأن في المسيح طبيعةً واحدة [4] ، إرضاء لمن حولهم من النصارى . على أن الغساسنة كانوا ككلّ البدو قليلي الاحتفال بالدين وقليلي التفريق بين نصرانيّتهم الجديدة ووثنيّتهم القديمة ، اذ كانت قصورهم المتأخّرة مملوءة بالأصنام . وليس يبدّل شيئاً من حكمنا قولُ القائلين بأن الغساسنة غَنِموا هذه الاصنام من أعدائهم ثم أقاموها في قصورهم

١) مزيقياء لقب عمرو بن عامر ملك اليمن كان يلبس في كل يوم حلتين ثم يمزقهما بالعشي لأنه كان يكره أن يعود الى لبسها مرة ثانية ( قا ٣ : ٢٨٣ ) .

(٢) تقع هذه المدن جنوب دمشق .

(٣) البطريق : القائد من قواد الروم تحت يده عشرة آلا ف رجل ( قا ٣ : ٢١٤ ) ؛ راجع الروم وصلاتهم بالعرب ١ : ٢٠٢ .

(٤) كان نسطور ( ت ٤٤٠ م ) أسقف القسطنطينية يرى أن في المسيح طبيعتين : طبيعة الهية ( لأنه بزعمه ابن الله ) وطبيعة بشرية لأنه ابن مريم . أما يعقوب البردعي ( ت ٥٧٨ م ) فكان يقول إن للمسيح طبيعة واحدة لأن الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية اتحدتا فيه .

شاهداً على انتصاراتهم [1] .

### سقوط مكانة الغساسنة عند الروم

في خريف عام ٥٧٨ م توفّي امبرطور الروم يوستينوس وخلَفه طيباريوس. وكان طيباريوس حريصاً على أن يُوَحّد آراء القائلين بالطبيعة الواحدة ثم يجمع هؤلاء كلّهم مع القائلين بالطبيعتين ، ففي مطلع عام ٥٨٠ م أرسل طيباريوس يدعو المنذر الثالث الى زيارة القسطنطينية . ولمّا وصل المنذر الى القسطنطينية في شباط ( فبراير ) من عام ٥٨٠ أكرمه طيباريوس وسمّاه ملك الشرقيين ثم عهد اليه بأمر التوحيد بين القائلين بالطبيعة الواحدة ثم بين هؤلاء وبين خصومهم القائلين بالطبيعتين [2] لأن جميع هؤلاء كانوا ممن يسكنون الشام والعراق . وكانت هذه المهمّة بطبيعة الحال أصعبَ مما يَقْدِرُ عليه المنذر ، ثم لم يُوَفّقِ الروم في حرب الفرس فاتّهموا المنذر الغسّاني بأنه لا يسهر على ما يريدونه منه سهراً صحيحاً ، فاستدعاه طيباريوس الى القسطنطينية مرة ثانية ( في ربيع عام ٥٨١ م ) . فلما وصل المنذر الغساني الى حوّارين ( بين تدمر وحمص ) قبض رجال الروم عليه وأرسلوه الى القسطنطينية ، ثم قُطعت الاعانة السنوية التي كان الروم يدفعونها للغساسنة . فثار أبناء المنذر الأربعة من أجل ذلك على الروم وأغاروا على بُصرى وسواها من المدن . غير أن الروم أخمدوا هذه الثورة وقبضوا على النعمان أكبر أبناء المنذر . ثم لم يأبه الروم للغساسنة بعد ذلك . غير أنه بقي للغساسنة ظلّ من السيطرة المحلّية المحدودة الى أن غزا الفرسُ الشام فقَضَوْا على تلك السيطرة . ولكن نفراً من الغساسنة ظلّوا يعيشون على مكانتهم بالأمس من غير أن يكونَ لهم من الأمر شيء .

---

(١) العرب في سوريا قبل الاسلام ٥١ .

(٢) العرب وصلاتهم بالروم ١ : ٢٠٢ — ٢٠٦ .



### الحبشة

حبَش وحبّش : جمع ؛ والحُباشة والأحبوشة الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة ( قا ٢ : ٢٦٦ ) واحدة .

أهل الحبشة قوم من الحاميّين أو الكوشيين ومن الساميين هاجروا الى شرقي إفريقية ثمّ اختلطوا بجماعات من الزنوج . وقد ظلّت لغة الحبشة ساميّة .

### النفوذ الحبشي في اليمن

كان الرومُ البيزنطيون والفرس الساسانيون يتنازعون السيادةَ على بلاد كثيرة في الشرق . ولم يستطعِ الروم أن يَغْزوا اليمنَ بأنفسهم غزواً مباشِراً فبثّوا في اليمن جماعات من المُبَشّرين أرسلوهم من الحَبَشَةِ ومن الشام والعراق ، فأخذت النصرانيةُ تنتشر في اليمن . وفي سنة ٣٤٠ م أوْعَزَ امبرطور الروم قسطنديوس الثاني بن قسطنطين الكبير الى النجاشي عَيْزانَ بأن يَغْزُوَ اليمن . ولم يكن ملوك الحبشة أنفسهم قد اعتنقوا النصرانية بعد ، ولكنّ الطمعَ بخيراتِ اليمن جمع بين الروم والحبشة .

### الحكم الفارسي في اليمن

لم يكن بإمكان اليمنيين في هذه المرة أن يُخرجوا الاحباشَ من اليمن بأنفسهم فقام رجلٌ منهم شريفُ النسب يُدعى سيفَ بن ذي يَزَنَ ورأى من الحكمة أن يستنجد بالفرس الساسانيين أعداء الحبشة والروم . أصغى كسرى أنوشروان لسيف بن ذي يزن وأمده ، في عام ٥٧٥ م ، بجيش ساعد اليمنيين على إخراج الاحباش من اليمن . ولكن ذلك لم ينفعِ اليمنَ نفسها كثيراً ، اذ تحولت مع الايام « مَرْزُبانةً » ( مقاطعة فارسية ) يحكمها « مَرْزُبانٌ » ( حاكم فارسي ) . وقد بَقِيَ الحكم الفارسي في اليمن الى أن جاء الاسلام .

### بنو كندة

بنو كِندةَ قبيلة يمنية كانت تسكن جبال اليمن الشرقية مما يلي حَضْرَمَوْتَ .

في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي غادرت جماعات من كندة بلادها واتجهت شمالاً حتى نزلت في مكان دُعِيَ فيما بعد غَمْر كندة أو غَمْر ذي كندة ، وهو ارض لبني جُنادة بن مَعَد في نجد على بعد يومين من مكة شرقاً . وكان ذلك نحو عام ٣٥٠ م . (٢٧٢ قبل الهجرة) .

وفي القرن التالي اختلط بنو كندة هؤلاء بعرب الشمال اختلاطاً أصبحوا به وكأنهم من عرب الشمال . في ذلك الحين تفاقم الشر ، فيما يبدو ، بين عرب الشمال انفسهم فسار جماعة منهم الى تُبّع بن كَرِب ملك اليمن وطلبوا منه ان يُوَلّيَ عليهم ملكاً ، فولّى عليهم حُجر بن عمرو (عمرو المشهور بآكل المرار) الكندي . وقد كانت تولية حجر بن عمرو موافقة للسياسة اليمنية : كانت عصبية حجر يمنية ، وكان هو من اسرة تولّت الملك في بلادها الاولى . ثم ان هذه الاسرة كانت قد استقرّت في الشمال قبل نحو قرن من الزمن وعرّفت اتجاه العصبيات وفهمت العقلية الشمالية .

## مُلك كندة في نجد

في أواخر القرن الخامس للميلاد اتّجه حُجر بن عمرو الى قلب نجد وانتزع جانباً من الأرض التي كانت تحت سيطرة المناذرة ثم نزل في مكان يدعى بَطْنَ عاقل (جنوب وادي الرُمّة على الطريق بين مكّة والبصرة) . وهكذا تسرّب النفوذ الاجنبي الى مكان جديد في جزيرة العرب : نفوذٌ روميّ مناهضٌ (معادٍ) لنفوذ الفرس في الحيرة ومغلّف بسياسة يمنية ظاهرة .

واتّبعت الأسَرُ الثلاثُ (كندة في نجد والمناذرة في العراق والغساسنة في الشام) في مبدأ الأمر ، سياسة ودية مرة وعدائية مرة : ان اليمن دفعت حُجراً الى التملّك في نجد والى مهاجمة الحيرة عاصمة المناذرة ، وكان ذلك كله في مصلحة الغساسنة ، او في مصلحة الروم من وراء الغساسنة .



## انقراض دويلة كندة

بعد أن رأى أمرُؤُ القيس بن حُجر خيبة أعمامه وإخوته في طلب ثأر أبيه أراد هو أن يحاول ذلك ، مع أنه كان أصغرَهم سِنّاً وأقلهم مالاً واهتماماً بطلب الملك .

وُلِدَ امرؤ القيس نحو سنة ١٢٢ ق. هـ . (عام ٥٠٠ م) ، في نحو السنة التي قَسَمَ فيها جَدّه الحارث بن عمرو ملكه بين أبنائه أو بعد ذلك بقليل . أما أمّه فهي فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير التغلَبية أختُ مُهَلْهِلٍ وكُلَيبِ وائلٍ في أصح الأقوال .

كان مولدُ امرِىء القيس ونشأته في ديار بني أسد من نجد . وكان يتنقّل ، على عادة الامراء والمُتْرَفين ، بين الأماكن المقصودة للهو في اليمامة والبحرين خاصة ؛ واليمامة والبحرين كانتا داخلتين في حكم أبيه . وليس في التاريخ الثابت ما يدلّ على أن أباه طرده من منزله ولا أنه كان يوم مقتل أبيه يشرب الخمر في دَمّون : لقد كان مَعَ اخوته وأعمامه في المعركة التي قُتل فيها ابوه ثم فرّ منها معهم . ولقد عَيّره بذلك شاعرُ بني أسد عَبِيد بن الابرص .

حاول امرؤ القيس أن يَطْلُبَ بثأر أبيه ، بعد أن خاب أعمامه واخوته في ذلك : طلب ثأر أبيه بجماعة من كِندة ثم بجماعة من غير كندة كانوا خاضعين لأبيه وإخوته أو كان له عليهم حقّ الجوار ، ثم بجماعة استأجرهم . ولم يُجْدِهِ ذلك كلّه نفعاً .

كان المفروضَ أن يستنجد امرؤ القيس بملوك اليمن من حِمْيَر . ولكنّنا نعلم أن مَلِكَ اليمن في ذلك الحين كان ذا جَدَن ، وأنه لم يكن لذي جدن في حكم اليمن شيء من الامر فان الأمر كلّه كان بيد الحبشة . ولم يكن للحبشة ، ولا للروم من وراء الحبشة ، مصلحة في مساعدة امرِىء القيس على الطلب بثأر أبيه لأن المستعمر لا يأبه لأهل خِدْمته إلاّ اذا كانوا أقوياء : انه يريدهم ليدافعوا عنه لا ليدافعَ هو عنهم !

وعزم امرؤ القيس على أن يذهب الى القسطنطينية يستنجد بملك الروم ، واعتذر لذلك بقوله :

ولو شاء كان الغَزْوُ من أرض حِمْيَرٍ ، ولكنّه عَمْداً الى الروم أنفرا !

كان امرؤ القيس محتاجاً في إتمام رحلة القسطنطينية الى مال فذهب الى تَيْماء ورهن سلاحه ودروعه عند مُرابٍ يهودي اسمه صموئيل ( السموأل ) . ولمّا وصل الى القسطنطينية استقبله الامبراطور يوسطنيانوس المشهور بالترحاب ، ولكن لم يُساعِدْهُ في شيء : كان للروم « عميل » في الشام ( البلاط الغسّاني ) مسؤول عن مشاكل المِنطقة ؛ وكانت النجدة التي طلبها امرؤ القيس كبيرةً جدّاً ، والجيش الرومي لم يكن معدّاً للحرب في الصحراء ؛ ثم ان الغاية التي جاء امرؤ القيس من أجلها : الأخذَ بثأر رجل واحد ، كانت بعيدة عن سياسة الروم وعن مألوفهم ؛ ثم ان الامبرطورية الرومية كانت مهدّدة بهجّمات البرابرة ، وكان يوسطنيانوس محتاجاً الى جنود للدفاع عن امبرطوريته وعاصمته [1] .

وتوفّي امرؤ القيس في أثناء رجوعه من « رحلة الاستنجاد بالمستعمرين الروم على قومه العرب » . ويمكن أن يكون قد مات بالجُدَري ، لمّا مرّ بأنقرة في زمن الشتاء القارس ، نحو ٨٢ ق . هـ . ( ٥٤٠ م ) .

**أيّام العرب : طبيعتها وأسبابها**

في هذا الزمن الذي كانت طبيعة بلاد العرب القاحلة في الاكثر تقف سدّاً منيعاً في وجه الجيوش الفاتحة ، كانت القبائل العربية نفسها تفتح بتناحرها وبقتال بعضها بعضاً جميع حدودها في وجه النفوذ الاجنبي الذي لم يكن إلاّ الاستعمار الاجنبي في شكل آخر .

(١) قال الدكتور أسد رستم ( الروم وصلاتهم بالعرب ١ : ١٩٣ ) عن جيش يوسطنيانوس : « وتضاءل جيشه فتناقص من ٦٥٠،٠٠٠ مقاتل الى ١٥٠،٠٠٠ وخلت حصونه من الرجال حتى قال أغاثيوس إنها أصبحت خالية خاوية لا يسمع فيها نباح كلب واحد » .



ايامُ العربِ هي المعارك التي وقعت بين القبائل العربية في الجاهلية . كانت هذه المعارك تَنشَبُ لأسباب تافهة جداً : وقعت حرب البسوس لأن كُلَيبَ وائلٍ قتل ناقةً كانت ترعى مع ابله . وكانت تلك الناقة لأمرأة كانت ضيفة عند جسّاس ابن مُرّة . فعد جساسٌ فعل كليب إهانة له فقتل كليباً . فَنَشِبَتْ المعارك بين بكرٍ وتَغْلِبَ ودامت نحو اربعين عاماً من العداوة المتصلة والقتال المتقطّع . واختلف نفر من بني عَبْسٍ وبني ذُبيانَ على سباق خيل فنشبت حرب داحسٍ والغبراء ودامت ايضاً اربعين عاماً .

هذه الحروب والمعارك كانت تقع عادة بين قبائل البادية ، وكانت تقع ايضاً بين اهل القرى ( المدن ) ، كما اتفق في ايام الأوْسِ والخزرج سكان يثرب . وربما وقعت بين عرب الشمال وبين عرب الجنوب كما اتفق في يوم خزازى ؛ اذ كانت الحرب بين ربيعة ومَذْحِج . وقد تنشب المعارك بين عرب الشمال انفسهم كما كانت الحال في حرب البسوس بين بكرٍ وتَغْلِبَ ثم في حرب داحسٍ والغبراء بين عبسٍ وذُبيان . وربما كانت بين عرب الجنوب انفسهم كأيام الأوس والخزرج . وربما اجتمعت قبائل من عرب الشمال وعرب الجنوب معاً فحاربت قبائل من عرب الشمال وعرب الجنوب معاً ، كما اتفق في يوم حليمة اذ سار المنذر الاسود بن المنذر بن ماء السماء بعرب العراق اجمع وقاتل الحارث الاعرج بن أبي شَمِرٍ الغساني الذي سار الى المعركة بعرب الشام اجمع . وهنالك ايضاً يوم ذي قار الذي نشب بين العرب والفرس .

على ان الاسباب التي كانت باعثة على نشوب ايام العرب لم تكن دائماً تافهة ، بل كانت في مُعْظَمِ الاحيان تَرْجِعُ الى بواعثَ اقتصاديةٍ كحرب البسوس فان باعثها الصحيح ان كليبَ وائل قد حمى أراضيَ واسعةً واستبد بمراعيها ومائها ومنع عدداً من القبائل من ان تَسْتَقيَ منها وترعى فيها . وقد تكون تلك البواعث سياسية كما كانت الحال في يثرب بين الأوس والخزرج ، فقد كان كل فريق منهم يرى ان يستأثر بحكم

البلد . وربما كانت البواعث اجنبية كما اتفق في يوم أباغ ويوم حليمةَ اذ كان النفوذ الفارسي وراء المناذرة وكان النفوذ الرومي وراء الغساسنة .

## العصبية القبلية والشعور الجامع

ان ايام العرب تدلنا على ان العرب لم يكونوا يشعرون في تاريخهم الجاهلي الطويل أنهم أمةٌ واحدة ، بل كانوا يشعرون انهم عصبيّاتٌ : ان المَدْرَكَ الجاهلي للحياة الاجتماعية كان ان كل قبيلة كانت وَحْدَةً قائمة بنفسها في النطاق الاجتماعي : في السياسة والاقتصاد ، لأن القبيلة كانت تعدّ نفسها وَحْدَةً مستقلة في النسب . ولم يكن الجاهلي يَقْدُرُ الشعورَ الجامع للأمة ولا للعشيرة ، فكانت القبيلة ( او العشيرة ) اذا كَثُرَ عدد أفرادها انقسمت فأصبحت أقساماً يجمعها النسب احياناً كثيرة وتفرق بينها المصالح الاقتصادية والاهواء النفسانية فيأخذ كل قسم من القبيلة الواحدة يقاتل القسم الآخر منها كما لو كان يقاتل قبيلة اخرى او جماعة أجنبية . لما عظُمت قبيلة ( أو عشيرة ) غَطَفانَ وتفرّعت عَبْساً وذُبيان ومُزينه ومُرّة وَفزارة وكثر بينها القتال ، وخصوصاً في حرب داحس والغبراء ، تألم زهير بن ابي سُلمى المُزَني لِما وقع من القتال الطويل العنيف الذي لا رحمة فيه بين عبس وذبيان . ثم لما تقدم الحارث بن عوف وهَرِمُ بن سِنان المُرِّيان لحسم الخلاف ودفعا بقايا الدِيات من اموالهما مدحهما زهير في معلّقته وأشار الى حال القتال فقال :

سعى ساعيا غَيْظِ بن مُرّةَ بعد ما ... تبزّل ما بين العشيرة بالدم؛
تداركتما عبساً وذُبيانَ بعد ما ... تفانَوْا ودقّوا بينهم عِطر مَنْشِمِ .

ان معلّقة زهير مهمة جداً في تاريخ العرب : هي حَلْقة بين الشعور الفردي الضيق وبين الشعور القومي الجامع ؛ ثم هي المَعْلَمُ الأول في تاريخ العرب ، بل في تاريخ العالم ، للّجوء في حَل المنازعات الى الطرق السلمية في زمن كانت الحربِ هي الوسيلةَ الوحيدةَ للفصل في النزاع .



والذي يبدو ان حب السلم والشعور الجامع بين العرب كانا قد بدأا بالبروز في اواخر العصر الجاهلي .

## عدد أيام العرب وترتيبها

وفي تاريخ ايام العرب امور تجب مراعاتُها :

- عددُ ايام العرب ( مع تمييز الحروب المتصلة منها من المعارك المنفردة الداخلة في الحرب ) ،
- ترتيبُ ايام العرب تاريخياً ،
- تقديم بعض ايام العرب على بعضٍ من حيثُ الأهميّة ،
- نطاق ايام العرب ، والقبائل التي اشتركت فيها ،
- تحقيقُ أحداثِ ايامِ العرب وسردُها سرداً متعانقاً .
- اثر ايام العرب في الحياة العربية العصبية وفي صِلات العرب بغيرهم من الأمم ( كالفرس والروم ) .

اما عدد ايام العرب فعظيم جداً لا يمكن ان يدخل تحت الحصر ، ذلك لأن حياة العرب الاقتصادية كانت قائمة في الحقيقة على الغزو ، وكان هذا الغزوُ متصلاً . على ان الرُواةَ والإخباريين نقلوا الينا عدداً من ايام العرب إما لأنها دامت مدة طويلة كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء ، واما لانها كانت ذاتَ اهمية خاصة في تاريخ العرب كيوم ذي قار .

ونحن اذا قلنا ايام العرب ، فإنما نعني شيئين أحدُهما تابع للآخر . «أما الشيء الأول فهو الايامُ التي استمرت مدة طويلة والتي يجمعها عادة اسم حرب» كقولنا «حرب داحس والغبراء» او «حرب البسوس» اللتين دامت كل واحدة منهما اربعين سنة . ثم هنالك الايام المفردة في اثناء الحرب الواحدة والتي يَحْسُنُ ان نُسَمّيَها معارِكَ . ان يوم تَحلاق اللِمّمِ مثلاً هو معركة داخلة في حرب البَسوس وليس يوماً

مستقلاً قائماً بنفسه . ومع ان الإخباريين قد سَمَّوْا جميع حروب العرب ومعاركهم أياماً ، من غير تمييز بينها ، فمن الاصوب ان نتّبع نحن إحدى تَسْمِيَتَيْنِ :

التسمية الاولى : نُسمّي الايامَ المتصلة والمتعلقة بسبب لها واحد « اياماً » بالجمع ، ثم نسمي كل صِدام مُفْرَدٍ في اثناء تلك الايام يوماً ، فنقول مثلاً : ان يوم تَحلاق اللِمَم يوم من ايام البسوس .

التسمية الثانية : نسمي الايام المتصلة حرباً ، كما كان الرواة ايضاً يَدْعُونها أحياناً ، ثم نسمّي كل صِدام مفرد أو معركة في تلك الحرب يوماً .

اما ترتيب تلك الايام ترتيباً تاريخياً فأمر صَعْبٌ جداً ، لأن تلك الايام اتّصفت من الناحية التاريخية بصفتين :

● انها كانت تَنْشَبُ في القبائل المختلفة في اوقات متقاربة . ثم ان اكثرها كان متداخلاً : تبدأ الحرب ثم يبتدىء غيرها قبل ان تنتهي الأولى . وربما بدأت حرب ثم بدأ عدد آخر من الحروب وانتهى قبل ان تَنْتَهيَ الحرب الأولى ايضاً . أضف الى ذلك كله ان جميع هذه الايام التي وصلت الينا اخبارها قد نَشِبَتْ في مدّى قصير من الزمن ؛ في نحو مائة وخمسين عاماً ، وكانت حروباً مستقلة ولكن تَنْشَبُ لأسباب متشعّبة ، فلم يكن في اسبابها ما يساعدنا على الربط بينها . ثم ان الاخباريين قد اهتموا بقصة تلك الايام اكثر مما اهتموا بتخريج اسبابها وضبط زمنها .

● وهنالك أمرٌ مهمّ جداً هو أنّ الحروب في جاهليات الأمم من حَيِّز الفخر اكثرَ منها من حيّز التاريخ . ولا ريب في أن كثيراً منها قد دخله مبالغاتٌ كثيرة فيما بعد ، كما انه لا شك ايضاً في ان بعضها من صنع الاجيال التالية . ومما يجعل هذا الرأي قوياً عندنا هو ان الطبريَّ مثلاً ، وهو شيخ المؤرخين المسلمين ، لم يذكر سوى يوم ذي قار ، إما لأنّ الأيام الباقية لم تثبتْ في رأيه ، وإما لأنه لم يرَ لها الأهميةَ الكافية لإثباتها في كتابه .



على ان ابن الاثير اثبت أياماً كثيرة ثم حاول ، فيما يبدو ، ان يسردَها سرداً فيه محاولة لترتيب تاريخي .

## عظام ايام العرب

اذا نحن قَبِلْنا صحّةَ جميع ايام العرب التي وصلت الينا أخبارُها فلا مندوحة لنا عن ان نُقَدّمَ بعضَها على بعض من حيثُ الأهميةُ والأثرُ . جاء في الاغاني ( ١١ : ١٣١ ) أن عِظامَ ايام العربِ ثلاثةٌ : يومُ الكُلاب ، وهو يوم انتصر فيه عرب الشمال على عرب الجنوب بعد عهد من الانتصارات المُتوالية لعرب الجنوب على عرب الشمال ؛ ثم يوم شِعْب جَبَلَةَ وهو يوم بدأ بين عبس وذبيان ثم انضم الى كل قبيلة أحلافٌ لها من عرب الشمال ؛ ثم يوم ذي قار ، وهو يوم كان بين العرب وبين الفرس انتصر فيه العرب على الفرس لأول مرة في تاريخهم .

قال ابن الاثير [1] : إنّ الطبريّ لم يَذْكُرْ من أيام العرب إلاّ أيامَ جَذِيمة والزبّاء وطَسْمٍ وجَديسَ ( لأنها أيام بين ملوك ) وإلاّ يومَ ذي قارٍ [2] . أما أنا فانّني أذكرُ « الأيّامَ المشهورةَ والوقائع المذكورة التي اشتملت على نفرٍ كثيرين وقتال شديد ؛ ولم أعرّجْ على ذكر غاراتٍ تشتمل على النفر اليسير لأنها كثيرة تخرج عن الحصر » .

## أقدم أيام العرب

ذكر جرجي زَيْدان [3] أنّ أقدم ما حَفِظَه التاريخُ من أيام العرب يوم البيضاء بين عَدْنانَ واليمن في أوسط القرن الرابع للميلاد . وقد انتصر

(١) ابن الاثير ١ : ٢٠٥ .

(٢) الطبري ( دار المعارف ) ٢ : ١٩٣ — ٢١٢ .

(٣) العرب قبل الاسلام ، تأليف جرجي زيدان ( طبعة جديدة راجعها وعلق عليها الدكتور حسين مؤنس ) ، القاهرة ( بلا تاريخ ) . ص ٢٥٤ .

بنو عَدْوانَ العدنانيون يومذاك بقيادة سيّدهم عامر بن الظَرِب على مَذْحِج

لم يُعَلِّقِ الدكتور حسين مؤنس على هذا اليوم بما يجلو شيئاً من غموضه .. ثم ان الدكتور جواد علي نقل ذلك في كتابه ( ٤ : ٣٤٨ ) . أما أنا فلم أجد في المصادر التي بين يَدَيَّ ذكراً لهذا اليوم .

ويبدو أن بني بغيض بن رَيْث بن غَطَفان كانت منازلُهم في تِهامة ثم اضْطُرّوا الى أن يهاجروا منها الى نجد لما أزعجتهم منها قبائلُ طارئةٌ من الجنوب . في أثناء هذه الهِجرة تعرّضت لهم صَدّاء ، وهي قبيلة من مَذْحِج كانت فيما يبدو تبحث عن أرض تنزل فيها .

وانتصر بنو بغيض في القتال ثم استقرّوا حيث شاءوا وكَثُرَتْ أنعامهم وزاد عددهم وقويت عصبيتهم . وخطر لبني بغيض أن يتّخذوا حيث نزلوا « حَرَماً » مثل حرم مكة وأن يكون لهم كَعْبَةٌ ؛ ولقد كانوا بالأمس ، قبل أن يغادروا منازلهم في تِهامة ، شُرَكاءَ في حرم مكة وكعبتها .

وكان في بني كِنانة بن بكر من قُضاعة [1] سيّدٌ هو زُهير بن جَناب ابن هُبَل بن عبد الله بن كنانة بن بكر ، وقد اتّفقت قضاعه على تقديمه وترئيسه . وكان زهيرٌ معروفاً بصحّة الرأي وبالشجاعة والظفر في الحروب . عزّ على زهير أن يقومَ حَرَمٌ فيه كعبة غيرَ حرمِ مكّةَ فجمع جموعاً من قومه ثم أغار على غَطَفان وأكثر القتل فيهم . بعدئذ أخذ فارساً من فرسانهم وقتله في « الحرم » الذي كانوا قد اتّخذوه . فبطل ذلك المكان أن يكون حرماً .

### زهير بن جناب وأبرهة

استولى الحبشةُ على اليمن ، عام ٥٢٥ م ، بقيادة قائد اسمه أرياط .

---

(١) قيل في قضاعة إنها من عرب الشمال ، وقيل بل هي من عرب الجنوب ، وقيل انما هي جذم قائم بنفسه مستقل عن عرب الشمال وعرب الجنوب ( راجع جواد علي ٤ : ٢٣٨ – ٢٤١ ) .



ولكنّ أبرهةَ [2] الحِمْيَريَّ قتل أرياط واستبد بحكم اليمن مكانه من غير أن يستطيع التملّص من سيطرة الحبشة . أراد أبرهة – جرياً على عادة ملوك اليمن من قبلُ – أن يَبْسُطَ نفوذه على نجد ويَفْرُضَ على القبائل إتاوة يجمعها منهم في كلّ عام .

قال ابن الاثير ( ١ : ٢٠٥ – ٢٠٧ ) : « إن ابرهةَ حين طلع الى نجد أتاه زهير ( بن جناب ) ، فأكرمه ( أبرهة ) وفضّله على من أتاه من ( شيوخ ) العرب ، ثم أمّره على بني بكر وبني تَغْلِبَ » ليجمع منهم الإتاوة المفروضة . وأصابت بني بكر وبني تغلب سَنَةٌ فلم يَحُطّ عنهم زهيرٌ شيئاً من الاتاوة ، بل أصرّ على استيفائِها كاملةً ومنعهم النّجعة ( الانتقال بمواشيهم الى أرض فيها عشب ) حتى يؤدّوا ما عليهم . فكادت مواشيهم أن تَهْلِكَ .

وكان في بني تَيْمِ الله بن ثَعْلَبة رجلٌ فاتك اسمه ابن زيّابة ، فدفعه بنو بكر وبنو ثعلبة الى قتل زهير . انتهز ابن زيّابة غُرّة من زهير حتى وجده ذات مرّة نائماً فشكّه بالسيف في بطنه . ولكنّ السيف لم يُصِبْ منه مقتلاً . وتماوتَ زهير فظن ابن زيابة أن زهيراً قُتِل . ثم ان زهيراً جمع جموعاً من أهل اليمن وغزا بكراً وتغلب وقتل منهم جماعات كثيرة وأسر عدداً كبيراً منهم . وكان في من أُسِرَ في ذلك اليوم وائلٌ وعَديّ ابنا رَبيعة .

---

(٢) في أمر أبرهة هذا شيء من الغموض . يعرف أبرهة بلقب الاصحم ولقب الاشرم . أما « أبرهة » فهي الصيغة الحبشية لصيغة « ابراهيم » العربية . والأصحم من كانت فيه غبرة الى سواد ( قا ٤ : ١٣٨ ) . والاشرم المشروم الأنف ، ومنه قيل لأبرهة « الأشرم » ( قا ٤ : ١٣٦ ) . والذي يؤخذ من أقوال الرواة أن أبرهة هذا يجب أن يكون يمني المولد ولكن حبشي الاصل ، وأنه كان نصرانياً .

# حضارة الجاهليّين

الحضارة بمعناها العامّ الواسع هي العادة التي يسير عليها الناس في حياتهم العامة والخاصّة في قطر من الاقطار في زمن من الازمان . وتكون الحضارة أنواعاً وطبقات : هنالك حضارة بَدْوية وحضارة مَدَنية (كما أن هنالك حضارةً زراعيةً وحضارة صناعية وحضارة بحرية ساحلية وحضارة سهلية داخلية أو جبلية ) . ثم ان كلّ نوع من هذه الحضارات يمكن أن يكون طبقات بحسْب ما يكون عليه الناس من الرقي الحقيقي بالعلم والعُمران ومن الرقي الظاهر بتقليد الآخرين في وجوه الترف وفي العادات السهلة . ولقد كان لعرب الجاهلية حضارتُهم ، أو أنواعُ حضارتِهم وطبقاتُها بحسب مساكنهم من شبه الجزيرة وبحسب صِلاتهم بالعالم الذي كان يحيط بهم .

وأساس المجتمع الجاهلي في البوادي والقُرى **القبيلةُ** . والقبلية جماعة من الناس يُقال فيهم إنهم ينتمون الى أصل واحد وينحدرون من أبٍ واحد . والواقع أن الذي يجمع أفراد تلك الجماعة في ما يسمى القبيلة إنما هو **الشعور بذلك**[1] . ومع الإيقان بأن الشعوب القديمة قد عاشت في وَحَدات جنسية يجمع بين أفرادها النسبُ الواحد ، فان تلك الوَحَدات قد تخلخلت بعواملَ مختلفة :

(١) هذا الشعور يدعى العصبية (راجع ، فوق ، ص ٤٦ ) .



أ – بالزَواج : فقد يتزَوّج رجلٌ من قبيلة أمرأةً من قبيلةٍ أخرى . وقد يتزوج الرجل امرأة من شعب غير عربي ، فإن عمرَو بن شدّادٍ اتخذ جارية حبشية أو زَنْجية فوَلَدَتْ له عنترة . ومع أن عمراً لم يعترف بعنترةً من الناحية الحقوقية (الحق بالزواج من عربية والحق بنصيب من الغنائم ، الخ ) ، فإن عنترة كان عَبْسياً في النسب ، ذلك لأن المدرك الجاهلي للنسب إنما هو الأبُ وحدَه ؛ أما الأمّ فكانت عند الجاهليين وعاءً للولد لا أثرَ لها في جنسه . وعبد الله بن عبد المطلب كانت أمّه خزْرجية يمنية ، وظلّ هـو قُرَشياً في كلّ شيء . وفي « الاخبار الطوال » (ص ١٢٩ ) : « وأصاب المسلمون يوم جَلولاءَ غنيمةً لم يغنموا مثلَها قط ، وسَبَوْا سَبْياً كثيراً من بنات أحرار فارس ؛ فذكروا أن عمرَ بنَ الخطّاب رَضيَ الله عنه كان يقول : « اللّهم ، إنّي أعوذ بك من أولاد سبايا الجلوليات . فأدرك أبناؤهن قِتالَ صفّين » . ومع ذلك فان أبناء الأمهّات الفارسيات من الآباء العرب عرب .

ب – بالنُقْلة : قد ينقل رجلٌ نسبَه من قبيلة الى قبيلة ، فقد كان ذلك جائزاً ولم يكن نادراً .

جـ – بالاستلحاق : قد يكون لقبيلة عبدٌ من العرب أو من غير العرب فيزوّجوه امرأة من نسائهم فيصبح بعد مدّة معروفَ النسب فيهم . وقد يكون لرجل عربي جوارٍ غيرُ عربيات فيَلِدْنَ له ؛ فربما ألحق أولاد تلك الجواري بنسبه وربما لم يُلْحِقْهم . وقد يُلْحق أحدُهم بنسبه ولداً له من غير زَواج شرعي .

د – بالوَلاء : قد يحتاج رجل الى حماية فيلجأ الى قبيلة قوية فتحميه فيصبح مولىً لها . ثم يدخل نسبُه مع الايام في نسبها .

هـ – بالحِلْف : قد يتحالف فريقان من قبيلتين مختلفتين ويتعايشان ثم يصبحا مع الأيّام كأنهما من قبيلة واحدة ، ويدخل نسب الفريق الأضعف

في نسب الفريق الأقوى .

في « تاريخ العرب قبل الاسلام » لجواد علي ( ٨ : ١٩٦ ) :

« وقد أشارت كتب اللغة الى جماعة من الموالي والعبيد تعرّبت واستقرّت فصارت من العرب ، وكانت من الرقيق المشترى من الخارج . وقد ذكروا في جملة هؤلاء الصعافقة ، وقال علماء اللغة إنّ آباءهم كانوا عبيداً استعربوا أو انهم كانوا قوماً من بقايا الأمم الخالية ضلّت أنسابُهم . وقد ذكروا أن مساكنهم في اليمامة في موضع يقال له صعفوق أو بالحجاز ( تاج ٦ : ٤٠٧ ) . وقد ضاعت أنساب جماعات كثيرة غيرهم بامتزاجها بالعرب ودخولها فيهم **فصاروا في عداد العرب الصُرَحاء** ، وأوجدوا لهم نسباً هو نسب مَنِ اختلطوا بهم وانتسبوا اليهم بالولاء . وقد نُسِيَ ذلك الولاء بمرور الزمان وتقادم العهد فأصبح نسباً وأصلاً » .

من أجل ذلك كلّه يَحْسُنُ أن نعلم أن النسب في حقيقته أمر عُرفيّ أكثَرَ منه أمراً طبيعياً ، وأن الذي يجمع بعض أفراد القبيلة الى بعض إنما هو الشعور بالصلة وفائدةُ التعاون على تحصيل الرزق وردّ العدوّ ونيل الحكم حينما يكثر عدد القبيلة وتزداد قوتها . هذا الشعور في سبيل هذه الاهداف يسمّى العصبية [2] .

ويأتي على رأس القبيلة شيخُها . وشيخ القبيلة رئيس بالعصبية ، اي ان القبيلة هي التي تختار من افرادها رجلاً تقدّمه للرئاسة عليها ثم تطيعه بإرادتها وتطوّعاً منها . والمفروض ان يكون شيخ القبيلة ، كما تدل كلمة « شيخ » ، كبيراً في السن . فاذا كان صغير السن ثم اتفق انْ كانت لـه حكمةٌ وشجاعة وثروة مضافةٌ إلى شرفِ أصلٍ قدمته قبيلته للرئاسة . ومصداق

(١) في الاصل « وجدوا » .

(٢) راجع فوق ، ص ٤٦ ، ٦٦ : الشعور بالصلة بين افراد الجماعة الواحدة ؛ ثم مقدمة ابن خلدون ٢٢٥ وما بعدها .



ذلك قول الخنساء ترثي أخاها صخراً :

طويلُ النِجاد رفيع العِماد ساد عشيرتَه أمردا ؛
يُحمّله القومُ ما عالَهم ، وان كان أصغرهم مولدا !

والواقع ، كما يبدو من أبيات الخنساء ايضاً ، ان الرئيس بالعصبية ( شيخ القبيلة ) لم يكن يتناول من قبيلته مالاً ، بل كان هو يقوم عن المحتاجين بما كان المحتاجون يَعجِزون عن القيام به ، يُطْعِم الفقراء منهم ويدفع الديّاتِ عن الذين لا يَمْلِكون ما يدفعونه دِيَةً ، اذا وجبت عليهم دية .

أما الامتياز الذي كان شيخ القبيلة يتمتع به فهو انه كان حَكَماً في المنازعات ، وكان حكمه نافذاً على الجميع .

والمفروض ايضاً ان يكون شيخ القبيلة قائد القبيلة في الحرب ولسانها في السلم وشاعرها ، كعمرو بن كلثوم . ولكن قد يتفق أن يكون في القبيلة أبطال يأخذون في الحرب مكان شيخ القبيلة : ان عنترة لم يكن سيّد بني عبس ، ولكنه كان شاعرهم وفارسهم وبطلهم وقائدهم في الغزوات والمعارك . وكذلك يتفق ان يكون في القبيلة شعراءُ وخطباءُ يَحْملون عن شيخ القبيلة أعباء التغنّي بمحامدها والدفاع عنها والنطق بلسانها ، كالحارث ابن حلِزة . .

والرجال القادرون في القبيلة على الحرب هم عِماد القبيلة واليهم يَرْجِعُ الفضلُ في بقائها واحترام الآخرين لها وخوف اعدائها منها . من أجل ذلك كان الإرث في الجاهلية يُقْسَم بين الرجال القادرين على حمل السلاح والذهاب الى الحرب . والغنائم كانت تقسم بين الذين يذهبون الى القتال ثم يبقَوْن أحياءً بعد المعركة . وكان للفارس سهمان ( نصيبان ) من الغنائم : سهمٌ له وسهم لحصانه .

## طبقات المجتمع

يحسن هنا أن نرى كيف كان المجتمع البدوي يتقسّم طبقات بعضها فوق بعض. إنّ العرب كانوا ينقسمون بدواً وحضراً وكان البدو في الجاهلية أرفع درجة من الحضر: لا شكّ في أنهم كانوا أصفى أنساباً وأكثر شجاعة من الحضر كما كانوا أكثر أثراً في المجتمع (إذ كانوا أكثر عدداً وأقوى عصبية)، وكان البدو يرفعون أنفسهم فوق الحضر حتّى بلغ الأمر بالجاهليين الى أنهم لم يعترفوا بالتقدّم لشاعر إلاّ اذا كان بدويّاً.

ثم إنّ البدو كانوا يتفاضلون فيما بينهم، فقد كان بنو تميم مثلاً أشرف من باهلة (لأنّ بني تميم كانوا أكثر عدداً ومالاً وقوّة من بني باهلة) فكان يقال: بنو تميم أعلى شرفاً. ثم إنّ بني تميم أنفسهم كانوا يتفاضلون أيضاً (يفضُل بعضهم بعضاً) فبنو مجاشع (قوم الفرزدق) كانوا أشرف من بني يربوع (قوم جرير) لأنّ بني مجاشع كانوا بدورهم أكثر عدداً ومالاً وقوّة.

ولقد كان لهذا الشرف تأثير عملي في المجتمع: انّ القبائل القويّة كانت مثلاً ترد الماء أوّلاً، فاذا انتهت من أخذ حاجتها من ماء الشرب ومن سقي أنعامها رجعت هي عن الماء لترد القبائل بعدها على حسب شرفها (كثرة عددها ومقدار قوّتها). وهذا ظاهر في قول عمرو بن كلثوم في معلّقته:

ونشرب، إن وردنا، الماء صفواً؛ ويشرب غيرنا[1] كدراً وطيناً!

وكان الجاهليّون يرفعون بعضهم على بعض حتّى في القيام بمناسك الحجّ، وهي من أمور الدين: كان بنو قريش وبنو كِنانة يرون أنفسهم فوق غيرهم فكانوا لا يقفون بعرفة (على جبل عرفات) بل يقفون بالمزدلفة (بين عرفات ومِنى) ترفّعاً عن أن يقفوا في موقف واحد معَ سائر العرب.

(١) يشرب غيرنا بعدنا.



وكذلك كان الجاهليّون ينظرون الى أنفسهم على أنّهم صرحاء (ذوو نسب صريح صاف لم يختلطوا في الانساب مع غيرهم) وهِجان[1]. ولقد كان الهجان أيضاً طبقات: فقد يكون الهجين مولوداً من أبوين عربيّين ولكنّ أمّه تكون من قبيلة أضعفَ شأناً. من أجل ذلك يفتخر الفرزدق على جرير بقوله:

يا ابن المراغة، اين خالك؟ إنّني خالي حبيش ذو الفعّال الافضل!

ومع ذلك فان جريراً يجد مغمزاً في نسب الفرزدق من أمّه فيقول له متهكّماً:

وافخر بضبّةَ إنّ أمّك منهم؛ ليس ابن ضبّة بالمُعِمّ المخول.

وهنالك أيضاً الاحلاف وهم نوعان:

القبائل التي حالفت قبائل أقوى منها (القبائل التي رضيت القبائل القويّة أن تجعلها أحلافاً لها) ثمّ الافراد الذين يكونون قد دخلوا في حلف قبائل مختلفة لجأوا اليها ليَتَقَوَّوْا بها ثم قبلت القبيلة المعنيّة ذلك. والحليف لا يكون في الحقوق كالصريح، فانّ ديته مثلاً نصف دية الصريح.

وهنالك أيضاً الارقّاء (العبيد، المستعبدون). والمفروض أن يكون الرقيق غير عربي، ولكن قد يوسر عربي في الحرب ثم لا يستطيع افتداء نفسه بمال، أو قد يستدين مالاً ثمّ لا يستطيع وفاء دينه فيُسْتَرَقّ. وجميع الارقّاء اذا أُعتقوا كرماً دخلوا في حلف الذين أعتقوهم.

ويدخل في الرقيق من كانت أمّه أمةً (جارية مُستَرَقّة) مثل عنترة بن شدّاد مثلاً. غير أن الاب اذا أعتق ابنه من أمَتِه عاد ذلك الابن عربياً في جميع أحواله وحقوقه.

(١) في القاموس (٤: ٢٧٧) الهجان أيضاً الابيض الكريم الصريح النسب، والمقصود هنا المعنى الأول.

وهنالك الموالي وحالهم قريبة من حال الاحلاف . فالعبد الذي أعتقه سيّده ورأى ذلك العبد أن يظلّ مع سيّده (وقبل سيّده ذلك) كان مولى (تابعاً) بالعتق . وكذلك اذا تزوّج رجل من قبيلة ثمّ أراد أن يبقى في تلك القبيلة (وقبلت القبيلة) ذلك كان مولى رَحِم (من القرابة بالزواج) . وقد يكون الولاء بالاتّفاق المتبادل . ويختلف الولاء من الحلف في أن الموالي يكونون عادة ضعافاً يحتاجون الى حماية أسيادهم ، بينما الاحلاف يكون عادة على شيء من القوّة يساعدون بها أحلافهم .

وكان في بلاد العرب ، وخصوصاً في المدن ، جماعات من أمم شتّى من اليهود والهنود والآراميّين والزّنج والحبشة والفرس وغيرهم . فمن هؤلاء طوائفُ اختلطت أنسابهم بأنساب العرب ، ومنهم من ظلّوا طوائفَ تعيش عيشة مستقلّة .

### الاسرة

وفي القبيلة أقسام منها العشيرة — وقيل العشيرة من القبيلة —[1] والبطن والفخذ وأقسام أخرى لا ضابطَ لترتيبها .

ونَعْني بالاسرة الوَحْدَةَ الاجتماعية القائمة على الزَّواج :

كان الرجل في الجاهلية عِمادَ الاسرة وربّها وصاحب نسبها . ان أولاد الرجل كانوا يَلْحقون بنسبه هو[2] . وكذلك كان للرجل على امرأته وأولاده حقّ الحياة والموت وحق الرهن والبيع . في أثناء حرب البسوس وأيام حرب داحس والغبراء وأيام الفِجار بين الاوس والخزرج كان الآباء يجعلون أولادهم رهائن في أيدي خصومهم ، وكثيراً ما كان ذلك يؤدّي الى قتلهم .

(١) راجع القاموس ٢ : ٩٠ ؛ ٤ : ٣٥ .
(٢) راجع فوق ، ص ٦٧ .



وكان في الجاهلية أنواعٌ من الزواج :

أ — زَواجُ المَهْر أو زواج البُعُولة : وهو الزواج الذي كان الرجل يتّفق عليه مع أهل الفتاة على مَهْر معيّن يأخذه وليّ الفتاة ولا تأخذ الفتاة منه شيئاً . وربّما أكْرَهَ آلُ الفتاة فتاتَهم على الزواج بمن تكره ، اذا هم أرادوه ؛ وربما عَضَلوها (منعوها أن تتزوّج) .

ب — زواج المتْعة : هو عقد شخصيّ بين رجل وامرأة غير بِكْر لمدّة معيّنة على مبلغ معيّن . وينتهي هذا الزواج بانتهاء المدّة المشروطة . هذا الزواج يشبه زواج المَهْر من كل وجه إلاّ اشتراطَ المدّة . وفي هذا الزواج مهر مقدّم وحقوق للأولاد على أبيهم في الانتساب اليه والإرث منه .

ج — زواج السبي : وهو حق المحاربين المنتصرين في نساء المحاربين المغلوبين . ولا يُشتَرط في هذا الزواج رِضا الفتاة ولا رضا أهلها ، وليس فيه مهر .

د — زواج الإماء : وذلك أن يشتريَ الرجلُ أمَةً فيكونَ لها أولادٌ ان شاء أعتقها وأعتقهم وان شاء لم يفعل فتظلّ هي عنده أمَةً ويظلّ أولادها منه عبيداً له وإماءً .

هـ — زواج المَقْت : كان الجاهليون يَرِثون زَوْجاتِ آبائهم (وزوجات غير آبائهم ممن يرثونهم) كما يرثون أموالهم وأنعامهم ، على ألاّ يرث الابْنُ أمّهُ التي وَلَدَتْه .

هذه أنواع الزواج التي كانت في الجاهلية ؛ وهي « زواج » لأنها تقوم على « الإحْصان » ، أي على أن يَكْتَفِيَ الزوج بزوجته وتكتفيَ هي به . أما ما سمّاه بعضهم زواجاً كالمخادنة والمسافحة والاستبضاع فمساوىءُ اجتماعيةٌ وليست نظاماً اجتماعياً أقرّه المجتمع . وهذه المساوىء موجودة في كلّ زمان ومكان ، ثم إنها عند العرب كانت شاذّة ولم يكن العُرْفُ الجاهليّ يقرّها .

على أنه كان هنالك «أحوالٌ» ترافق الزواج بعيدةٌ عنِ احترام حرّية المرأة. من هذه الاحوال الشِغار (وذلك أن يرغب رجلان في الزواج فيتزوّج كلّ واحد منهما قريبة للآخر: أخته أو بنته أو قريبة أخرى له عليها حقّ الولاية، من غير مهر). ومنها الجمع بين الاختين (وهو أمر مكروه حرّمه الاسلام للعامل النفساني. أما اذا طلّق رجل زوجته أو اذا تُوُفّيتْ زوجتُه فانه يتزوج اختها اذا شاء وشاءت).

ولم يقيّدِ الجاهليّ نفسَه بعدد النسوة اللواتي كان يتزوّجهن في كلّ نوع من أنواع الزواج المذكورة آنفاً، ذلك لأن السيّد الجاهلي كان يعدّد الزوجات لأسبابٍ انسانية (كأن يُدْخل في عِصمته عدداً من النساء لا مُعيل لهن)، أو لأغراض سياسية (بأن يُصْهِرَ الى عدد كبير من القبائل فتكونَ تلك القبائل مؤيّدة له في رئاسته أو ناصرةً له في حروبه).

وكان الجاهليون يفضّلون البنينَ على البنات لأن البنين يُصْبحون محاربين ومدافعين عن القبيلة. بينما البنات كنّ يَحْتَجْنَ الى إخوة يدافعون عنهن؛ فالبنت كانت في الجاهلية، من الناحية الحربية، عِبئاً ثقيلاً على الرجل.

ووَأَدَ(1) الجاهليون أولادَهم بنات وصبياناً في أحوال نادرة، اذا وُلدَ أولئك الاولاد مُشوّهين، أو اذا كان الوالد فقيراً كثير العِيال، أو اذا كان معَ فقره وضَعفهِ مِئناثاً، وكان يخشى ألاّ يستطيعَ الدفاع عن بناته في الحرب. يفتخر الفرزدق بأن جدّه صعصعةَ كان يُعْرَفُ في الجاهلية بأنه مُحْيِي المَوْءودات، ثم يذكر أن جدّه قد أحيا عشرين مَوْءودة. فاذا نحن أجَزْنا قول الفرزدق ولم نعدّه مُبالِغاً في الرقم «عشرين»، فإن هذا العدد يظلّ أيضاً قليلاً.

وكان الجاهلي اذا شاء تَبَنّى أولاداً ليسوا من صُلبه فأصبحوا مثل أولاده في الحقوق عليه وله.

(1) الوأد: دفن الأولاد عقب الولادة وهم احياء.



والطلاق في الجاهلية كان سهلاً كعَقْدِ الزواج أو أكثرَ سهولة. وكلمة الطلاق كانت بيد الرجل يُوقِـعُ بها الطلاقَ متى شاء، من غير سبب موجب لذلك ضرورةً. وكانتِ المرأة، اذا كانت ذاتَ مال كثير أو جمال رائع أو شرف أثيل، تشترِط أحياناً أن يكون لها حقّ طلب الطلاق متى شاءت هي؛ على أن ذلك لم يكن يَحْميها من تطليق زوجها إياها متى شاء هو.

واذا طُلّقت المرأة أو إذا مات عنها زوجها فعليها أن تَعْتَدّ (أن تَقْضِيَ عِدّةً): تتربص بعدَ زوجها مدّة لا تتزوّج في أثنائها حتى تتبيّن أنها حاملٌ أو غير حامل من زوجها الذي طلّقها أو مات عنها). ولقد حرَص الجاهليون على «وفاء العِدّة» محافظة على أنسابهم حتى لا يختلط نسل رجل بنسل رجل آخر منهم.

والإرثُ في الجاهلية حقّ الرجال الذين يركبون الخيلَ ويحملون السلاح. فالطاعنون في السن والصِبيان لم يكن لهم حق الارث. أما النساء فكان الرجالُ يرثون منهن ويرثونهن كما يرثون المتاع والاموال. ولقد كانت القاعدة العامّة في الجاهلية أن المرأة لا حقّ لها في إرث قريبها المُتَوَفّى. على أن الاخبار وردت في أن المرأة في بعض القبائل كانت ترث أحياناً.

**الملأ والنادي — السياسة والحكومة**

انقسم المجتمع في البادية وفي القرى (المدن) قسمين:

أ — القبيلُ أو القوم أو الجماعة: الكَثرة من أهل المجتمع،

ب — المَلأ: العِلْيَة من القوم والأشراف وذوو الشأن (قا ١: ٢٨) وأصحاب الحلّ والربط والاغنياء، وهم السادة والكُبَراء. وهؤلاء الملأ هم الطبقة التي تكون حول الملك يأخذ الملك برأيهم ويقتدي القوم بهم أو يخضعون لنفوذهم.

والنادي والنَدْوة والمُنْتدى والنَدِيّ مَجْلِس القوم (قا ٤: ٣٩٤) الذي يجتمع فيه الملأ لتصريف شوون البلاد أو شوون القوم (القبيل).

وكان نادي أهل مكّة يُدعى دارَ الندوة[1]، فيما جاء في الاخبار ؛ أما في القرآن الكريم فإن اسمَه « النادي » . في سورة العلَق ، السورة الاولى التي نَزَلت على رسول الله (وترتيبُها السادسة والتسعون في المُصْحَف ) إشارةٌ الى أبي جَهْلٍ عمرِو بن هِشام بن المُغيرة . كان رسول الله يصلّي عند الكعبة فنهاه أبو جهل عن الصلاة هنالك ، فانتهره الرسول . فقال أبو جهل عندئذ لرسول الله : « لقد علمتَ ما بها ( في مكّة ، في الأرض) رجلٌ أكثرَ (منّي) نادِياً . لأمْلأنَّ عليك هذا الواديَ إنشئتُ خيلاً جُرْداً ورجالاً مُردا » . ولقد نزل في تقريع أبي جهل ووعيده آياتٌ منها ( ٩٦ : ١٧ ) : فَلْيَدْعُ نادِيَه » !

وطَرَفة بن العبد يسمّي الناديَ « حَلْقةَ القوم » ، قال في معلّقته :

فإن تَبْغِني في حَلْقةِ القوم تَلْقَني ؛ وان تَقْتَنِصْني في الحوانيت تَصْطَدِ[2] .

ولا غرابة فان الحِلْق خاتم الملك ( قا ٣ : ٢٢٣ ) .

ويبدو أنه كان لكل مدينة وكلّ قبيلة نادٍ على مثال نادي قريش في مكّة . ووصول الملأ الى النادي وتصريفهم للأمور فيه لا يَجْريان على نَهْج مرسوم ولا على قانون موضوع .

ان دخول النادي أمر عشائري : كلّما عظم شأن رجل بالجاه أو الغنى أو بالبطش دخل الى النادي وأصبح من الملأ الذين يحكمون قومهم .

وطريقة الحكم في النادي عشائرية : يحكم الملأ كما يتفق لهم أن يشاءوا ، يحكمون على حسْب ما يَرَوْنَ من المصلحة أو على هواهم . وليس من الضروري أن يجتمع الملأ في النادي ليتّفقوا على ما يجب فعله ، بل قد يفصل أحدهم في أمر ما ، في النادي أو في السوق أو في بيته ، ثم لا يجد من يخالفه من رفاقه لأنهم كلّهم يسلكون هذا السبيل . والنادي ليس داراً للحكم فقط ، بل

(١) وكان دار الندوة قرب الكعبة .

(٢) حلقة القوم : مجلس القوم ( الانباري ١٨٦ ) . الحانوت : دكان الخمر .



لجميع الشؤون : فيها يجري إعلان الحرب ومنها يبدأ سير المحاربين الى المعركة ، وفيها يُعقد زَواج كلّ رجل وامرأة وفيها تُدَرَّعُ الفتَيات إذا بَلَغْنَ الحُلُمَ ( يُشقّ عنها ثوبُ الطفولة ثمّ تُكسَى ثوبَ النساء ) .

وكان في المجتمع الجاهلي ، في البادية والحَضَر ، سادةٌ وكبراء ممن لم يُتَحْ لهم أن يدخلوا النادي . هؤلاء هم أصحاب النفوذ المادي والمعنوي والذين كان الناس عادة يطيعونهم ويعملون برأيهم احتراماً لهم او خوفاً منهم او انسياقاً مَع منفعة عاجلة عارضة . وفي القرآن الكريم اشارة الى السادة والكُبراء الذين يحملون الناس في بعض الاحيان على غير الحق وعلى غير المصلحة . في سورة الاحزاب ( ٣٣ : ٦٧ – ٦٨ ) قولُه تعالى على لسان الناس المخدوعين : « وقالوا ؛ ربّنا ، إننا أطعْنا سادتَنا وكُبَراءنا فأضلّونا السبيلَ ؛ ربّنا ، آتِهم ضِعْفين من العذابِ والْعَنْهُمْ لَعْناً كبيرا » .

وكان في المجتمع الجاهلي خُلَعاءُ او مخلوعون : قد يُسيء فرد الى القبيلة بسلوكه العامّ او بسلوكه الشخصي (كأن يقتل شخصاً من قوم بينهم وبين قوم القاتلِ حِلْف او صُلح ، او يخرج على إجماع القبيلة ، او يصبحَ سفيهاً مُبذّراً لا أملَ بإصلاحه ، فتخلعه القبيلة وتَتَبَرَّأ منه ثم لا تقبله القبائل الأخرى فيها فيعيشَ عيشة ضَنْكاً ، وخصوصاً اذا كان مُعَيّلاً (كثيرَ العِيال ) . قال امرؤ القيس :

ووادٍ كجَوْف العَيْر قَفْرٍ قطعته ؛ به الذئبُ يَعوي كالخَليع المُعَيَّلِ .

ومثلُ ذلك قولُ طرفة في معلّقته وفيه سبب خَلْعه :

وما زال تَشرابي الخمورَ ولذّتي ؛ وبيعي وإنفاقي طَريفي ومُتْلَدي
إلى أن تحامتني العشيرةُ كلّها ؛ وأُفْرِدتّ إفراد البعير المُعَبَّدِ .

**الضرائب والمظالم**

لا نعرف من أيام الجاهلية نظاماً للضرائب وان كنّا نعرف أن شيئاً من الاموال كان يُجمع من أصحاب الاراضي ذات الزرع وذات الشجر ،

وانّ الروم والفرس كانوا يجمعون من القبائل العربية مبالغ يحسن أن تسمّى مظالم لا ضرائب[1] . ولم يكن الغساسنة والمناذرة وبنو كندة المتسمَّوْن بأسماء الملوك إلاّ جُباة للروم والفرس واليمن والحبش ينتزعون الاموال (الابل والغنم والدراهم أيضاً انتزاعاً) من أيدي القبائل العربية .

على أن الكرم العربي كان يقوم في مساعدة المحتاجين من أبناء القبيلة مقابل الضرائب المجموعة . وخصوصاً في الميسر[2] .

**الحكومة – والقضاء والثأر**

الحكومة أو الحكم كان يطلق على مدارك مختلفة :

– الاتيان بالنظر الثاقب والقول الصائب : «واحكم كحكم فتاة الحيّ ... فحسّبوه فألفَوْه كما حسبتْ» . وفي سورة يوسف من القرآن الكريم (١٢ : ٢٢) : «ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً» ، وغيرها كثير .

– الحكم بين الناس : القضاء .

لم يكن القضاء في الجاهليّة منصباً تقرّه السلطة السياسيّة، بل كان الجاهليّون يرجعون في حلّ مشاكلهم الى نفر من العقلاء ، ثمّ عُرف هؤلاء النفر من العقلاء بالعدل والانصاف مع العقل الراجح فجعل الناس يحتكمون اليهم في الخلافات والمنازعات . وكان القضاء على هذا الوجه نوعاً من التحكيم لا يحمّل الحَكَم تَبِعةً ما ولا يلزم المتقاضيين أمامه بشيء . وممن اشتهر بالقضاء في الجاهلية عبد المطّلب بن هاشم (جدّ الرسول صلى الله عليه وسلّم) وإبنه أبو طالب ثمّ أكثم بن صيفي وغيرهم .

على أن رئيس القبيلة ورجال النادي (زعماء القبيلة أو المدينة) كانوا يحملون تبعة قضائهم بين الناس فيُلزمون الظالم بأن ينصف المظلوم . واذا

---

(١) راجع ، فوق ، ص ٦٥ .

(٢) راجع ، تحت ، اللهو (ص ٨٨) .



كان الظالم عاجزاً عن ذلك (كأن يكون فقيراً لا يستطيع أن يدفع دِيَةَ قتيل دفعوها عنه .

والقضاء في الجاهلية كالقضاء البابليّ القديم لا يُقصد منه العدل بين المعتدي والمعتدى عليه بقدر ما يرمي الى إرضاء المعتدى عليه الضعيف . أما اذا كان المعتدى عليه قويّاً فانّه كان قلّما يَرجِع الى أحد ، بل كان يثأر لنفسه من خصمه . ومن أبرع الأمثال في القضاء الجاهلي مثل الثعلب والارنب اللذين جاءا يحتكمان الى أبي حسل[1] . قالوا :

جاءت أرنبٌ وثعلب الى وِجار[2] ضبّ فقالا :

– يا أبا حِسْل ، اخرج الينا واحكم بيننا .

قال : في بيته يُوتى الحكَم .

قالت الأرنب : وجدت تمرة .

قال الضبّ : حلوة فكُليها .

قالت : فخَطِفها منّي الثعلب .

قال : لنفسه بغى الخير .

قالت : فلطمته .

قال : بحقّكِ أخذت .

قالت : فلطمني .

قال : انتصر لنفسه .

قالت : فاحكم بيننا .

قال : قد حكمت !

---

(١) أبو حسل هو الضب : حيوان من جنس الزواحف غليظ الجسم أقرب شكلا الى التمساح ولكن حجمه أقل من ثلاثين سنتيمتراً .

(٢) الوجار : شق طبيعي في الارض يأوي اليه الاسد والثعلب وغيرها .

## الحرب

كانت الحرب عند الجاهليين شِرْعَةً في الحياة ومورداً من موارد الرزق . وكان الحق عندهم للقوّة ، كما كان الشأن عند جميع الامم في جميع العصور الى اليوم . ان القويَّ في الجاهلية كان يغزو مَنْ شاء متى شاء ، وكان يحمي الماءَ والعشب اذا شاء . وكذلك كانت القبائل القوية — اذا وَرَدَتِ الماءَ في الأيّام العادية — تشرب وتسقي أنعامها قبل القبائل الضعيفة . ففي معلّقة عمرو بن كلثوم :

ونَشربُ ، إن وَرَدْنا الماءَ ، صَفْواً ؛ ويشرب غيرُنا كَدَراً وطينا !

وبما أن السلاح كان أنواعاً معروفة في الجاهلية شائعة الاستعمال في جميع القبائل ، فقد كانت قوّة القبيلة قائمةً على عدد أفرادها . وذلك قول عمرو ابن كلثوم أيضاً :

ملأنا البرّ حتى ضاق عنّا ، وظهرُ البحر نَملأه سفينا .

وتقوم القوة نفسُها على مَدْرك الظُلْم في الجاهلية : الظلم أن تبدأ الآخرين بالحرب (أي بالاعتداء ، أو المُبادرة بالحرب) . وذلك قول زهير في معلّقته :

ومَنْ لا يَذُدْ عن حوضه بسلاحه يُهَدَّمْ ، ومن لا يَظْلِمِ الناسَ يُظلَمِ

أمّا أسباب الحروب فكانت منبعثة في الاكثر من النزاع على العشب والماء وما يتعلّق بهما من الخلاف والجدال . وكانت الحرب اذا نشبت طالت كثيراً حتى تبلغ أربعين عاماً تظلّ العداوة في أثنائها قائمة بين المتحاربين . أما المعارك فتكون فقط بين الفينة والفينة .

ويكون القتال بالمبارزة بين البطلين وبالالتحام بين القبيلتين . وقد تكون غزواً على حين غرّة . وفي كثير من الاحيان تنتهي الحرب بصلح تُدفع فيه ديات القتلى : يُحسب القتلى من الفريقين ، فاذا زادت القتلى في فريق دفع



الفريق الثاني ديات أولئك الذين زادوا من الفريق الأوّل . وكانت دية الرجل الحرّ مائة جمل .

توارث اللواء (قيادة الحرب) :

كان اللواء في نَسْل ربيعةَ بن نزارٍ ، من الأكبرِ في جيله الى الأكبرِ في جيله : كان في بني عَنَزَةَ بن أسد بن ربيعة ثم انتقل الى بني عبد القيس بن أفصى ثم إلى النَمِر بن قاسط ثم إلى بكر بن وائل . وكان لصاحب اللواء سلطانٌ يَفْرُضه على قومه وعلى أحلاف قومه كيفَ شاء ، فاتّخذ بنو بكر شاهداً على سلطانهم فَرْخَ طائر كانوا يوثقونه بقارعةِ طريق فلا يَجْسُرُ أحدٌ على أن يَسْلُكَ من تلك الطريق ، بل يسلكُ عن يمينه أو عن يَساره .

ثم انتقل اللواء الى بني تَغْلبَ أقارب بني بكر ومنافسيهم في الجاه . وكان وائل بن ربيعة بنُ الحارث قد عَظُم شأنه وارتفعتْ مَنزلته بعد انتصاره على بني مَذْحِجٍ من عرب الجَنوب في يوم خَزازى ، فأصبح سيّد بني تَغْلبَ ثم صاحبَ اللواء في بني ربيعة بن نزار . واختار وائل بن ربيعة شاهداً على سلطانه «كُلَيْباً» (جَرْوَ كلبٍ) ثم حمى أرضاً من العالية [1] فكان يُلقي ذلك الكليبَ في أية بقعة منها شاء فلا يستطيع أحدٌ أن يرعى أو أن يَسْتَقِيَ من مكان يُسمع فيه عُواء ذلك الكليب الا بإذنٍ من وائل . فعُرِفَ وائلُ بن ربيعة بن الحارث ، منذ ذلك الحين ، بلقب كُلَيبِ وائلٍ أو بلقب كليبٍ فقط .

## الدين

الدين في القاموس هو العادة التي استحكمت في الفرد أو في الجماعة حتى أصبح لها قوّة الوازع أو القاهر في الحياة الاجتماعية . «وفي الحديث : كان النبي على دين قومه ، أي على ما بَقِيَ فيهم من إرث ابراهيمَ واسمعيل

(١) العالية : ما فوق نجد الى ارض تهامة الى ما وراء مكة (قا ٤ : ٣٦٥) .

في حجهم ومناكحتهم وبيوعهم وأساليبهم . وأما التوحيد فانهم كانوا قد بدّلوه ؛ والنبي صلّى الله عليه وسلّم لم يكن إلا عليه » ( قا ٤ : ٢٢٥ ) .

وإذا نحن نظرنا إلى الدين في الجاهلية ، بهذا التعريف ، وجَدْنا أن أكثر الجاهليين كانوا على الفِطرة : كانوا يَسْلُكون في الحياة مسلكاً مؤمناً بالله وبقيمة العمل الصالح من غير أن يكون لهم نظامٌ مخصوص في العبادة ، إلاّ فيما يتعلّق بالحج .

هذا المدرك من الفطرة كان عليه جمهور أهل الجاهلية : يسلكون هذا المسلك لأنهم وجدوا الذين كانوا قبلهم يسلكون مثله . وهذا الاتّجاه هو الذي نجده ملموحاً في الشعر الجاهليّ . وكان الجاهليون يعتقدون بأن الله قادر على كلّ شيء وأنه هو خالق هذا العالم وأنه مسيطر على كلّ شيء .

**الأوثان والأصنام — الحنفاء**

الوثن حجر على غير هيئة معينة ، والصنم حجر منحوت أو مَعدِن مصنوع على هيئة معيّنة .

يبدو أن عبادة الاصنام والاوثان طرأت على الجاهليين من جيرانهم وأنها طرأت في زمن متأخّر ، يدلّنا على ذلك قِلّة احتفال الجاهليين بتلك الأوثان والاصنام التي لا نجد لها ذكراً إلا في مناسبات معينة . ثم ان هذه الاوثان والاصنام لم تَحِلّ عند الجاهليين مَحِلّ « الله » ، كما اتّفق عند غير العرب وعند غير الساميين على الاخصّ . لقد اتّخذ عدد من القبائل آلهة قَبَلِيّة كاللات ومَناة والعُزّى والشمس والقمر والشِعرى والنجم ( الثريّا ) ووُدّ وسُواعٍ ونَسْرٍ ، ولكن حُجّتهم في عبادتها قد وردت على لسانهم في القرآن الكريم في سورة الزُمَر ( ٣٩ : ٣ ) : « ألا لله الدينُ الخالص . والذين اتّخذوا من دونه أولياءَ ما نعبدُهم الا ليُقرّبونا الى الله زُلفى . ان الله يَحكُمُ بينهم في ما هم فيه مختلفون . إنّ الله لا يَهْدي من هو كاذب كفّار » . ونحن لا نقبل هذه الحجة لأن معظم الوثنيين في



العالم يحتجّون بها ؛ بل لأنها عندنا ذات قيمة فإنّنا لا نجد أثر الوثنية راسخاً في نفوس الجاهليين : ان الذي يقرأ الشعر الجاهلي ويتتبّع حياة العرب في جميع الروايات لا يستطيع أن يرى هذه الاوثان إلا في المرّة بعد المرة ، في قسم كانوا يقسمون به وفي بيت شعرٍ أو بيتين في أثناء حرب ، وفي عدد من الاسماء . ثم ان هذه الاسماءَ المُعَبَّدَةَ للاصنام نحو عبدِ شمسٍ ، عبد يَغوثَ ، امرىء القيس ، عبد مَناةَ ، عبد اللاّت ، تَيْم اللات الخ ، قد تكون دالّة على احترام للصنم المُتَعَبَّدِ له أو على تبرّك به ، وقد تكون إعجاباً بشخص حمل ذلك الاسْمَ من غير أن يكون ثمّت صلةٌ بين ذلك الصنم وبين صاحب الاسم الراهن . وأيّاً كان سببُ الاسم المعبّد للأصنام ، فان الجاهليين لم يُولُوا الاصنام والاوثان الاهتمامَ الذي كان لها عند الاقدمين .

نشأ في الجاهلية نفرٌ من الحُنَفاء الذين لم يَرْضَوْا عن الحياة الدينية الوثنية ولا عن الحياة الاجتماعية العامّة التي كانت تسيطر على الناس ، ثم لم يَجِد هؤلاء النفرُ اطمئناناً في اليهودية المنطوية على نفسها والمنافرة للطبيعة السَمْحة في الانسانية ، ولا وجدوا اطمئناناً في النصرانية التي كانت منقسمةً مذاهبَ متعاديةً يتقاتل أهلها باللِسان والسِنان . من أجل ذلك انصرف هؤلاء الى حياة فِطرية تأخذ عناصرَها من الأخلاق الشخصية وحبِ الخيرِ للناس : تركوا عبادة الاوثان وشُرْبَ الخمر واعتزلوا المنازعاتِ القبليةَ وزهدوا في منافسة معاصريهم على الدنيا ثم ساح بعضهم في الأرض ترفّعاً وتنسّكاً . من هؤلاء النفر خالد بن سِنان العبسي الذي صفت بصيرته حتى نسب اليه الرواة أشياءَ من الحكمة ومن الأخبار التي تشبه ما يروى عن أنبياء بني اسرائيل [1] .

ومن هؤلاء النفر الذين عاشوا في الجاهلية وأنكروا حالَ قومهم في الوثنية والتدابر الاجتماعي ثم حَرَصوا على الحصول على شيء من الإطْمئنان

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٢٦ ؛ ابن الاثير ١ : ١٥٠ .

الروحي : عامرُ بن الظَّرِب العَدواني ، حَنْظلة بن صَفْوان ، زيد بن عمرو ابن نُفيل ، وَرَقة بن نَوْفل ، أبو قيس صرمة بن أبي أنَس ، زُهير بن أبي سُلمى ، جَزْءَ بن غالب بن عامر الخُزاعي المعروف بأبي كَبْشة ، أُميّة بن أبي الصَلْت الثقفيّ وقَسّ بن ساعدة الأيادي [1] .

وهنالك جماعاتٌ سلكت سلوكَ هؤلاء الافراد :

كان هؤلاء يُدْعَوْنَ « الحُمْس » ؛ كان لهم مُثُلٌ عُليا فِطْرية ، وكانت فضيلتَهم أنهم كانوا يتمسّكون بما يعتقدون .

الحمس هم المتشدّدون في الدين ، وكانوا جماعاتٍ من قريشٍ وكِنانةَ والأَوْس والخَزْرج وبني ثَقيف وغَطَفان وغيرهم . وكان هؤلاء يشترطون على كلّ من يتزوج من نسائهم أن يكون أولاده على دينهم هم . وكانوا يُعظّمون الأشهرَ الحُرُمَ . وكانوا اذا أحرموا للحجّ لا يأكلون السمن ولا يَسْلأونه (يستخرجونه من دهن الانعام وشحمها) ولا يَغْزِلون الوبَرَ ولا يَنْسِجونه ، ولا يأكلون من نبات الحَرَم . ومن غريب أفعالهم أنهم اذا أحرموا للحج لا يدخلون بيوتَهم من أبوابها المعهودة بل من منافذها الخَلْفية أو من فَتَحات أو أنقابٍ [2] في سطوحها [3] . ولقد قرّعهم الله تعالى على فعلهم هذا . جاء في سورة البقرة (٢ : ١٨٩) : « يسألونك عن الأهِلّة [4] ، قلْ : هيَ مواقيتُ للناس والحج . وليس البرّ بأنْ تأتوا البيوتَ من ظهورها ، ولكنّ البرّ مَنِ اتّقى ، وأتُوا البيوتَ من أبوابها ؛ واتّقوا الله لعلّكم تُفلحون » .

ان سلوك الحُنَفاء والحُمس كان رِدّةَ فعلٍ لنُفْرةِ هؤلاء الافراد والجماعات من سلوك أقوامهم في الدين والمجتمع وفي الصِلات الشخصية .

(١) راجع جواد علي ٥ : ٣٦٨ وما بعدها .
(٢) النقاب والانقاب فتحات تكون في أصل بناء البيوت أو تنقب بعد تمام بنائها .
(٣) راجع جواد علي ٥ : ٢٢٤ وما بعدها .
(٤) الاهلة جمع هلال : ولادة القمر (ظهور القمر في أول الشهر) .



## الكعبة

لا ريب في أن الكَعْبَةَ بُنيت لعبادة الله وحدَه ثم لم تُنْسَبْ الى غيره . يقول زهير في معلّقته : « فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله رجال ... » ؛ وقال النابغة : « فلا ، لَعَمْرُ الذيَ مسّحت كعبته ... [1] » ، برُغم أن نفراً من المرتزقين بالدين كانوا قد نَصَبوا على الكعبة وحولَها أصناماً وأوثاناً . وبظهور الاسلام عادت الكعبة بيتاً لله الواحد .

ومناسك الحج في الجاهلية كانت قريبة من مناسك الحج في الاسلام : الطواف واستلام الحَجَر [2] والصعود الى عَرَفة والأفاضة من عرفة والتَضْحية والرجم مع فارق أساسي مهمّ جدّاً هو أن جميع هذه المناسك في الاسلام طاعةٌ لله وحدَه حقيقة ومجازاً .

وكانت أشْهُرُ الحج في الجاهلية ، لطبيعة الحج في ذلك الحين ، سوقاً تجارية رائجة ، وكانت تَدُرّ على روؤساء المكيّين وعلى عامّتهم خيراً كثيراً .

### أسواق الجاهلية — الأشهر الحرم

ولم يكن بالامكان أن تروج أسواق الجاهلية ، في موسم الحج خاصة ، اذا كانت الحروب مشتعلة بين القبائل ، فنشأت الاشهر الحُرُم ، فَسادَ شبهَ الجزيرة في أثنائها — وهي أربعة أشهر تؤلّف ثُلُثَ السنَة — سِلْمٌ حقيقي إلا في أحوال نادرة جدّاً . ولم تكن تلك الاشهر متواليةً كلّها ، بل كان منها ثلاثةٌ متوالياتٌ هي ذو القَعدة وذو الحِجة والمُحرّم ثم شهر مُفْرَدٌ ( هو رَجَبُ ) يأتي بعد المحرّم بستّة أشهر ، فكان ذلك مما يساعد على وقْفِ الحرب وكسر حِدّة العداوة بين الجاهليّين مرّتين في كل عام .

(١) العمر : صيغة من صيغ القسم . مسح الكعبة : ذبح ذبيحة ثم لطخ بدمها جدران الكعبة .
(٢) الحجر الاسود موجود في ركن الكعبة ، وكان الطائفون في الجاهلية يستلمونه ( يقبلونه ). واستمرت هذه العادة الى الاسلام . أما اليوم فان الحاج الطائف بالكعبة يكتفي إذا شاء بالإشارة اليه ثم لا يقبله ولا يلمسه ( بفتح الميم والسين ) .

وأسواق العرب كثيرة مفرّقة في الحجاز ونجد وموزّعة في السنة كلّها ، ولكنّ السوقَ المذكورةَ المشهورة هي سوق عُكاظٍ في نَخْلة على مَقْرُبَةٍ من مكّة .

وكانت الغاية الاساسيّة من هذه الاسواق البيع والشراء — بيع الاشياء المختلفة من طعام وشراب وثياب وسلاح وخيل — على الذين يحضُرون للحجّ الى الاماكن المختلفة . على أن بعض الناس قد يحضرون هذه الاسواق ليخطب أحدهمُ امرأة جميلة أو مشهورة أو ليبحث عن غريم له أو عن عبد هرب منه أو حصان سرق منه . وكان الخطباء والشعراء ينتهزون فرصة اجتماع الناس في تلك الاسواق فيُلقون خطبهم ويُنشدون أشعارهم . وفي هذه الاسواق اختيرت المعلّقات .

**الخرافات**

وكان للجاهليين ، كما كان لجميع الشعوب الفِطرية وغير الفطرية أيضاً ، خُرافاتٌ يعتقدونها دِيناً وتَقليداً .

الخُرافة حقيقةٌ تاريخية عُلِّلَتْ تعليلاً خاطئاً .

لمّا انساح البدو الى أطراف البادية يحملون خيامَهم على ظهور أنعامهم ثم رَأَوْا مدينةً كتَدْمُرَ فيها القصورُ ذات الأعمدة والجنادل الكِبار الضِخامِ لم يستطيعوا أن يصدّقوا أن بشراً يستطيع أن يَبْنِيَ مثلَها ، فهيّأ لهم ضَعفهم وعَجْزهم أن كائناتٍ من غير عالَمنا أشدَّ منا قوّة وأكثر علماً قد بَنَتْها ، فقالوا بناها الجِنّ ؛ وجاء النابغة يمدح النعمان في معلّقته ثم لا يَرْضى أن يُشبّه به أحداً :

إلاّ سليمانَ ، إذ قال الإلهُ لــه : قُمْ في البَرِيّة فاحْدُدْها عن الفَنَدِ ،
وخَيِّسِ الجِنَّ إنّي قد أذِنْتُ لهم يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُفّاح والعَمَدِ .

والكلام على الجن حتى في الشعر الجاهلي قليل جدّاً . ثم أصبح ذلك وجهاً من أوجه البلاغة ، فلمّا أراد البُحتريّ أن يصف البِرْكَةَ التي بناها



الخليفة المتوكّل على الله في سامُرّا ويبالغَ في ذكر سَعَتها وحُسنها قال :

كأنّ جِنّ سُليمانَ الذين وَلُوا إبداعَها فأدقّــوا في معانيها !

أما محادثة الجن للناس ومقاتلتهم أحياناً والزواجُ بهم أحياناً أخرى فمما يدخل في باب الخرافات على الحصر . وكذلك الغول والسِعلاة ( انثى الغول ) والعَنقاء ( طائر عظيم الحجم ) وسواها أمور من هذا الباب .

ولا ريب في أن خرافاتٍ كثيرةً انتشرت بين عرب الجاهلية من جيرانهم ومن اليهود الذين نزلوا بينهم ومن الجهل الذي كان يسود في أرجاء كثيرة من شبه جزيرتهم .

**اللغة والأدب**

اذا لم تكن اللغة العربية أقدم اللغات الساميّة ، فيجب أن تكون من أقدمها ، فليس في الامكان أن تكون قد بلغت في سَعة قاموسها وتَمام تركيبها ودِقّة تعبيرها وبَراعة نثرها وشعرها وإحكام بلاغتها الى الدرجة التي نجدُها في الشعر الجاهلي لو لم يكن قد مضى على تطوّرها يومذاك قرونٌ كثيرة . ولم يكن في اللغات السامية ولا في اللغات غير السامية لغةٌ فيها من طاقة الحياة ومن المُطاوعة للتطوّر مثلُ اللغة العربية ، ثم هي بلا ريب أطول اللغات الحيّة عُمُراً .

والنثر الجاهلي أمثال وخطب وسَرْدٌ يشبه الامثالَ والخطب ، وهو يمتاز بالايجاز وبالمُوازنة ( يجعل الجمل متساوية الفِقَراتِ في عدد الكلمات وصيغ تلك الكلمات : كلامُ الملوكِ ملوكُ الكلامِ — ما استحسنت لغيرك فاعملْ به ، وما استقبحت من غيرك فاجتَنِبْهُ ) . وقد يكون فيه سَجْعٌ قليل أو كثير .

وكان الشعر نوعين : مألوفاً ومخلوفاً . أما الشعر المألوف فهو الذي في المعلقات : قصائدُ طوالٌ ذاتُ أغراض متعددة ومبادىء معروفة : كوقوف

على الاطلال وذكر للأحبّة وإشادة بالقبيل وحِفاظ على المُثُلِ العُليا ؛ والمخلوف ما خالف ذلك فكانت القصائد فيه طِوالاً أو قِصاراً وقلما جاوز الشاعر فيها الغرَض المقصود من قولها . وهذا النوع يُعبّرَ عن رأي الشاعر أكثرَ مما يعبر عن رأي المجموع . وجميع الشعر الذي من هذا النوعُ وجداني خالص .

والجاهليون كانوا أُمّيّين لا يُخطّون ولا يقرأون الخط ، وخصوصاً في البادية . على أن هذا لا يَعْني أن القراءة والكتابة كانتا مجهولتين : لقد كانتا معروفتين في القرى وفي البادية ولكن لم تكونا شائعتين .

**اللهـو**

كانت أوجه اللهو في الجاهليّة قليلة أشهرها شربُ الخمر واللهو مع النساء والصيد للنزهة والمُتْعة كالصيد الموصوف في معلّقة امرىء القيس ومعلّقة النابغة : يخرج الامير أو الملك في حاشية كبيرة في « رِحلة صيد » يقضون فيها بضعة أيام يصيدون ويأكلون ويشربون ويلعبون .

ومن اللذات التي ذكرها طرفة في معلّقته الكرم وإكرام الضيوف .

أما المَيْسرُ فلم يكن لهوًا على الحصر : كان الجاهليّون الاغنياء يلعبون الميسر على إبِلٍ لهم ، وفي الشتاء خاصّة ، ثمّ يفرّقون لحومها على الناس ولا يأكل اللاعبون منها شيئاً سواءٌ الرابحون منهم والخاسرون .

وكان للجاهليّين ألعاب يقومون بها : منها الفروسية والمبارزة في غير أيام الحرب وسباق البشر والخيلِ والمُفايلةُ [1] و ( غيرها ) .

---

(١) المفايلة : يجعل اللاعبان كومة ( بضم الكاف ) من التراب ثم يضع أحدهما فيها حجراً ويقطعها بيده قسمين . بعدئذ يسأل الآخر عن الجهة التي فيها الحجر .



# الجانبُ الفِكريّ
## مِن حَياةِ الجاهِليّين

إنّ العرب لم يكونوا – لمكانهم من البداوة – أهلَ علم مقصود للعلم ؛ ولكن تسرّب اليهم كثير من وجوه العلم التي كانت عند جيرانهم من البابليّين والكلدانيين ومن الفرس والروم ؛ وكذلك نشأت في بيئتهم وجوه من العلم كانوا في حاجة الى مثلها وكانت تدعوهم اليها حاجاتهم القريبة . من وجوه العلم هذه الطبُّ ، والفلك واقتصاص الاثر وما أشبه ذلك . قال صاعد في كتابه « طبقات الأمم » ( ص ٤٢ ) :

« ولم تكن ملوك حِمْيَر معتنية بأرصاد الكواكب ولا باختبار حركاتها ولا بإيثار شيء من علوم الفلسفة . وكذلك كان سائر ملوك العرب في الجاهلية [1] لم يبلغنْا عن أحد منهم أنه بحث عن شيء من ذلك ... ولم يكن فيهم عالم ولا فيلسوف » .

ولكنّ صاعداً يشير الى شيء من المعارف التي كانت عند عرب الجاهلية فيقول ( ص ٤٤ – ٤٥ ) :

« ثمّ كانت ( للعرب ) معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها ، وعلم

---

(١) من عرب الشمال .

بأنواء الكواكب وأمطارها ، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك في سبيل المعيشة لا على طريق تفهّم الحقائق ولا على سبيل التدرّب في العلوم » .

وعرف العرب من أسماء الاعداد الآحاد والعشرات والمئات والألوف ، وذلك كثير في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم . غير أنهم كانوا اذا أرادوا أن يعدّوا ما فوق مائة ألف كرّروا الألف . قال الاعشي :

أنت خير من ألف ألف من القو　　م اذا ما كبت وجوه الرجـال [1] .

يقصد مليوناً من القوم (من الرجال) .

وعرب الجاهلية لم يكونوا في عُزلة عن الحركات الفكرية والاجتماعية والعلمية التي كانت تسود في الاقطار المحيطة بجزيرتهم .

ويبدو أن الجبر الذي عرفه اليونان أو عرفه الهنود بعد ذلك قد وصل خبره الى عرب الجاهلية فتعلّقوا بالمعادلة البسيطة ذات المجهول الواحد حتى كثر القول فيها في شعرهم وأسمارهم . قال الاصمعيّ (غ ١١ : ٣٦) سمعت أناساً من أهل البادية يتحدّثون أن بنت الخُس [2] كانت قاعدة في جَوارٍ لها ، فمرّ بها قطاً وارد [3] في مضيق الجبل فقالت :

يا ليت ذا القَطا ليَهْ　　ومثـلَ　نصفه معيه
الى　قطاة　أهليه　　اذاً　لنـا　قطاً　ميـه

وأُتبعت القطا فعُدّت على الماء فاذا هي ستّ وستون .

(١) أنت خير من مليون رجل . حتى إذا عرضت حال ضل فيها الرجال القادرون المحنكون طريقهم في حل المشاكل ، فانك تبقى عالماً بوجوه القضايا صائب الرأي في حلها .

(٢) هند بنت الخس بن حابس الايادية قديمة في الجاهلية (راجع القاموس ٢ : ٢١٠ وتاج العروس ٤ : ١٣٧) .

(٣) قاعدة في جوار لها : كانت مع عدد من الفتيات اللواتي كانت تملكهن . القطا : جمع قطاة ، وهي طائر بحجم الحمامة . وارد : ذاهب الى الماء ليشرب .



وكانت زرقاء اليمامة ، وهي امرأة من جديس في العرب البائدة تبصر من مسيرة ثلاثة أيام [1] . زعموا أنها رأت سرب حمام فتبيّنت عدده ثم قالت (غ ١١ : ٣٦) :

ليت الحمامَ ليَهْ　　ونصفه　قَديَـهْ
الى　حمامتيـه　　تمّ　الحمـام　ميه

ثمّ ان النابغة الذبياني أخذ هذا المعنى فكرّره في شعر أمتن وبسطٍ أكثر ، فقال في معلّقته :

واحكم كحكم فتاة الحيّ اذا نظرت　　الى حمامٍ سِراعٍ وارد الثَمَد [2] ؛
قالت : ألا ليتما هذا الحمامُ لنا　　الى حمامتنا مـع نصفه فقد .
فحسّبوه فألفَوْه كما ذكـرت :　　تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تَزِدِ ؛
فكمّلت مائةً فيهـا حمامتُها　　وأسرعت حِسبَةً في ذلك العدد!

ان الشاعر الجاهلي قد استهوته المعادلة البسيطة :

$$\text{س} + \frac{\text{س}}{\text{٢}} + \text{١} = \text{١٠٠}$$

أما في الفلك فان لعربِ الجاهلية ملاحظاتٍ كثيرةً لا تدلّ على أن نفراً منهم كانوا على قسط من علم الفلك النظري والعملي فحسب ، جاءهم من جيرانهم في العراق على الأكثر . بل على أن جانباً من ذلك العلم كان شائعاً في الناس . لقد وقّت امرؤ القيس زيارته لحبيبته بقوله في معلّقته :

تجاوزت أحراساً اليها ومعشـرا　　عليّ حِراصاً لو يُسرّون مقتلي ،
اذا ما الثريّا في السماء تعرّضت　　تعرّض أثنـاء الوِشاح المفصّل .

ان امرأ القيس يخبرنا أنه لمّا جاء لزيارة حبيبته كان عنقود الثريا يبدو

(١) تاج ٦ : ٣٦٨ ؛ ... من ثلاثين ميلا (غ ٢ : ١٣٢) .

(٢) الثمد : الماء .

في السماء بأعرض جوانبه . ويبدو لنا أن تلك الزيارة كانت في الشتاء « لأن الثريّا في أول في الليل الشتاء تصير في كبد السماء . واذا كبّدت ( الثريا ) السماءَ صارت على قمّة الرأس »[1] . ويشير ابن قتيبة الى بيت امرىء القيس فيقول : « أراد ( امرؤ القيس بهذا البيت ) وقت مغيب الثريّا ، وعند ذلك تتعرّض . ( ان الثريّا ) اذا طلعت تستقبل الناظر بأنفها ، فاذا غربت ( صارت في الغرب ) تعرّضت ، أي تحرّفت كأنها جانحة ( مائلة ) كتحرّف ثني ( طيّة ) الوشاح اذا أُلقي . والوشاح خيط فيه خرز منظوم قد جُمع طرفاه فأسفله أوسع من أعلاه . وكذلك الثريّا »[2] .

ولمّا قال المتلمّس :

وقد أضاء سُهيل بعد ما هجعوا    كأنّه ضـرَم بالكفّ مقبوس !

كان يعرف النجم سهيلا ويعرف أنه كان وقتئذ أبعد ما يكون عن الشمس وأقرب ما يكون من الارض بدليل قوله « ضرم » ، أي شديد اللمعان ، وبقوله « بالكفّ مقبوس » أي قريب .

وكانت السماء الصافية في شبه جزيرة العرب تساعد العرب على ملاحظة الكواكب وعلى الاستدلال بها على الاتّجاه في السفر وعلى الاهتداء بها في ظلمات البرّ والبحر ، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك مراراً ، ففي سورة الانعام مثلاً[3] : « وهو الذي جعل لكم النجومَ لتهتدوا بها في ظُلُمات البرّ والبحر ، قد فصّلنا الآياتِ لقوم يعلمون » ( ٦ : ٩٧ أو ٩٨ ) .

وفي العقد الفريد[4] : قال الحارث بن ظالم الذُبياني لِتَبيعٍ ( خادم ) له اسمه خِراش ، ( وقد أراد أن يَنْجُوَ من خطر مُحْدق به ) : كُنْ

(١) كتاب الانواء ٢٤ .

(٢) كتاب الانواء ٢٤ — ٢٥ .

(٣) راجع أيضاً سورة النحل : « وبالنجم هم يهتدون » ( ١٦ : ١٦ ) ، الخ .

(٤) طبعة الاستاذ محمد سعيد العريان ( القاهرة ) ٦ : ٦ .



لي ( انتظرني ) بمكان كذا ؛ فإن طلع كوكب الصبح ( يَقْصِد الزُهَرة ) ولم آتِكَ ، فانظرْ أي البلاد أحب اليك فاعمد ( اهرب ) اليها .

وعرف العرب منذ الجاهلية النجوم بأسمائها ومواضعها ومطالعها ومغاربها وشيئاً من خصائصها وتمرّسوا بذلك كلّه في حياتهم حتى دَخلت أسماء النجوم في لغتهم وأمثالهم[1] وأسمائهم . ومن أطرف الامثال وأدلّها على دقّة الملاحظة قولهم : « أريها السها فتريني القمر ! » .

ان السها نجم خفيّ جداً يمتحن الناس به أبصارهم ، ولا يراه الا ذَوُو البصر الصحيح ومن الاماكن التي لا تكثر فيها رطوبة الجو . أما القمر فظاهر لكل انسان . والمثل يضرب لمن تحاول أنت أن تدلّه على دقائق الامور فلا يستطيع هو أن يرى الا الاشياء العامة الواضحة لكل انسان .

أما مكان السها أو السهى فهو الى الشمال الغربي من العِناق وهي الابن الاوسط من بنات نعش[2] .

وأسماء النجوم في اللغة العربية ، ومنذ الجاهلية أيضاً ، كثيرة جدّاً . وأسماء النجوم هذه مع كثير من الالفاظ العامّة في السماء والنجوم — هي التي أعطت الغربيين قاموسهم الفنّيّ في علم الفلك . ومع كثْرة الكلمات العلمية التي وُضعت للنجوم وأحوالها في اللغات الاوروبية ، فان أكثر من نصف هذه الالفاظ لا تزال عربية كما كانت ، أو محرّفة أو منقولاً معناها الى تلك اللغات الاوروبية .

ومما يدلّنا على انتساج الاسماء الفلكية في الحياة العربية العامة كثْرة أسماء الأشخاص المأخوذة من السماء ، منذ الجاهلية :

(١) راجع مثلا بلوغ الأرب للألوسي ٣ : ٢٣٧ بالاضافة الى كتب الامثال .

(٢) مجموعة الدب الاكبر قسمان : نعش ( السرير ) أو النجوم الاربعة التي ترى في رأي العين تؤلف المربع الذي تسميه العامة الركوة ، ثم بنات نعش ( جمع ابن نعش ) وهي ثلاثة نجوم أوسطها يسمى العناق ( راجع القاموس ٤ : ٣٤٦ ، ٣ : ٢٦٩ ، ١ : ٣٤١ ) . انظر شرح ذلك ايضاً في كتاب الأنواء ( ص ١٤٧ — ١٤٨ ) .

لقد سمّى الجاهليون عبّ شمس ( ضوء الشمس ) وبدراً وقمراً وقميراً وهلالاً والزبرقان ( بكسر الزاي : القمر ) ، وسَمَّوْا عُطارِدَ وزُهْرة وسمّوا سُهيلا والثُريا وسِماكا وغيرها كثيراً .

وحينما يخاطب القرآن الكريم العرب المعاصرين لنزوله بالإقسام بالنجوم يتبيّن لنا الاثر العظيم الذي كان للنجوم في حياة العرب كقوله تعالى :[1] : والنجم اذا هوى[2] ؛ فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيم ؛ فلا أقسم بالخُنّس ، الجواري الكُنّس [3] ؛ والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب [4] ؛ والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها .

وعرف العرب الكواكب الخنّس حتى أن الله تعالى خاطبهم في القرآن الكريم آبياً أن يقسم بها فقال تعالى[5] : « فلا أقسم بالخنّس الجوار الكنّس » . والخنّس هي الكواكب السيارة : زحل والمشتري والمرّيخ وعُطارد والزُهرة ، وقد عرف العرب هذه الكواكب بأسمائها العربية وبأسماء لها آرامية وفارسية . ويبدو أن المِرّيخ تعريب للاسم الآرامي ، كما أن العرب عرفوا المشتري والمرّيخ والزهرة بأسمائها الفارسية وهي[6] : البرجيس ( بكسر الباء ) وبهرام

(١) راجع القرآن الكريم ٥٣ : ١ ، ٥٦ : ٧٥ — ٧٦ ، ٨١ : ١٥ — ١٦ ، ٨٦ : ١ — ٣ ، ٩١ : ١ — ٢ .

(٢) النجم : الثريا . هوى : غاب « واذا سمعتهم يذكرون النجم من غير ان ينسبوه الى شيء فاعلم أنهم يريدون الثريا » (كتاب الأنواء ص ٢٤ ) .

(٣) الخنس : النجوم التي لا تغيب كالقطب وبنات نعش . والكنس الكواكب والنجوم التي تغيب . وقد يكون للكلمتين معان أخرى قريبة أو غير قريبة ( راجع القاموس تحت : خنس ، كنس ) .

(٤) الطارق : كوكب الصبح ( القاموس ٣ : ٢٥٧ ) . الثاقب : الشديد الضوء .

(٥) القرآن الكريم ، سورة التكوير ( ٨١ : ١٥ — ١٦ ) .

(٦) راجع كتاب الانواء لابن قتيبة ١٢٦ — ١٢٧ ، ١٢٨ ؛ نهاية الارب ١ : ٣٨ .



وأناهيد على التوالي . وكانوا يعرفون زُحَلَ باسم عربي صريح هو ( الطارق )[1] وباسم فارسي هو « كيوان »[2] .

وأدرك العرب أن عدداً من النجوم ثابت في السماء ( في رأي العين ) حتى جعلوا تلك النجوم الثابتة علامات دالّة على الاماكن والمساكن . وهذه الكواكب سمّيت ثابتة لا لأنها لا تتحرّك أبداً بل لأنها تظلّ دائماً على أبعاد معيّنة لا تتبدّل . قال النويري في نهاية الاب ( ١ : ٦٤ ) :

« وإنما سمّيت بالثابتة ، وان كانت متحرّكة ، لأنها ثابتة الابعاد ( فيما بينها ) على الأبد : لا يقرب أحدها من الآخر ولا يبعد عنه ولا ينقص ولا تتغير عن جهاتها لأنها تتحرّك بحركتها الطبيعية ، حول قطبي العالم ، ولهذا سميت ثابتة » .

وكان العرب في الجاهلية يُولون القمر اهتماماً شديداً لأنه كان يضيء لهم وجه الارض في أسفارهم وأسمارهم ولأن حركته كانت أبين الوسائل في حُسبان الأشهر والسنين . ولقد لاحظ عرب الجاهلية أن القمر يدور حول الارض مرة في كل ثمانية وعشرين يوماً أو نحو ذلك ، ثم لاحظوا أن القمر يكون في كلّ ليلة قريباً في رأي العين من أحد النجوم الثوابت ، فاتخذوا تلك النجوم الثوابت علامات لمسير القمر في فلكه حول الارض وسمَّوْها منازل أو بروجاً .

ولقد أشار الاعشى الى أن الناس يحسبون السنين بالقمر ، فقد قال[3] :

فَلَعَمْرُ مَن جعل الشهورَ علامةً   قَدْراً فبيّن نصفَها وهلالها[4] .

(١) القرآن الكريم ، سورة الطارق ، رقم ٨٦ ؛ زاجع نهاية الارب ١ : ٣٨ س .

(٢) كتاب الانواء ١ ، ٢ — ٣ ، راجع ١٢٢ — ١٢٣ .

(٣) شعراء الجاهلية قبل الاسلام ٣٧١ .

(٤) فلعمر من جعل : أقسم بالذي جعل ( بالله ) . الشهور جمع شهر : الهلال أو القمر ( القاموس ٢ : ٦٥ — ٦٥ ) .

والكلام على القمر ومنازله يقود الى الكلام على السَّنة عند عرب الجاهلية . كانت السنة الجاهلية سنة شمسية اختلفت أسماء شهورها مراراً قبل أن تستقرّ على الاسماء التي نعرفها اليوم باسم الاشهر القمرية . فالمحرَّم مثلاً ، وهو أول شهور السنة القمرية ، كان يدعى صَفَرَ الاول ، بالاضافة الى صَفَرَ الذي لا يزال الشهر الثاني من شهور تلك السنة .

على أنه يصعب علينا اليوم أن نعلم بالتدقيق متى كانت تبدأ السنة عند عرب الجاهلية . ولكن اذا اعتبرنا أن كلمة رمضان (ورمضان هو الشهر التاسع من الشهور القمرية) مشتقّة من الرَمَض ، وهو شدّة وقع الشمس على الرمل وغيره واشتداد الحر (القاموس ٢ : ٣٣٢) ، وجب أن يكون رمضان في السنة القمرية مقابلاً لشهر آب (أغسطس) في السنة الشمسية الحالية . غير أننا نرى في القاموس أيضاً (٢ : ١٣٩) أن ناجرا هو صفر أو رجب (الشهر السابع من السنة القمرية) أو كل شهر من شهور الصيف .

على أننا نستطيع أن نقول ، اعتماداً على طبيعة شبه جزيرة العرب أن زمان الحر فيها يطول ؛ فاذا اعتبرنا أن شهري جُمادى (جمادى الاولى وجمادى الثانية ، وهما الشهران الخامس والسادس من شهور القمر) يأخذان معناهما من الجماد وهو الارض أو السنة لم يصبها مطر ، (القاموس ١ : ٢٨٤) وجب أن يبدأ زمن الجفاف في نجد معَ جمادى الاولى ولا ينتهي إلاّ معَ انتهاء شوّال (الشهر العاشر) ، أي ستة أشهر . حينئذ يصبح ربيع الاول وربيع الثاني (الشهران الثالث والرابع) هما الشهرين اللذين يكون فيهما بدء الحر مع نزول المطر فيكثر فيهما العشب والخصب فيكون اسمهما حينئذ دالاً على طبيعتهما (راجع القاموس ٣ : ٢٥) . غير أن القاموس نفسه يذكر في الصفحة نفسها أن الربيع ربيعان : ربيع الشهور وربيع الازمنة . فربيع الشهور شهران بعد صفر : شهر ربيع الاول وشهر ربيع الثاني (الشهران الثالث والرابع) . وأما



ربيع الازمنة فربيعان أيضاً : الربيع الاول الذي يأتي فيه النَّور والكمأة (وهو الذي نسميه نحن اليوم فصل الربيع) ، والربيع الثاني الذي تُدرك (تنضَج) فيه الثمار (وهو الذي نسمّيه نحن اليوم الخريف) . ثم ان طول فصل الجفاف والحر في بلاد العرب اقتضى أن تجعل السنة ستّة أزمنة (أو فصول) كلّ زمن منها شهران ، كما يلي :

الربيع الاول (فصل الربيع)

الصيف (بدء الجفاف والحرّ)

القَيظ (اشتداد الجفاف والحرّ)

الربيع الثاني (بدء انكسار سَوْرة الحر وبدء سقوط المطر)

الخريف (في القاموس ٣ : ١٣٢) : ثلاثة أشهر بين القيظ والشتاء ؛ ويسقط في الخريف شيء من المطر) .

الشتاء (وهو زمن البرد ويبدأ المطر بدخول هذا الفصل) .

فاذا نحن اعتمدنا هذا التقسيم كان شهر صفر الاول في الجاهلية (وهو الذي سمي في الاسلام في الاغلب : المحرم) هو الشهر الاول في السنة القمرية مقابلاً للشهر الاخير في السنة الشمسية . غير أنه من المفيد أن نلاحظ أن الاشهر لم تكن موّحدة في الجاهلية ، بل كانت تختلف عموماً بين قبيلة وقبيلة كما كانت تختلف في القبيلة الواحدة بين مدة ومدة .

ونأتي الآن الى النسيء .

ان القمر يتم دورته حول الارض في نحو تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم ، بينما فصول السنة لا تستدير (لا تبدأ من جديد) الا في عام شمسي ، أي في ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً ونحو ربع يوم . من أجل ذلك تتراجع السنة القمرية عن العام الشمسي أحد عشر يوماً في كل عام ، أو شهراً واحداً في كل ثلاثة أعوام . ولاحظ عرب الجاهلية ذلك فكانوا يؤخّرون

صفر الاول الى صفر الثاني مرة كلّ ثلاث سنوات ، وعلى هذا تصبح كل سنة قمرية ثالثة ثلاثة عشر شهراً[1] .

ولكن بما أن الأيام الاحد عشْرة ليست الفرق الصحيح بين السنة القمرية والعام الشمسي ، فقد ظل التباعد بين السنتين مستمراً . ثم اضطرب الحسبان الجاهلي للسنة اضطراباً كبيراً .

والذي يبدو أن العرب تَلَقّوْا عن الكلدانيين أيضاً أقسامَ الزمن ، من ذلك مثلاً أن الاسبوع سبعة أيام ، والتسمية اللغوية دالّة على ذلك . وأيام الاسبوع تسمّى في اللغات السامية بترتيبها حسب تواليها ، فنحن نقول في العربية : الاحد ، الاثنين ، الثلاثاء ، الاربعاء ، الخميس لتسمية الأيام الخمسة الاولى من الاسبوع . ومع الايقان بأن هذه الاسماء لأيام الاسبوع يجب أن تكون قد عرفت في الجاهلية واستعملت ، فاننا لا نملك اليوم نصاً جاهلياً فيه هذه الاسماء العددية .

أما اليومان الباقيان فكانا يوم العَروبة ( القاموس ١ : ١٠٢ ) الذي جعله الاسلام يوم الجمعة في قوله تعالى في سورة الجمعة : « يا أيها الذين آمنوا ، اذا نُودِيَ للصلاة من يوم الجُمُعة فاسعَوْا الى ذكر الله وذَرُوا البيع ( ٦٢ : ٩ ) ؛ ثم يوم السبت الذي كان عرب الجاهلية يعرفونه بهذا الاسم بلا ريب ، لمقام اليهود بينهم . وقد ورد السبت سبع مرّات في القرآن الكريم عند الكلام على اليهود فحسب ، مما يدلّ على أن التسمية يهودية ولكنها كانت معروفة بين عرب الجاهلية .

### أيـــام الاسبوع[2]

السبت — شِيار ( بكسر الشين ، القاموس ٢ : ٦٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ) .

---

(١) وربما جعلوا كل سنتين خمسة وعشرين شهراً ( راجع نلينو ٨٩ ) راجع ايضاً نهاية الارب ١ : ١٦٥ — ١٦٧ .

(٢) من المزهر للسيوطي : ١ : ٢١٩ ، راجع ٤٥٩ .



الاحد — الاحد بمعنى الواحد ويوم من الايام ( القاموس ١ : ٢٧٣ ) .

الاثنين — أهْون ، الأهون اسم يوم الاثنين ( القاموس ٤ : ٢٧٨ ) .
وأهْوَد بوزن أحمد يوم الاثنين ( القاموس ١ : ٣٤٧ ) .
والاثنان والثِنى ( بكسر الثاء وفتح النون ) يوم في الاسبوع .
وجاء في الشعر يوم اثنين بلا لام للتعريف ( القاموس ٤ : ٣٠٩ ).

الثلاثاء — جبار ( بكسر الجيم أو بضمّها ) : يوم الثلاثاء ( القاموس ١ : ٣٨٥ ) .

الاربعاء — دبار ( بضم الدال أو بكسرها ) : يوم الاربعاء . وفي كتاب العين للخليل بن أحمد : ليلة ذلك اليوم ( القاموس ٢ : ٢٧ ) .

الخميس — مؤنس

الجمعة — عَروبة ( بفتح العين ) ، بلا لام للتعريف أو بلام التعريف يوم الجمعة ( القاموس ١ : ١٠٢ ) .

ولم يكن عرب الجاهلية يَعرِفون تقسيماً عددياً لليوم بالساعات ، بل سمّوا فَترات النهار والليل تسميات دالة على اختلاف النور والظلام بين الليل والنهار ، مثل الضّحى ( بعد مطلع الشمس ) ثم الهاجرة ( اشتداد الحر ) ثم الزوال ( وجود الشمس في نقطة من السماء يقع منها خط عمودي على الارض ) ثم العصر ثم الاصيل ثم الطَفَل ( حينما تخفّ حرارة الشمس قبيل المغيب ) ثم الغروب . وكان لفترات الليل عند عرب الجاهلية أسماء من هذا القبيل مثل الغَسَق والعَتْمة والفَحمة والمَوْهن ( منتصف الليل ) والقِطْع[1] . . .

---

(١) راجع نهاية الارب ١ : ١٣١ — ١٣٢ ، ١٤٧ — ١٤٨ ؛ راجع ايضاً تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ٥ : ٢٤٥ — ٢٤٧ .

### الانواء

المقصود بالانواء تبدّل الاحوال الجوية فيما يتعلّق بالحر والبرد وبالرياح والامطـــار .

وكان عرب الجاهلية يعتقدون أن الانواء مرتبطة بسقوط (غروب) منزلة من منازل القمر في المغرب (راجع منازل القمر، ص ٩٥). فالانواء كانت اذن عند عرب الجاهلية من توابع علم النجوم. ويحسن أن ندرس الجهات الاربع عند عرب الجاهلية قبل أن نتقدّم الى ذكر مهابّ الرياح وسقوط الامطار .

عدّ عرب الجاهلية الكعبة موضعاً وسطاً وجعلوا اليمن عن يمين مستقبل الكعبة (القاموس ٤ : ٢٧٨ — ٢٧٩) والشام عن شمال مستقبلها أو يساره (القاموس ٣ : ٤٠٢). والشرق عندهم بطبيعة الحال هو المكان الذي تشرق منه الشمس (في رأي العين) والغرب هو المكان الذي تغرب فيه الشمس (في رأي العين) أيضاً (القاموس ٣ : ٢٤٨ — ٢٤٩ ثم ١ : ١٠٩ — ١١٠).

فاذا نحن جعلنا الكعبة مركز تفرّع الجهات الاربع ثم استقبلنا بوجهنا مطلع الشمس : كان الشرق أمامنا (بلاد فارس)، والغرب وراءنا (مصر)، والجنوب عن يميننا (بلاد اليمن)، والشمال عن شمالنا أو يسارنا (بلاد الشام أو سورية). وهذا هو المدرك المألوف عندنا في الجهات الاربع.

ومهابّ الرياح موافقة للجهات الاربع : فالريح الهابّة من الشمال (من الشام والعراق) على نجد تكون باردة يصحبها أمطار وثلوج، وهي تسمّى ريح الشمال أو الريح الشآمية، ومكان هبوبها بالاضافة الى نجد ما بين مطلع الشمس (الشرق) وبنات نعش أو الشمال الشرقي في عُرفنا.

ومهب ريح الجَنوب من الجهة الجَنوبية الغربية. وهكذا تصل الريح الجنوبية الى نجد مارّة فوق الصحارى الوسطى في بلاد العرب فتكون



جافّة حارة. أما ريح الصَبا فتَهُبّ على نجد آتية من جبال ايران باردة، ولكنّها تمر فوق خليج البصرة فتلطُف وتصبح منعشة. ولقد أحبّ الجاهليون هذه الريح كثيراً. والدَبور هي الريح الغربية.

ويحسن أن نلاحظ أن خصائص هذه الرياح خاصةٌ بنجد، فريح الصبا التي شُغف بها أهل نجد (لأنها لطيفة عليلة منعشة، اذ تصل الى نجد من جبال ايران مارة فوق مياه خليج البصرة) يكرهها أهل الشام لأنها تصل اليهم شديدة الجفاف شديدة الحرارة لأنها لا تصل اليهم الا بعد أن تكون قد قطعت بادية الشام. والريح الشمالية تجلب المطر الى نجد بينما هي تطرد الغيوم من سماء الشام فلا يسقط المطر مع هبوب ريح الشمال في الشام أبداً.

### الكهانة والعرافة والعيافة والقيافة

ومن علوم الجاهلية الكهانة :

الكِهانة استعداد في أشخاص مخصوصين لاستخراج المغيّبات من الأمور الظاهرة. وكان الكاهن في الجاهلية شخصاً (رجلاً أو امرأة) على جانب كبير من الذكاء والاحاطة بمعارف زمنه فاكتسب بذلك وجاهة عند قومه وأصبح موضع ثقتهم يستشيرونه في أمورهم ويسألونه أن يخبرهم بالمستقبل أو أن يحكم بينهم في ما يختلفون فيه. وكانوا أحياناً يستطبّونه فيصف لأمراضهم أدويةً مِزاجية أو علاجاً روحياً هو أقرب الى السحر والشعوذة. على أن الكاهن كان يصيب أحياناً في ما يشير أو يحكم أو يصف.

وقريب من الكهانة العِرافة :

وبينما كان الكاهن يُسأل عن المستقبل كان العرّاف يُسأل عن الماضي. ثم ان العرّاف كان يَشْرَك الكاهنَ في كل شيء آخر، وفي تطبيب الامراض النفسية والمستعصية خاصة.

ويتّصل بالكهانة والعرافة فنٌّ هو العِيافة :

والعيافة هي التكهّن بالطير أو بغيرها من أنواع الحيوان . اذا اتّفق أن سُئل عرّاف عن أمر انسان فانه يَزْجُرُ ( يثير ، يطرد ) أول طائر أو حيوان يمرّ به ، أو يكتفي أحياناً بملاحظة طيران ذلك الطائر أو مسير ذلك الحيوان . فاذا كان ذلك الطائر مثلاً سانحاً أو سنيحاً ( مقبلاً ؛ عن يسار العائف الى يمينه ، أو من أمامه ، كان ذلك فألاً حسناً للسائل . وأما اذا كان الطائر بارحاً ، أي ماراً من يمينك الى يسارك ( القاموس ، ١ : ٢١٥ ) كان ذلك شؤماً على السائل .

وربما شق العائف بطن الطائر أو الحيوان ونظر الى أعضائه الداخلية كالقلب والكَبِد ورأى ما فيها من العلامات ( من الاعراض المَرَضية ) . فحالُ عضوِ الحيوان من التبدّل ( من الصحة والمرض ) كان يدلّ عندهم على حال السائل من البركة والشؤم ، ومن النجاح في السفر أو الخيبة ، ومن الشفاء من المرض أو الإعضال .

وهنالك القيافة . والقيافة هي تتبع آثار الانسان والحيوان للاهتداء الى الهارب من الانسان والحيوان ولمعرفة السارق الذي لم يخلّف وراءه إلاّ آثار قدميه . والبراعة في القيافة تقوم على تمييز الآثار اذا كان بعضها واقعاً فوق بعض ، ثم اكتشافِ شخصية صاحب الأثر من آثاره : اذا كان رجلاً أو امرأة ، شاباً أو شيخاً ، صحيحاً أو مريضاً ، مطمئنـاً أو خائفاً ، يحمل شيئاً أو لا يحمل شيئـاً ، الى آخر ما هنالك من وجوه الامكان .

وهنالك الفِراسة أيضاً ، وهي دراسة تفاصيل الوجه للاستدلال على النسب بين الافراد أو على أخلاق صاحب الوجه وعلى ما سيكون من أمره في المستقبل .





ونحن نجد في الشعر الجاهليّ آراء كثيرة تتَصل بالفلسفة الخالصة من نظرية المعرفة ومن السياسة في العدل والحرية والحلم والشورى والاخلاق . أما الحِكم العامة التي وردت في الشعر الجاهلي فكثيرة متنوّعة .

كان الحارث بن حلِزة يفتخر بأنه يَحدُس في كلّ الامور : يتطلّب المعرفة من غير طريق الحواسّ ؛ وذلك واضح في قوله ( المفضّليات ٥٣ ) :

فحبستُ فيها الركبَ أحْدُس في كل الامور ؛ وكنت ذا حَدْس !

ولطرفةَ بن العبد آراء في الاخلاق تقرب من أن تكون فلسفة وتقرب من آراء أرسطبّوس . انه يرى أنّ الغاية من الحياة هي اللذة الماديّة العاجلة ثم لا يُلقي بالاً الى موقف الناس منه في ذلك ، ما دام هو وحدَه سيتحمل نتائج سلوكه . قال في معلّقته :

فلولا ثـلاثٌ هنّ من لذّة الفتى ، وجدّك ، لم أحفِلْ متى قامَ عُوّدي .
فمنهن سبقي العاذلاتِ بشَربـة كُمَيتٍ متى ما تُعلَ بالماء تُزْبِدِ ؛
وكَرّي اذا نادى المُضاف مُحَنّبا كسِيد الغَضا ، نبّهتَه ، المُتورِّد ؛
وتقصيرُ يوم الدَجْن ، والدجن مُعْجِبٌ ، ببَهْـكَنَةٍ تحت الخِبـاء المُعَمّد
كريم يُرَوّي نفسَه في حياتـه مخافةَ شِربٍ في الممات مُصرّد .
وذرني وخُلقي ، انني لك شاكـر ولو حل بيتي نائياً عند ضَرْغَد .
وقالوا : ألا ماذا تَرَوْنَ بشارب شديدٍ علينا بغيُـه متعمّـد ؟
فقالوا : ذروه ، انما نفعُها لـه ؛ وإلاّ تردّوا قاصيَ البَرْك يزدد !

فطرفة يرى لذة الانسان في الخمر واكرام الضيف واللهو مع النساء ، يريد أن يتمتّع بهذه في الحياة لأنه لن يكون بعد الموت شيء من ذلك :

فذرْني أروي هامتي في حياتها : ستعلم ان متنا غدا أيّنا الصدى !

ويحب طرفة أن يسلك هذا السبيل ولو اضطرّ الى أن يعيش بعيداً عن

جميع الناس . ثم هو يرى أن اللوم لا يزيد المندفع في امر من الأمور إلا اصراراً .

وكان للجاهليين في الحرب رأي سياسي فِطريّ ، ولكنّه واضح . ان تتابع الغزو في البيئة الجاهلية حمل العرب على أن يعتقدوا أن الحرب هي السبيل الوحيد الى حلّ المشاكل وحسم الخلاف ؛ وكانوا يَرَوْنَ أن القبيلة العزيزة الجانب هي القبيلة التي تظلم غيرها من القبائل : تبدأها بالقتال ، أي تَغزو غيرها قبل أن يغزُوَها غيرُها . وعلى ذلك قول زهير في المعلّقة :

ومن لا يَذُدْ عن حوضه بسلاحه يهدّمْ ؛ ومن لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَمِ .

وقـال حرب بن مُسْعِر :

عطفت عليه المُهر عَطْفَـةَ بـاسلٍ كَمِيّ ؛ ومن لا يظلم الناس يظلم .

### الكتابة والابجدية

كانت الكتابة في العصر الجاهلي معروفة ولكن لم تكن مألوفة ، أي أنه كان في الجاهلية نفر يخطّون ويقرأون الخط ، غير أن معرفة القراءة والكتابة لم تكن منتشرة انتشاراً ملموحاً وخصوصاً في البادية* .

والادلّة على وجود الكتابة في الجاهلية كثيرة : ففي القاموس الوحْي الكتابة والرسالة (٤ : ٣٩٩) ، القلم : اليرَاعة اذا بُريت (٤ : ١٦٧) ، والزَّبور الكتاب ، والمِزْبر القلم (٢ : ٣٧) ، والألوك والألوكة (بفتح الهمزة) والمَألُك والمألُـكة (بفتح اللام) (بضم اللام) : الرسالة (٣ : ٣٩٣) ، والمِداد والنِقس : الحِبر بلغتنا (راجع ١ : ٣٣٧ و ٢ : ٢٥٦) ، والخط الكَتْب بالقلم وغيره (٢ : ٣٥٧) ، والصحيفة الكتاب

* راجع مقدمة ابن خلدون ٧٤٥ – ٧٤٦ .



(٣ : ١٦١) ، والمصحف وصحيفة المتلمّس مشهوران . والمُهْرَق (بضم الميم وفتح الراء ، وجمعها مهارق) : الصحيفة (٣ : ٢٩١) ، والقرطاس : الكاغِد (١ : ٣٣٣ ، ٢ : ٢٤٠) ، أيِ الورق . ومعظم هذه الالفاظ قد جاءت في الشعر الجاهلي :

قال طرفة في معلّقته : « وخدّ كقرطاس الشآمي ... » ؛ وقال زهير في معلّقته أيضاً : ألا أبلغِ الاحلاف عنّي رسالة .... يؤخّر فيوضَع في كتاب ... » . وفي معلّقة لبيد[1] : كما ضَمِنَ الوُحِيَّ (بضم الواو وكسر الحاء وتشديد الياء) سِلامُها (بكسر السين) ، يقصد الكتابة في الحجارة . وله البيت المشهور في معلقته أيضاً[2] :

وجلا السيولُ عن الطلول كأنهـا زُبُرٌ تُجِدّ متونَها أقلامُها .

ولما اختلف بنو بكر وبنو تغلب ثم اصطلحا عند عمرو بن هند كتبا عنده بينهم عهداً ، وذلك قول الحارث بن حِلِزّة (بكسر الحاء وتشديد اللام المكسورة) في المعلّقة :

واذكروا حِلف ذي المَجاز وما قُدْ دِمَ[3] فيه : العهودُ والكُفَلاء حَذَرَ الطيش والتعدّي ؛ **وهل ينـ قُضُ ما في المَهارق الأهواء !**

فبأي الاقلام كان يكتب عرب الجاهلية ؟ ما شكل الخط الذي كتبوا به ؟

لا سبيل اليوم الى معرفة ذلك ؛ غير أننا اذا درسنا تطوّر الخط العربي

(١) ديوان لبيد ٢٩٧ .

(٢) ديوان لبيد ٢٩٩ : أزالت السيول التراب عن الطلول ، فظهرت تلك الطلول وكأنها زبر (كتب) كان كاتبوها أو خطاطوها يجددون بري أقلامهم بين الفينة والفينة ، فتبدو صفحات من تلك الكتب واضحة مشرقة قوية (حينما يكون القلم جديد البري) كما تبدو صفحات اخرى من تلك الكتب مشعثة الخط غائمة ضعيفة (اذا كان القلم قد أصبح قديم البري) . وكذلك الطلول كان بعضها جديداً واضح المعالم وكان بعضها الآخر قديماً متهدماً غير واضح المعالم .

(٣) قدم (بضم القاف وتشديد الدال المكسورة) .

لم نجد من المعقول أن يكون العرب قد أخذوا الخط من القلم الحِمْيَري ( اليمني ) ولا من القلم العِبري لأنهما كانا يكتبان حروفاً منفصلة غير متّصلة . والاصوب أن يكونوا قد أخذوا الخط عن الآراميين الذين كانوا يكتبون الحروف متصلة ، يزيد يقيناً في ذلك أن الخط الاقدم في اللغة العربية كان يُدعى الكوفي .

والذي يبدو لنا أن الكتابة والخطّ في الجاهلية كانا على شيء من التطور والرقيّ مع شيء من النقط والشكل أيضاً ، على خلاف ما كان الاعتقادُ السائد الى وقت قريب[1] ؛ يؤكّد لنا ذلك قول معاوية بن مالك بن جعفر ابن كلاب ، في الجاهلية[2] :

فإنّ لهـا منازلَ خاويـاتٍ     على نملى وقفت بهـا الركابا ،
من الأجزاع أسفل من نميرٍ     **كما رجّعت بالقلم الكتابا**[3] :
**كتابَ محبّرٍ هاجٍ بصير     ينمقّه ، وحاذر أن يعابا**[4] .

## الطب والمداواة

عرَف عرب الجاهلية الطب معرفة جيدة فقدَ كان فيهم أطبّاء درسوا في فارسَ او في بلاد الروم واستفادوا من خبرتِهم بعقاقير بلادهم ، فان « الحارث بن كَلَدَةَ الثقَفي سافر ( في ) البلاد وتعلم الطب بناحية فارس

(١) راجع في ذلك مناقشة طيبة مستفيضة في كتاب مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية لناصر الدين الاسد ( مصر ١٩٥٦ ) ، ص ٥٩ — ١٠٠ .

(٢) المفضليات ( دار المعارف ، مصر ) ، ص ٣٥٧ — ٣٥٨ ( القصيدة رقم ١٠٥ ، الابيات ٦ — ٨ ) .

(٣) رجع : تأنى في الكتابة ، كما تفعل الواشمة حينما تشم بالابرة والاثمد على جلد البدن علامات ورسوماً .

(٤) المحبر : الذي يقصد الى التحسين والتجميل . وفي القاموس ( ٢ : ٣ ) : « وتحبير الخط والشعر وغيرها تحسينه » . هاج : مفصل للحروف مبين لها ، والهجاء تقطيع اللفظ بحروفه ( القاموس ٤ : ٤٠٣ ) .



وتمرن هناك وعرف الداء والدواء . وكذلك النَضْر بن الحارث بن كَلَدة نشأ طبيباً كأبيه فقد سافر في البلاد واجتمع مع الافاضل والعلماء بمكة وغيرها وعاشر الاحبار والكهنة واشتغل وحصّل من العلوم القديمة اشياءَ جليلة القدر واطّلع على علوم الفلسفة واجزاء الحكمة وتعلم من ( ابيه ) ايضاً ما كان يَعْلَمه ابوه من الطبّ . وكان للجاهليين براعة في الجراحة وامراض العين .

ولقد كان هناك نوعٌ آخر من التطبيب بالرُقَى والعزائم يقوم به الكهنة والعرّافون ؛ ولا ريب في ان هذا النوع الذي شاع في بلاد كثيرة كان شعوذة او كالشعوذة .

ولما وصف طرفة بن العبد الناقة في معلّقته بستة وثلاثين بيتاً فيها كثير من الدقّة والتفصيل ، كان بلا ريب قد لاحظ أموراً كثيرة من تشريح الحيوان : لقد أصاب وصف جمجمة الجمل ( بالعلاة : السّندان ) وأدرك أن الجمجمة مؤلفة من أقسام من العظام يمسك بعضها ببعض لأن أطرافها مسنّنة متداخلة . وكذلك وصف طرفة القلب بأنه أحذّ ( ضامر ) ململم ( مجتمع ومدور ومضموم ) كمرداة صخر ( قاس كالحجر الذي تكسّر به سائر الحجارة ، وهو الفِهر الذي تدق به الاشياء فتكسر ويكون ملء اليد ) مصمّد ( ملفوف في مثل الخِرقة او المنديل ) في صفيح ( في سماء ، أي معلّق ) ، وذلك قوله في المعلقة :

وجُمجمة مثل العلاة كأنمـا     وعى الملتقى منها الى حرف مبْرَدِ .
وأروعَ نبّاضٍ أحذَّ ململمٍ     كمِرداةِ صخرٍ في صَفيحٍ مُصَمّد !

ان هذه الاوصاف لا تدل على ملاحظة عارضة عابرة ، بل على مشاهدة عاقلة ودرس دقيق ليس من نطاق الشعر ، بل هو بعلم الطب ألصق .

على أن تاريخ المداواة في الجاهلية كان أمراً آخر .

ان البادية أرض شظَف لا أرض ترف . حتّى الحجازُ ، وهو بلاد

حضَر لا بلاد بدْو ، قاحلٌ غيرُ ذي زرع . من أجل ذلك كان عرب الجاهلية عامة وأهل البادية منهم خاصة أكثَرَ احتمالاً للحِرمان وللمجاعات وأقل تعرّضاً للامراض الحائلة من الطعام والشراب . والقول المأثور : « المَعِدة بيت الداء ، والحِمية رأس الدواء ؛ وأصل كل داء البطنة ، وهي ادخال الطعام على الطعام » قول واضح في ذلك . على أن المتعرّضين للجراح كانوا في الجاهلية أكثر من المتعرّضين للامراض العادية لطبيعة الحياة الجاهلية القائمة في البادية على الغزو والثأر . ثم ان الامراض في البادية يجب أن تكون أقل عدداً وخطراً من الامراض في الحضر . ان اتّساع الافق في البادية وتفرّق المساكن واشتداد الحر في النهار الى خمسين أو ستين درجة ثم هبوط تلك الحرارة في الليل الى عشرين درجة أو ثلاثين تحت الصفر حيناً آخر مع الجفاف البالغ لا تساعد على حياة الجراثيم وتكاثرها بخلاف حال المدن المكتظة بالسكان والمحجوبة في أكثر أجزائها عن نور الشمس وتخلّل الريح ، مع الرطوبة . من أجل ذلك لم تكن الحاجة في البادية الى الطب والتطبيب كالحاجة إليه في المدن .

وكان الطبيب يبدأ بالنظر الى وجه المريض وبجس يده ، وذلك قول عنترة :

يقول لك الطبيب : دواك عندي ، اذا ما جسّ كفّك والذراعا !

وقد وصف ابن خلدون طب البادية فقال ( المقدمة ٩١٨ ) :

« وللبادية من أهل العُمران طب يبنونه في غالب الامر على تَجْرِبة قاصرة على بعض الاشخاص ، ويتداولونه مُتوارَثاً عن مشايخ الحيّ وعجائزه ؛ وربّما يَصِحّ منه البعض ، الا أنه ليس على قانون طبيعي ولا عن موافقة المِزاج » . ان الطبيب الجاهلي في البادية كان يُداوي بما له من الذكاء ومن الاختبار من غير رجوع الى قواعد ثابتة أو علم منظّم .

أما دستور الطب في الجاهلية فنستطيع أن نَلْمَحه في محاورة الحارث



ابن كَلَدة لكِسرى أنوشروان . ومع أن الحارث بن كلدة[1] قد عرف شيئاً من علم الطب المزاجي ، لأنه كان طبيباً حضرياً ، ومع أن هذه المحاورة يمكن أن تكون منحولة للحارث جملة أو في بعض أقسامها فقط ، فانّها قريبة جدّاً مما يمكن أن يكون طبّاً بدائياً . وتتلخص أجوبة الحارث في ما يلي ( طبقات الاطبّاء ١ : ١١٠ – ١١٣ ) :

أصل التطبيب الامر بالجوع والحِمية ( الامساك عن كل الطعام أو عن بعضه ) ، والرجوع بالاجسام الى ما كانت قد تعوّدته في أيام صِحّتها من المأكل والمشرب والراحة والعمل . والجاهل أكثرُ حاجةً الى عناية الطبيب من غير الجاهل . وعلى الطبيب أن يُداريَ المريضَ الجاهل حتّى يحمله على قَبول المداواة . والداء الدويّ هو ادخال الطعام على الطعام ، فهو الذي يُفني البَريّة ويهلك السباع في جوف البَرِّيّة . والتُخمة ان بقيت في الجوف قتلت ، وان تحلّلت ( هضمت وتفرّقت في البدن ) أسقمت . وتكون الحجامة ( استخراج الدم من العروق ) في نقصان الهلال ( في النصف الثاني من الشهر القمري ) في يوم صحو لا غيم فيه والنفس طيّبة والعروق ساكنة لسرور يفاجئك وهمّ يباعدك . ولا يجوز أن يدخل الرجل الحمّام وهو شبعان أو يغشى أهله ( يلامس امرأته ) وهو سكران أو يقوم بالليل وهو عريان أو يأكل وهو غضبان .

وقال الحارث : ارفق بنفسك يكنْ أرخى لبالك ، وقلّل من طعامك يكن أهنأ لمنامك . وأما الدواء ، فما لزمتك الصحة فاجتنبه ، فان هاج ( بك ) داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ( أي ابدأ المداواة مع أول المرض ) . ولا تشرب الشراب ( الخمر ) صِرفاً فيورثك صُداعاً ويثير عليك من الادواء أنواعاً . وأفضل اللُحمان لحم الضأن الفتيّ . والقديد ( اللحم المجفف المالح ) مهلك لآكله . وكُلِ الفواكهَ في إقبالها وحين أوانها ، واتركها اذا

(١) راجع شيئاً من ترجمته ، ص ١٠٦–١٠٧، ١١٤ .

أدبرت وولّت وانقضى زمانها. وخير الفواكه الرُّمّان والأُتْرُج وأفضل البقول الهندباء والخسّ. والماء حياة البدن وأفضله ما كان من الأنهار العظيمة بارداً زُلالاً (صافياً) لا طعم له ولا لون، فيجب أن يُشرب منه بقَدْر، وشربه بعد النوم ضرر.

واذا زاد الدم في الجسم وجب اخراجه، واذا سخن وجب ان تُطفأ حرارته بالاشياء الباردة اليابسة. والحقنة تنقّي الجوف وتكسح الامراض. وان الجهل كلّ الجهل أن يأكل الانسان ما قد عَرَف مضرّته مؤثراً لشهوته على راحة بدنه. والحمية هي الاقتصاد (الاعتدال) في كل شيء. وكثرة غَشَيان النساء رديء.

وقال الحارث: من أراد البقاء، ولا بقاء للانسان، فليجوّد الغذاء وليأكل على نقاء وليشرب على ظماء وليُقِلّ من شرب الماء ويتمدّد بعد الغداء ويتمشّ بعد العَشاء ويعجّل العَشاء ويباكر الغَداء وليخفّف الرداء وليقلّ غشَيان النساء، ولا يبتْ حتى يَعْرِض نفسه على الخلاء.

ونصح الحارث بأن لا يتداوى أحدٌ ما احتمل بدنه الداء، فان الدواء لا يُصلح شيئاً الا أفسد مثله.

وداوى عرب الجاهلية بالرُّقى والعزائم والتمائم. ولا ريب في أن هذه تنفع في بعض الاحوال النفسية اذا كان مرض المريض وهماً أو اضطراباً، وكان هو يعتقد النفع في هذه الرقى والعزائم. أما في الامراض والادواء الجرثومية فليس لهذه الوسائل أثر. ويبدو أن هذه الوسائل لم تكن تجدي حتى في بعض الاحوال النفسية. قال عُروة بن حِزام في مَعْرِض الكلام على حبه لعفراء[1]:

جعلت لعرّاف اليمامة حُكْمَه وعرّاف حِجْرٍ ان هما شفياني.
فما تركا من حيلة يعلمانها ولا رُقْيَة الا وقد رَقَيَاني.

(١) النصف الاول من كتاب الزهرة ٣٣٣.



فقالا: شفاك اللهُ؛ واللهِ، ما لنا بما حُمِّلَتْ منك الضلوع يدان[1]!

ومع أن عروة بن حزام من شعراء الاسلام في العصر الاموي، فان أبياته هذه دالّة على مألوف الجاهليين في ذلك.

وكذلك كان الجاهليون يُجرون العمليات البسيطة لقطع شيء زائد في ظاهر البدن. وكانوا لا يعرفون من وسائل التعقيم الا حَمْيَ السكين بالنار.

وكان الجاهليون يداوون، اذا لم ينجح في المريض علاج، بالكيّ؛ ومنه المثل: آخر الدواء الكيّ. والكيّ (بفتح الكاف) حرق بقعة صغيرة من الجلد بوساطة حديدة محميّة بالنار. بعدئذ يترك مكان الكيّ مفتوحاً بأن يوضع فيه حبّة من حِمَّص مثلاً. وكان الجاهليون يعتقدون أن أسباب المرض تخرج مع الصديد الذي يخرج من مكان الكيّ. وكان الانسان والحيوان يداويان بالكيّ.

وكان الكيّ أيضاً باباً من أبواب التجربة الفطرية في الجاهلية، ولم يكن مضمون الاثر ولا موثوقاً في التجربة. كان مسافر بن أبي عمرو بن أمية جاهلياً متأخراً في الزمان، وكان ينادم عمرو بن هند. أُصيب مسافر بالاستسقاء[2] فأشار عليه الاطبّاء بالكيّ، فلم يزده ذلك الا ثقلاً؛ ثم مات (غ ١٥ : ٥٠).

ولا ريب في أن عرب الجاهلية كانوا يَعرفون عوارضَ للامراض لا يبرأ صاحبها، كالصُداع الدائم الذي لا يُعرَف سببه، فقد قال عنترة في مجال الفخر والحماسة مع التهكّم:

وسيفي كان في الهيجا طبيباً يداوي رأس من يشكو الصُداعا!

وقريب من ذلك قول أوس بن حَجَر:

(١) راجع الاغاني وفوات الوفيات ٢ : ٤٤. وعراف اليمامة رباح بن عجلة، وعراف نجد الابلق الاسدي (بلوغ الارب ٣ : ٣٠٧). وفي رواية كتاب الزهرة «حجر».
(٢) السقي والاستسقاء ماء يقع (ينشأ ويتجمع) في البطن (القاموس ٤ : ٣٤٣).

فهل لكمُ فيها إليّ ، فانني    طبيب بما أعيا النطاسيّ حِذْيَما[1] .

وتعوّد العرب في الجاهلية التكحّل بالإثْمِد (وهو معدنٌ أسودُ قابضٌ يدفع عن العين الالتهاب ويشد عضلاتها ) .

ولا ريب في أن الجاهليين عُنوا بالجراح وتضميدها ومداواتها لكثرة حاجتهم الى ذلك في الحروب ؛ كما عرفوا كثيراً من أمراض الحيوان[2] .

عرف العرب في الجاهلية عدداً من الامراض منها (راجع بلوغ الارب ٣ : ٣٣٩ — ٣٤٠ ) :

الحُمّى عامّة ، وحمّى الغِبّ (بكسر الغين ) التي تصيب المريض يوماً وتتركه يوماً (القاموس ١ : ١٠٨ ) ، وحمّى الربع (بفتح الراء ) التي تصيب ربعاً (بكسر الراء ) : تصيب المريض يوماً ثم تتركه يومين ثم تعود اليه في اليوم الرابع (القاموس ٣ : ٢٤ ) . وعرفوا الزحير (الزنطاريا ) أو الزحار (بضم الزاي ) ، وهو استطلاق البطن بشدّة وتقطيع في البطن يمشي دماً (القاموس ٢ : ٣٨ ) ، والاسر (بضم الهمزة ) : احتباس البول (قا ١ : ٣٦٤ ) ، والحصر (بضم الحاء ) : احتباس البطن (قا ٢ : ٩ ) أو الامساك الشديد ، والسل (بكسر السين أو ضمّها ) أو السلال (بضم السين ) وهو قرحة تحدث في الرئة (قا ٣ : ٣٩ ) . وكذلك عرفوا الدّبلة ؛ واليرَقان وهو داء (قا ٣ : ٢٩١ ) يصفرّ منه المريض .

وعرف الجاهليون من الامراض أيضاً الكُباد (بضم الكاف ) وهو وجع الكَبِد (قا ١ : ٢٣٢ ) من كسل فيه أو من قرحة فقال مجنون ليلى :

ولي كبد مقروحة ، من يبيعني    بها كبداً ليست بذات قروح .

---

(١) ابن حذيم وحذيم والحذيم (كلها بكسر الحاء وسكون الذال وفتح الياء) رجل متطبب من بني تيم الرباب (القاموس ٤ : ٩٣ — ٩٤ ) .

(٢) راجع في معلقة النابغة : « ... شك المبيطر إذ يشفي من العضد » ، ثم راجع كتاب الحيوان للجاحظ .



اباها عليّ الناسُ لا يشترونها .    ومن يشتري ذا عِلّة بصحيح !

والقُلاب (بضم القاف ) داء القلب ؛ والقلبة (بفتح ففتح ففتح ) داء للقلب وتعب ، والمصاب به مقلوب (قا ١ : ١١ ) ومفؤود (قا ١ : ٣٢١ ) . والمعود هو الذي ذَرِبت (فَسَدت ) مَعِدته فلم تستمرىء الطعام (قا ١ : ٣٣٨ ) .

وقد عرّفوا المرض بالحصى بأنه « اشتداد البول في المثانة حتى يصير كالحصاة (قا ٤ : ٣١٨ ) .

على أن الجاهليين ، كأكثر الشعوب القديمة ، وكأكثرنا الى اليوم ، قد عُنُوا جداً براحة المريض وبسكوته عن الشكوى آنيّا ولو أضرّ به ذلك ضرراً كبيراً دائماً . جاء في الاغاني (١١ : ٢٩ ) : «كان ملوك العرب اذا مرض أحدهم حملته الرجال على أكتافها يتعاقبونه ، فيكون كذلك على أكتاف الرجال لأنه (لأن حمله ) عندهم أوطأ من الارض » .

وعرف العرب أن الجَرَب ينتقل بالعَدوى من الإبلِ الجَرْبى الى الابل الصحيحة ، فكانوا يُعبّدون الابل (يَهْنَأُونها ، أي يَطْلُون أماكن الجرب في جلدها بالقطْران ) ثم يَعزِلونها عن الابل الصحاح . بعدئذ يكوُون الابلَ الصحاح (بالنار ) كأنما كانوا بذلك يلقّحونها ضد الجرب . ففي المعنى الاول قال طَرَفة في معلّقته :

... الى أن تحامتني العشيرة كلّها    وأُفرِدت إفراد البعير **المُعبَّد** !

وفي المعنى الثاني يقول النابغة :

حمّلْتَ عليّ ذنبه وتركته    كذي العُرّ يُكوى غيرُه وهو راتع[1] .

*

ومن أطبّاء العرب الجاهليين ابن حِذْيم أو حذيم الذي مر ذكره[2] .

---

(١) حملت علي ذنبه : عاقبتني بالذنب الذي ارتكبه غيري . العر (بالضم ) : الجرب .

(٢) راجع فوق ص ١٢ .

ومنهم زينب طبيبة بني أَوْد ، وكانت بارعة في التكحيل ( مداواة العين ) عارفة بالأعمال الطبية وبالجراحة .

وأشهر أطبّاء العرب الحارث بن كَلَدة ( بفتح الكاف واللام والدال ) ابن عمرو بن عِلاج ( بكسر العين ) أحد بني ثقيف من أهل مدينة الطائف . كان الحارث بن كلدة قد تعلّم الطب في فارس على يد جماعة من أهل جنديسابور وبرع في الطب ومارس الطب في فارس نفسها وجمع مالاً كثيراً ، ثم عاد الى الطائف . وعاش الحارث حتى أدرك معاوية[1] .

ومنهم النَضْر بن الحارث بن كلدة ابن خالة رسول الله . تعلم النضر الطب من أبيه ثم تطوّف بالبلاد ودرس الفلسفة والطب . الا أنه كان شديد العداء لرسول الله وقد حارب المسلمين في معركة بدر ، في سنة ٢ هـ ( ٦٢٤ م ) . وأُسِر النضر في أعقاب المعركة فأمر الرسول بقتله فضرب عليّ بن أبي طالب عنقه بالسيف[2] .

ومنهم ابن أبي رمثة ( بكسر الراء ) التميمي ، وقد كان على عهد رسول الله . كان ابن أبي رمثة قليل العلم بالتطبيب ، ولكنّه كان مزاولاً لأعمال اليد والجراحة بارعاً في ذلك[3] .

### الغناء

يبدو أن الغناء الجاهلي الاول كان الالقاء الذي تقتضيه قراءة الشعر من بحر الرجَز أبسط أهون أوزان الشعر العربي وأقدمها في الاغلب ، حتى « زعم الخليل بن أحمد أن الرجز ليس بشعر وأنه أنصاف أبيات وأثلاث » ( القاموس ٢ : ١٧٦ ) .

(١) القفطي ١١١ ؛ طبقات الاطباء ١ : ١٠٩ — ١١٣ ؛ القاموس ١ : ٣٣٣ ؛ ابن جلجل ٥٤ .
(٢) طبقات الاطباء ١ : ١١٦ ؛ رمثة بالكسر ( القاموس١ : ١٦٨ ) ؛ ابن جلجل ٥٨ .
(٣) طبقات الاطباء ١ : ١١٣ — ١١٥ .



ويذكر مؤرّخو الادب أن الغناء أصله الحُداء ، وأن غلاماً كان يسير مع مولاه في قافلة فغضب عليه مولاه وضربه وعضّ اصبعه ، فمشى الغلام وهو يقول : دى دى ، أي يا يدي . فطربت الابل وسارت على صوته سيراً سريعاً ... فهذا أصل الحُداء ( القاموس ٤ : ٣٢٩ — ٣٣٠ ) .

قد تكون هذه الرواية صحيحة أو غير صحيحة ، ولكن المهم أن الغناء قديم جدّاً ولا يحتاج الى مثل هذه الحادثة حتى يبدأ . ذكر ابن خلدون الغناء الجاهلي فقال ( المقدمة ٧٦٤ — ٧٦٥ ) : « وربّما ناسبوا ( أي الجاهليون ) في غنائهم بين النَغَمات مناسبة بسيطة ... وكان أكثر ما يكون ( ذلك ) منهم في الخفيف الذي يُرقَص عليه ويُمشي بالدُّفّ والمِزمار فيُطْرِب ويستخفّ الحلومَ . وكانوا يسمّون هذا ( الغناء ) الهَزَج ... وهو في التلاحين من أوائلها ، ولا يبعُد أن تتفطّن له الطباع من غير تعليم شأنَ البسائط كلّها من الصائع » .

فعرب الجاهلية ، اذن ، كان عندهم غناء كالذي كان عند جميع الشعوب الفطرية . ولكن يبدو أن الغناء الساميّ عموماً ، العربي منه وغير العربي ، كان أقلّ تطوّراً من الناحية الفنية في صنع الآلات وتفصيل قواعد الغناء مما كان عند الروم والفرس .

والغناء العربي في الجاهلية تطوّر باحتكاك العرب بالفرس خاصة ، فأسماء مراتب الغناء وأسماء آلات الغناء فارسية في الاكثر . ثم هنالك نصوصٌ على أن العمّال الفرس الذين كانوا يعملون تكسّباً للرزق في الحجاز قد طعّموا الغناء العربي بشيء من قواعدهم وألحانهم[1] . ان الطُّنبور — وهو آلة موسيقية فارسية ، والكلمة نفسها معرّبة ( القاموس ٢ : ٧٩ ) — ظل موجوداً بقواعده هذه الى أيام الفارابي[2] على الاقل .

(١) راجع الاغاني ١ : ٣٧٨ — ٣٧٩ ( في أخبار ابن محرز ).
(2) Farmer 15 .

وفي الجاهلية نفسها حدث تطوّر في الغناء ، وفي الحُداء نفسه : لقد نشأ النَّصْب ( بفتح النون ) ، وهو ضرب من مغاني العرب أرقّ من الحُداء ( القاموس ١ : ١٣٢ ) . والملموح أن الحادي أصبح يُدخل في حُدائه عُنصراً شخصياً يُخْرِجُ حداءه عن المألوف الذي كانت النَغَمات فيه قريباً بعضها من بعض .

وكان الغناء في الجاهلية قاصراً على النساء ، وعلى الجواري المملوكات منهن خاصة ، كما كان فردياً في الاكثر : مرتجلاً أو مُعَدّاً . ولم يكن في الجاهلية غناء جَماعيّ اذا عنينا أن الغناء الجماعي إنما هو في التأليف بين الالحان من آلات موسيقية متعدّدة متماثلة ومختلفة . أما اذا أردنا به غناء المغنّيات اللواتي كنّ يغنين في مجلس واحد مع شيء من الترافق فاننا نجده في الجاهلية .

يكون الغناء مفرداً تقوم به مغنّية واحدة ، كما قال طرفة في معلّقته :

ندامايَ بيض كالنجوم وقَيْنـــة  تروح علينا بين بُـــرد ومجسد[1] ،
رحيب قِطاب الجَيْب منها رقيقة  بجسّ الندامى بضّة المتجرّد[2] .
اذا نحن قلنا : أسمعينا انبرت لنا  على رِسلها مطروفةً لم تَشدّد[3] .

(١) القينة : الفتاة المغنية والتي تؤنس الرجال . تروح علينا : تسير بيننا وتخدمنا . البرد ( بالضم ) : ثوب مخطط يلتحف به . المجسد ( بضم الميم وسكون الجيم وفتح السين ) : ثوب مصبوغ بالزعفران ( أصفر اللون ) . ومجسد ( بكسر الميم وسكون الجيم وفتح السين ) : ثوب ( يلبس مما يلي الجسد ) .

(٢) رحيب : واسع . قطاب ( بكسر القاف ) مجمع الجيب . والجيب ( بفتح الجيم ) مدخل العنق في الثوب . رقيقة : ناعمة الملمس . الجس : المس باليد والتفحص . البض الطري . المتجرد : الحال التي يكون الشخص فيها خالعاً ثيابه .

(٣) أسمعينا : أنشدينا ، غني لنا . انبرت لنا : اعترضتنا ، تصدت لنا ( استجابت لنا بسرعة ) . على رسلها : على مهلها ، برفق وتوءدة ولين ( من غير تكلف ولا ابطاء ) . لم تشدد ( تتشدد ) : لم تبخل ؛ لم تنازع نفسها في التهيؤ للغناء .



اذا رجّعت في صوتها خلتَ صوتهـــا  تجاوب آظار على رُبَع ردى[1] .

ان هذه القينة التي كانت تغنّي في المجلس الذي شهده طرفة كانت مغنّية ومُتزيّنة للرجال في وقت واحد ممّا يدلّ على عادات الناس في الغناء الحضريّ .

ويمكن أن نرى العنصر الفارسي بارزاً في أدوات الغناء على الاقلّ ، قال الاعشى :

ومستجيب تخال الصَنْـــج يسمعه  اذا ترجّع فيـــه القَينة الفُضُلُ .

أولاً : ان الصنج شيء ( آلة موسيقية ) يتّخذ من صفر[2] يضرب أحدهما على الآخر[3] ، وآلة بأوتار يضرب بها ( وهو ) معرّب ( القاموس ١ : ١٩٧ ) .

ثانياً : ان المعنى الظاهر للبيت : هنالك على الاقل آلتان تتجاوبان في العزف : تسكت آلة لتستأنف الثانية ، أو تعزفان معاً . وهذا يدل على غناء جَماعيّ متطور . وكان الغناء الجماعي الفطري معروفاً في الجاهلية ، لا شكّ في ذلك ، نعرفه في التلبية والتهليل في الحجّ ونعرفه في مقطعات من الشعر كانت تنشد للحماسة في الحرب ، من ذلك مثلاً :

نحن بناتِ طارقِ  نمشي على النمارق ؛
ان تَهزموا نعانق ،  أو تُهزموا نفارق ![4]

(١) رجعت : كرت أو كررت الصوت في حلقها ، أو أعادته مرة بعد مرة ( بألحان مختلفة ) . التجاوب : رد شخص على آخر في الاصوات ( يقول الاول ويسكت فيجيبه الثاني ، فاذا سكت الثاني عاد الأول الى الرد ) . آظار جمع ظئر : المرضع ( ذات الطفل ) من الانسان والحيوان . الربع ( بضم الراء وفتح الباء ) الصغير من الغنم والابل ( في الأصل : الغنم والابل في السنة الرابعة أو الخامسة ) . ردٍ ( بفتح الراء وبكسرتين على الدال ) : ميت ـ يقصد الشاعر أن صوت هذه المغنية حنون كصوت الناقة التي ترغو حزناً على فصيل أو بكر ( بفتح الباء : جمل صغير ) لها مات .

(٢) الصفر بضم الصاد وسكون الفاء : الشبه ( بفتح الشين والباء ) : النحاس الاصفر .

(٣) أداتان كالصفحتين تضرب إحداهما بالأخرى .

(٤) النمارق جمع نمرق ونمرقة ( بضم النون والراء فيهما ) : الوسادة الصغيرة . نمشي على النمارق ( كناية عن النعمة والترف ) . نعانق : نستجيب لواجب الزوج علينا ( كان النساء يخاطبن أزواجهن بهذا الرجز ) . نفارق : نبين ، نترك ، نطلق ( أزواجنا ) .

# الدّعوةُ الإسلاميّةُ
# والحياةُ الجديدةُ

**مبعث رسول الله**

بينما كان العرب على ما وصفنا في الفصول السابقة بَعَثَ اللهُ تعالى محمّدَ بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم رسولاً الى قومه خاصّة والى الناس كلّهم عامّة . وقد اختاره الله ليبلّغَ الرسالة الى الناس للمرّة الاخيرة ، فمحمّدٌ رسول الله خاتَمُ الرسل وآخِر من اتّصل به خبرُ السماء الى الارض .

والرُسلُ عامّة لا يُختارون إلاّ من الافراد النابهين : من ذوي العقول النيّرة والعزيمة الماضية والاخلاق الكريمة ومن ذوي المكانة في أقوامهم ؛ وعلى هذا قول الله تعالى : « وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا : لن نُؤمِنَ حتّى نُؤتى مِثلَ ما أُوتيَ رُسُلُ الله ؛ **اللهُ أعلم حيثُ يجعل رسالتَه ...** » ( الانعام ، ٦ : ١٢٥ ) .

ولقد اجتمع ذلك كلّه في محمدِ بن عبدالله . وكذلك بُعِثَ محمّدٌ رسول الله ، وقَوْمُه قريش وآله بنو هاشم في قوّة ومنَعة وسُلطان بين العرب ؛ يدلّنا على ذلك أن العرب لمّا ضاقوا برسالة محمّد رسول الله وأرادوا قتله هابت كلّ قبيلة أن تقتله خوفاً من أن يَثْأرَ منها آلُه



وقومه فاتّفقت القبائل على أن تَختارَ كلُّ قبيلة منها رجلاً قويّاً ثمّ يهجم هؤلاء الرجال على محمّدٍ رسول الله هجمةَ رجلٍ واحد فيقتلونه فلا يُعرَف حينئذ قاتله علـى التعيين ويضيعُ دمُهُ في القبائل ويَعْجِزُ حينئذ آل الرسول وقومه عن الثأر من جميع قبائل العرب مرّة واحدة . فلو لم يكن آل الرسول وقومه في ذلك الحين ذوي قوّة وسلطان لَما أرادت القبائل أن تدبّر هذا الأمر على هذا الشكل . ثمّ إن القبائلَ هابتْ أن تُنفّذ ما كانت قد عزمت عليه .

**الإسلام**

الاسلام دين الله الذي جدّده لعباده للمرة الأخيرة في تاريخهم . ولقد جاء الاسلام على يد محمّد رسول الله يجدد للناس الحقّ والخير الذي جاء به الرسل من قبل ثمّ غفَل الناس عنه أو ضلّوا عنه او عاندوه لأنّه كان مخالفاً لأهوائهم الآنيّة ومصلحتهم الماديّة . ثمّ جاء الاسلام بأمور جديدة اقتَضَتْها الاحوالُ التي استجدّت للناس بعد بِعثة عيسى عليه السلام . وعلى هذا جاء الاسلام ناسخاً لجميع الشرائع التي سبقته : يؤمن بأنها كانت حقاً ولكن يَنْسَخ ( يُبطِل ) العملَ بها لأنّ شريعة الاسلام كانت أتمّ جميع الشرائع .

**القرآن الكريم**

القرآن الكريم هوكتاب الله الذي أوحاه الله الى محمّد رسول الله في مدى ثلاث وعشرين سَنةً هي مدّة رسالته . وبانتقال محمّدٍ رسول الله الى الرفيق الأعلى انتهت رسالته وانقطعت النبوّة .

وفي القرآن الكريم أركانُ الإيمان والاسلام على وجه الامر والنهي ، وفيه أشياءُ من أخبار الأوّلين على سبيل الذكرى والموعظة . ولقد جاء القرآن ليُعلّم البشر أمورَ دينهم وما فيه الخيرُ من أمور دنياهم وليزكّيَ

( يطهّر ) نفوسهم وليَضَعَ لهم نظاماً اجتماعياً يَصْلُح به مَعاشُهم ، وليبشّر الذين آمنوا منهم وعَمِلوا الصالحات بالخلود في حياة أُخْرَوِيَّة في نعيم مقيم .

### الحديث الشريف

والحديث هو كلام محمّد رسول الله ممّا ليس قرآناً أو وحياً – وإن كان كلُّه بتأييد من الله . والحديث لا يَفْرِض شيئاً من الدين ليس موجوداً في القرآن ، ولكنه يفصّل ما جاء في القرآن مجملاً ويفسّر ما جاء موجزاً وينقل سُنّة محمّد رسول الله ( طريقةَ الحياة التي كان يسلُكُها رسول الله عامّة وخاصّة ) حتّى يَهتديَ الناس بِهَدْيه ويقتدوا بأعماله .

### أركان الدين

جمع القرآن والحديث أوجه الحياة الروحيّة والمادّيّة ، فالاسلام قد جاء حركةً اجتماعية واسعة : ديناً ودولةً ومعاملاتٍ بين الناس ونظاماً للاجتماع الانساني واساساً للاخلاق .

### « أركان الايمان »

أركان الايمان التي جاء بها الاسلام خمسة :

١ – الايمان بالله ، بأنّه موجود وهو موجد العالم بكلّ ما فيه ومُهَيْمِناً على البشر في كلّ حال من أحوالهم .

٢ – الايمان بالملائكة ، بان ثمّت مخلوقات روحانيّةً لا يدعوهم وجودُهم الى الحاجات التي يُضْطَرّ البشر اليها في حياتهم من الطعام واللباس وغيرهما ، وبأنّهم يتصرّفون بأمر من الله في مظاهر هذا الوجود .

٣ – الايمان برسل الله وبالكتب المنزلة عليهم .

( أ ) بأن الله يرسل الى خلقه رسلاً ليجدّدوا لهم ما نَسُوهُ أو



تناسَوْهُ من الدين وليَهْدوهم الى العمل الصالح والحياة الكريمة . وجميع هؤلاء الرسل على مستوًى واحدٍ من الحق ومن الاستحقاق للكرامة ، وان كان بعضهم أكثرَ أثراً في قومه وأوسع أثراً بين الناس عامة وأخلد رسالة على الارض من بعضهم الآخر .

( ب ) وبأن الله يوحي الى هؤلاء الرسل كتباً فيها هدًى للناس وصلاحٌ لأمور دينهم وأمور دنياهم . إنّ هذه الكتب كلّها حقّ ، ولكنّها ( ما عدا القرآن الكريم ) قد ارتفعت ( ضاعت ، نَسِيَ أهلُها العملَ بها أو تركوا العمل بها أو بدّلوها ) .

( ٤ ) الايمان باليوم الآخر ، بأن الله يبعث الناس من الموت ويجمعهم ليحاسبَهم على ما عمله كلّ واحد منهم في حياته الدنيا فيُثيبَهُ على ما كان قد أحسن ويعاقبَه على ما كان قد أساء .

( ٥ ) الايمان بالقضاء والقدر ، بأن جميع ما يُصيب الناسَ في هذه الحياة الدنيا من خيرٍ أو من شر قد قضاه الله عليهم ( كتبه عليهم ، أراد أن يصيبهم ) منذ الأزل ، وأنه محتوم عليهم لا مفرّ منه .

### « أركان الاسلام »

لا يكون الانسان مسلماً مقبولَ الدين إلاّ إذا أضاف الى اعتقاده بأركان الايمان اعتقاداً وعملاً بأركان الاسلام ، وهي أيضاً خمسة :

١ – **شهادة أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ** – أي أنّ الله واحدٌ بالعدد وأنه لا يُشبِهه أحد من خلقه : « ليس كمثله شيء » ، ولا هو يتّصف بصفة من صفات خلقه : « سبحانه وتعالى عمّا يصفون » .

٢ – **وأن محمّداً رسول الله** – وأنه خاتَمُ الانبياء والمُرسلين وأن الشرع الذي جاء به قد نَسَخَ جميع الشرائع التي جاءت قبله ( أبطل العمل بها ، وان كانت هي صحيحة في نفسها قبل أن يبدّلها نفر من أتباعها ) .

٣ – **وإقام الصلاة** – على المسلم ان يُصلّيَ خمسَ مرّاتٍ في اليوم والليلة . هذه الصلاة تَعَبُّدٌ في الدرجة الاولى ؛ وعلى المسلم أنّ يُؤدّيَها بخشوع في قلبه . هذه الصلاة على هذا الشكل يجب أن يكون لها أثر في سلوك الانسان العملي فتَنْهاهُ على الفحشاء ( العمل القبيح والكلام القبيح ) والمنكر ( العمل السيء الذي ينفر منه المجتمع السليم ) .

٤ – **وإيتاء الزكاة** – أي أن يدفع الاغنياء نسبة معيّنة من أموالهم الى الفقراء والمحتاجين في كلّ عام . والزكاة ليست صدقةَ تطوّعٍ أو تبرّعاً ، وإنما هي حقّ للمستحقّين من الفقراء في أموال الاغنياء .

٥ – **وحجّ البيت من استطاعَ اليه سبيلاً** – أي أن يذهب المسلم القادر الى زيارة مكّة والقيام فيها بمناسك الحجّ ، على الوجه الشرعي ، مرّة واحدةً في حياته على الاقلّ . والمستطيع هو القادر من الناحية الصحيّة والعقلية والمالية مع الإيقان من أمن الطريق .

والحجّ يستمر شرعاً بضعةَ أشْهُرٍ تكون العبادة فيها ( الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة والوقوف في عَرفَةَ والتَضْحيةُ ) في بضعة أيام . أمّا الايّام الباقية فللتشاور بين المسلمين من الاقطار المختلفة في شؤون المسلمين عامّة .

### العبادات

إنّ البحث في تفاصيل العبادات راجعٌ الى الفقه ، وليس هذا الفصل هنا مكانَ البحث فيه .

### المعاملات

المعاملات هي القواعد التي تواضع عليها الناس (اتّفقوا على العمل بها ) فيما بينهم . لمّا جاء الاسلام وجد العرب يسلُكون في معاملاتهم في البيع والشراء والزّواج والطّلاق والتبنّي والإرث سُبُلاً متعدّدة ، كما



وجد أن جماعاتٍ وأفراداً منهم يسلُكون في ذلك سبلاً مغايرة للحق والعدل والاحسان . والاسلام جاء بنظامٍ اجتماعيّ شامل . ولقد أتّفق أن عدداً من القواعد التي كان العرب يسيرون عليها كانت موافقة للحق والعدل والاحسان فأجازها الاسلام ثمّ ردّ ما لم يكن منها موافقاً لذلك الى السبيل السويّ .

### « المرأة »

وبما أن المعاملات كثيرة متشعّبة الجوانب ، فانّنا سنكتفي هنا بكلام وجيز على المرأة ندلّ فيه على اتّجاه الاسلام في معالجة القضايا الاجتماعية .

ردّ الاسلام الى الانسان كَرامتَه ، فالانسان لم يَبْقَ قَذِراً آثماً منذ الولادة ، بل أصبح طاهراً خالياً من الذنوب إلاّ الذنوبَ التي يرتكبها هو في حياته .

ورفع الاسلام مكانة المرأة وجعلها شخصاً يَمْلِكُ حرّيته وحرّية التصرّف بما يملك ، ولكنّ الرجل ظلّ قوّاماً على المرأة في الاحوال التي يَفْضُلها فيها من الناحية الطبيعية والناحية الاجتماعية . فاذا فقد الرجل هذا الفضل فَقَدَ ذلك الحقّ . وكانتِ المرأة في الجاهلية لا تَرِثُ ففرض الاسلام للأم وللزوجة حقّاً وجعل للبنت نصيباً .

وكان الابُ في الجاهلية يزوّج ابنته من شاء ويأخذ هو مَهْرَها ، فأوجب الاسلام أن يُؤْخَذَ رأيُ المرأة في الزواج وألا تزوّج كرهاً مَن لا تريده ، ثم جعل المَهْر حقّاً لها .

وكان الرجل في الجاهلية يتزوّج من النساء ما شاء بلا حصر لعددهن ثمّ يُطلّق من شاء منهنّ ولا يُسأل عن سبب ذلك ولا عن مصير التي يطلّقها . فجعل الاسلام للزّواج وللطّلاق شروطاً ساوى فيها بين الرجل والمرأة إلاّ في كلمة الطلاق : إنّ طلب الطلاق في الاسلام حق الرجل وحقّ المرأة ، ولكن الطلاق لا يقع إلاّ اذا لفظ الرجل صيغة الطلاق لأنّ الرجل هو الذي

يتحمّل الاعباء المالية التي تُنْتَجُ من وقوع الطلاق .

والغاية من الزَواج في الاسلام بناءُ أُسْرةٍ صالحة سليمة ، فاذا لم يكن تحقيق هذه الغاية ممكناً ووقع الشقاق بين الزوجين ثمّ طلب أحدهما الطلاق ورفض الرجلُ الاستجابة العادلةَ فانّ القاضي يُفرّق حينئذٍ بين الزوجين .

## طبقات الناس

كان العرب في الجاهليّة يتقسّمون قبائلَ وعشائرَ ، وكان لهم عصبيّة يتفاخرون بها وتثور بينهم المنازعات من أجلها . من أجل ذلك أراد الاسلام أن يَقْضِيَ على هذه العصبيّة المفرّقة ثم تبرّأ من كلّ من يدعو اليها ، فقال رسول الله : « ليس منّا من دعا الى عصبيّة » ! ثمّ إنّ الاسلام جعل التقوى مقياساً لقيمة الناس في الحياة . قال الله تعالى في سورة الحُجُرات : « يا أيّها الناسُ ، إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لِتَعارَفوا ؛ إنّ أكرمَكم عند الله أتقاكم . إنّ الله عليم خبير » ( ٤٩ : ١٣ ) . ولم تكن هذه التسوية في التقوى بين العرب وحدَهم ، بل بين العرب وغير العرب أيضاً ، ففي الحديث عن رسول الله : ليس لعربي فضلٌ على عجميّ إلاّ بالتقوى .

على هذا الاساس أوجد الاسلام تنظيماً جديداً للناس في المجتمع ، وقد **جعل السابقين الى الدخول في الاسلام أفضل من المتأخّرين في الدخول فيه .** ثمّ بَطَلَ هذا التفريق بين الداخلين في الاسلام بعد فتح مكّة ، سنة ٨ هـ ( ٦٢٩ م ) لأنّ الاسلام كان قد عمّ بلادَ العرب إلا قليلا ولأنّ الاسلام كان قد اكتسب قوّة وقلّتْ بذلك حاجتُه الى أن يترضّى العربَ للدخول في دين الله . وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الفتح : « وما لكم ألاّ تُنفقوا في سبيل الله ، ولله ميراثُ السموات والارض . لا يستوي منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل ، **أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا ؛** وكُلاًّ وعدَ اللهُ الحسنى . والله بما تعملون خبير » ( ٥٧ : ١٠ ) .



وعلى ذلك كان المسلمون الأوّلون : خديجةُ وأبو بكر وعليّ وعثمانُ وعمرُ وعبد الرحمن بن عَوفٍ وحمزة بن عبد المطلّب ومن هم في طبقتهم وسابقتِهم في الاسلام أفضلَ من سواهم . ثمّ كان المهاجرون الأوّلون الذين أسلموا في مكّة قبل الهجرة ( ١ هـ = ٦٢٢ م ) أفضل من الانصار الأولين الذين أسلموا من أهل المدينة قبل الهجرة . ثمّ يأتي بعد هؤلاء في الدرجة أولئك الذين أسلموا بعد ذلك ولكن قاتلوا في معركة بدر ( ٢ هـ ) ثمّ الذين أسلموا بعدهم وقاتلوا في معركة أُحُدٍ » ( ٣ هـ ) .

**الصحابة**

الصَّحابة هم أصحابُ رسول الله : إنّهم الرجال والنساء المسلمون الذين عاصروا الرسولَ وعرَفوه وعاشوا معه مُدّة[1] واهتدوا بهَدْيِه واقتدَوْا بأعماله . والصحابة أعلى **منزلة** من غيرهم يُعْتَمَدُ عليهم في رواية حديث رسول الله وفي آرائهم في عدد من التفاصيل في أمور الدين والدنيا ، كما يُقلَّدون في أعمالهم . أما فيما يتعلّق بالحقوق والحدود ( بحقوقهم من بيت المال وبالعقاب الذي قد يستحقّونه على ذنب أو خطأ ) فانّهم كانوا يُعاملون في ذلك معاملةَ سائرِ المسلمين . وعلى هذا يكون الصحابة أيضاً طبقاتٍ بعضها **أعلى منزلة** من بعض .

وكان في المسلمين طبقتان بعد ذلك :

أ — طبقة المُؤلّفة قلوبُهم : أولئك الذين دخلوا في الاسلام بعد أن كانوا فقراءَ أو ضعفاءَ وأرادوا أن يغتنوا بالدخول في الاسلام فكان الرسول يعطيهم من المال فوق ما كان يعطي أقرانهم من أصحاب الحقوق من المسلمين . وكذلك كان هنالك نفرٌ أقوياءُ ورؤساءُ في قبائلهم قبل الاسلام ، فلمّا

(١) بين الفقهاء خلاف على تعريف « الصحابي » ، منهم من يتشدد كالتشدد الملموح في هذا المكان ، ومنهم من يتساهل فيجعل الصحابي من اتفق له أن يرى الرسول مرة واحدة ولو من غير « صحبة » .

دخلوا في الاسلام وخَشُوا أن تكونَ منزلَتُهم في الاسلام أدنى مما كانت في الجاهلية أعطاهمُ الرسول من المال فوق ما كان يُعْطي أقرانَهم وقدّمهم في المشاهد فوق ما كانوا يستحقّون .

ب ـ طبقة المنافقين : أولئك الذين دخلوا في الاسلام من اليهود خاصّة « وقلوبُهم غير مطمئنّة الى الاسلام » ، أو دخلوا في الاسلام وهم يريدون الاساءة الى الاسلام والمسلمين وهم متستّرون باسلامهم الظاهر . ولقد سكت الاسلام عن هؤلاء إلاّ إذا ظهر نفاقُهم وأذاهم للمسلمين .

ثمّ يأتي أهل الذِمّة (النصارى واليهود الذين بَقُوا على دينهم) . وهؤلاء أيضاً كانوا طبقتين :

أ ـ المُؤلّفَة قلوبُهم : الذين كان يُرجى دخولهم في الاسلام فكانوا يُعْطَوْنَ شيئاً من أموال الصدَقات ؛ أو كانوا أقوياء يُخشى من سطوتهم فكانوا يُعْطَون مبالغ من المال لدفع أذاهم ما أمكن .

ب ـ أهلُ الذِمّة على الحَضَر : الذين كانوا يعيشون في « الدولة الاسلامية » من غير نشاط مُعادٍ للاسلام ، وقد كان هؤلاء « ذِمّةً للمسلمين » تحميهم الدولة وتُعنى بهم (اذا احتاجوا) كما تحمي المسلمين سواءً بسواء . وكان الرسول يعاملهم في الحدود (العقاب) كما يعامل المسلمين ، فإذا زنى أحد منهم أقام عليه الحدّ (رجمه أو جلده بحسب الحال التي تقتضي ذلك في الشرع) .

ثمّ كان في بلاد العرب مشركون (على الوثنية) وهم الذين كانوا يحاربون رسول الله والمسلمين ويحاربهم رسول الله والمسلمون . . في سنة ٩ هـ (٦٣٠ م) نزلت سورة التوبة ، وتسمّى أيضاً سورة بَراءة (لأن الله تعالى تبرّأ في مطلعها من المشركين وأذن لرسوله أن يقاتلهم قتالَ استئصال ، سواءٌ أبَدَأوا هم المسلمين بالقتال أم لم يبدأوهم . ـ إلاّ أن يكون بينَ الرسول وبين قوم منهم معاهدة . فاذا كان بين الرسول وبين هؤلاء معاهدة ثمّ لم



يَخْرُقوا هذه المعاهدة بعمل عدوانيّ ، فانّ هؤلاء لا يُقاتلون قتال الاستئصال قبل انتهاء مدة المعاهدة التي كانت بينهم وبين الرسول . وأمّا الذين لم يكن بين الرسول وبينهم معاهدة فقد أُعطوا مهلة لا يُقبل منهم بعدَها الا الاسلام . على أن هذا كان ينطبق على العرب وحدَهم . فلا المشركون من غير العرب (من الفرس مثلاً) ولا اليهود والنصارى من الروم والآراميّين كانوا يَدْخلون في حُكْم هذه الآية . بَقِيَ هنالك جماعاتٌ من العرب كانوا قد اعتَنَقوا النّصْرانية ، فهؤلاء أيضاً كان يجب عليهم الدخول في الاسلام . وسَنشير الى قضيّة بني تغلب في الكلام على طبقات الناس في عصر الخلفاء الراشدين .

## نظام الحكم

كان المسلمون في مكّة جماعةً دينية قليلة في العدد مستضعَفَة في الحياة ، وان كانت قوية في الايمان شديدة في الكفاح . فلمّا هاجر المسلمون الى المدينة وكثروا احتاجوا الى تنظيم تفرضه سلطةٌ تُقيمُ العدلَ بين الناس .

### الدولة والحكومة

أصبح للمسلمين في المدينة **دولة** تفرض سلطانها على الناس وتجمع الزكاة (تجبي الضرائب) وتقوم بالجهاد (تعلن الحرب) وتقضي بين الناس في خلافاتهم وتقوم بكلّ ما تقوم به الدولة الحديثة في نطاق الجماعة الاسلامية التي كانت تعيش في المدينة في أول الأمر ثمّ في نطاق الجماعة الاسلامية بعد انْ انتشر الاسلام في معظم شبه جزيرة العرب .

على أنه **لم يكن في عهد الرسول حكومة بالمعنى الحديث** ، ذلك لأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان ينفّذ في حُكْمِ الناس شريعة إلهيّة ويطبّق في المجتمع مبادىء دينيّة ترجع في حقيقتها الى الوحي الالهي . والرسول

في ذلك كان المَرْجِعَ الوحيد في جميع الامور : في اعلان الحرب وعقد الصلح وفي القضاء وفي تقسيم الغنائم وفي جمع الصدقات وتوزيعها بين أصحاب الحقوق وفي التشريع الاجتماعيّ : **لقد كان المرجع في تنفيذ هذه الشريعة وتطبيق هذه المبادىء** ، ولم يكن واضعاً لها من عنده .

**مدرك الحكومة والوزارة : الشورى**

على أن الرسول كان في بعض الامور الدنيوية الجزئية (وفي غير العبادات والمعاملات الاساسية) يحكم برأيه كما اتّفق في ترتيب معركة بدر[1] وفي تأبير النخل[2] .

وكذلك كان الرسول صلىّ الله عليه وسلّم يستشير أصحابه في كثير من أمور الدولة والمجتمع والحرب وما سوى ذلك . ولقد كثرت مشاورته لأبي بكر وعمر حتى قيل فيهما إنّهما كانا وزيرين لرسول الله .

**القضاء**

وكذلك كان رسول الله هو القاضيَ . ولكن لمّا اتّسع الاسلام في شبه الجزيرة احتاج الرسول الى من يستنيبه عنه في الحكم بين الناس في الاقطار المختلفة . لمّا أراد رسول الله أن يرسل مُعاذ بن جبل قاضياً الى اليمن قال له : يا مُعاذُ ، بِمَ تحكم بين الناس ؟ فقال معاذ : بكتاب الله . فقال له الرسول : « فان لم تجده في كتاب الله ؟ » فقال معاذ : « أحكم حينئذ بسنّة رسول الله » . فسأله الرسول ثانية : « فان لم تجد ذلك في سنّة رسول الله ؟ » فقال معاذ : « اجتهد برأيي » .

(١) راجع الكلام على الجهاد ، آخر الفصل التالي .

(٢) اتفق أن جماعة استشاروا الرسول في شأن تأبير النخل (تذكيره) فقال لهم : « لا تؤبروه » . فلم يؤبروا النخل فكان النتاج في ذلك العام ضعيفاً جداً . فقالوا له ذلك فقال لهم : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » . (راجع ايضاً ص ١٣٨ — ١٣٩)



فالقضاء في الاصل كان تطبيقاً للأحكام التي جاءت في القرآن الكريم ، وكان الرأي لا يصلُح للحكم الا اذا غابت تفاصيل القضيّة من القرآن ومن سنّة رسول الله .

**الجهاد**

الجهاد واجب على المسلمين القادرين ، وهو فريضة عليهم وان لم يُذْكَرْ في أركان الاسلام ، ففي القرآن الكريم في سورة البقرة : « كُتِبَ عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم (٢ : ٢١٦) » . وفي سورة التوبة : « انفروا خِفافا وثِقالا **وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله** ، ذلكُم خير لكم (٩ : ٤١) » . وفي سورة التوبة أيضاً : « الذين آمنوا وهاجَروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون (٩ : ٢٠) » . وفي القرآن الكريم آياتٌ كثارٌ للحضّ على الجهاد لإقامة الدين . ان الجهاد (الحرب) ركن من أركان الدولة في كل زمان ومكان .

والجيش الاسلامي في أيام الرسول كان **مجموع الرجال القادرين على حمل السلاح** . والاسلام لم يفرض بذلك على المسلمين أمراً جديداً ، فان الغزو في الجاهلية كان عَمَلَ الرجال القادرين على ركوب الخيل وعلى القتال ، فنقل الاسلام القتال من تَقاتُلٍ بين القبائل العربية الى جهاد في سبيل الله . ان الجهاد قد وحّد المسلمين في وجه الذين كانوا يستعبدونهم (من الفرس والروم) قبل الاسلام .

وكان الرسول يتبّع في خوض الحرب وفي ترتيب المعارك القواعد التي تبدو له موافقة بحسب اجتهاده الشخصي . على ان الرسول كان بلا ريب مؤيّداً بالأسباب المادّيّة والاسباب الروحيّة ، ولكن كان « لفنّه الحربيّ الاصيل ومواهبهِ العسكرية النادرة الاثرُ العظيم في ظفره ونصره »[1] .

(١) راجع « الرسول القائد » لمؤلفه اللواء الركن محمود شيث خطاب (الطبعة الثالثة ، =

على أن المعركة الأولى في الاسلام – معركةَ بدر – لم ترتّب ، في أول الأمر ، ترتيباً مألوفاً . فلمّا لُفِتَ نظرُ الرسول الى ذلك رأى وجه الحقّ والصواب وعَمِلَ بالشورى التي دعا اليها الاسلام فأمر بتبديل ترتيب تلك المعركة :

جاء في تاريخ الطبري [1] ، في شأن ترتيب معركة بدر ، أن الرسول لمّا وصل الى مكان المعركة نزل أدنى من الماء ونصب خيمته في مقدّمة الجيش . فقام اليه الحُباب بن المنذر بن الجَموح وقال له : يا رسول الله ، أهذا المنزل الذي نزلته شيء أوحى به الله اليك أم هو شيء من عندك ومن رأيك ؟ فقال الرسول : هو شيء من عندي . فقال الحباب عندئذ : الرأي أن ننزل أعلى من الماء فنأخذ منه كفايتنا ثم نغوّره ، فاذا جاء المشركون لم يجدوا ماء ، فنشرب ولا يشربون . ثم يحسن أن تؤخر خيمتك فتكون في مأمن من العدو ونتعرض له نحن دونك . فقال الرسول للحباب بن المنذر : لقد أشرت بالرأي . ثم قال لأصحابه : افعلوا ما قال أخوكم!

## مصادر المال في الدولة الإسلامية الأولى

لم يكن للمسلمين في عهد الرسول « بيت مال » ، بل كانت الاموال تدفع الى الرسول ، وكان الرسول يفرّق هذه الاموال في وجوهها ولا يسأله أحد عن ذلك لأنّه رسول الله .

= بيروت ، دار القلم ، ١٩٦٤ ) ، ص ٨ . – هذا كتاب قيم جمع فيه مؤلفه الكلام على غزوات الرسول من مصادرها الأولى ثم عالجها معالجة علمية فنية صحيحة . ويتوفر المؤلف على الكلام على العبقرية الحربية للرسول ويترك كل ما كان غطاء ساتراً على تلك العبقرية الفذة . وهذا قوله في المقدمة ( ص ٧ ) :

« ولكني أغفلت بعض الظواهر الخارقة التي لا يمكن أن تحدث في الحروب العادية بين المتطاحنين من البشر ، والتي يرجع بعض الغلاة إليها وحدها السر الأكبر في انتصار الرسول على خصومه وأعدائـه » .

(١) راجع ايضاً ابن الأثير ٢ : ٤٩ – ٥٠ .



أما مصادر الأموال التي كانت تأتي الى الرسول فقد كانت ثلاثة :

١ – الصدقة ( المفروضة ، وتسمّى أيضاً الصدقات أو الزكاة ) : مقدار معيّن على المال المجموع وعلى الانعام من الغنم والابل وغيرها وعلى نتاج الاشجار وبعض نتاج الارض .

٢ – الغنائم من الحرب ، وهي نوعان :

(أ) الغنائم التي يستولي عليها الجيش المنتصر بعد معركة ، وهذه بدورها تقسم قسمين : خُمسُها لله ورسوله يأخذها الرسول للانفاق على نفسه وعلى أهله وأقاربه من بني هاشم وعلى من يحتاج من سائر الناس ؛ ثمّ أربعة أخماس تقسم بين الاحياء بعد المعركة .

(ب) الفيء ، وهو ما استولى عليه المسلمون من مال ومتاع وأرض بلا قتال ولا هجوم لقتال كأن يستسلم قوم معادون للاسلام طوعاً أوكَرهاً بعد نيّة قتال أو بعد حصار . والفيء كالخمس يأخذه الرسول ( راجع الغنائم ٢ أ ) .

وحكم الفيء وارد في سورة الحشر : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى [1] فلله وللرسول ولذى القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دُولة بين الاغنياء منكم [2] . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوه . واتّقوا الله ، إنّ الله شديد العقاب ( ٥٩ : ٧ ) » .

٣ – صدقة التطوّع ، وكان يدفعها الصحابة القادرون تطوّعاً من عند أنفسهم فقد يجيء الرجل منهم مرّة بنصف ماله أو بكلّ ماله . وقد يجهّز جيشاً ذاهباً الى الغزو من ماله هو .

وللجهاد قوانين تتعلّق بالفرق – فيما يخصّ العدو – بين المحاربين

(١) مثل وادي القرى وينبع .

(٢) كيلا يعطى هذا الفيء لعدد من الأغنياء منكم .

(الرجال القادرين على الحرب والذين ينصبون الحرب للمسلمين) وبين غير المحاربين كالنساء والاطفال والشيوخ والمرضى والرهبان، الخ، كما تتعلّق بالاسرى وسوى ذلك ممّا هو من باب التفاصيل.

### الأخلاق

الخلق الحسن في الاسلام ما أمر الله به، والخلق السيء ما نهى الله عنه. والاسلام لم يفرّق بين الاخلاق وبين الدين. والاسلام قد مدح الاخلاق الحسنة ومدح بالاخلاق الحسنة. ولمّا أراد الله تعالى أن يمدح رسوله محمّداً قال له في سورة ن: «وإنّك لعلى خلق عظيم» (٦٨ : ٤). وكذلك قال رسول الله: بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارِمَ الأخلاق.

والغاية الاولى من الاخلاق حسن معاملة الناس حتى جاء في الاثر: الدين المعاملة. وجاء أيضاً: «الدين النصيحة». وفلسفة الاخلاق في الاسلام سامية جدّاً: ان الاسلام يدعو الى حسن الاخلاق مع الناس كلّهم، سواءٌ منهم مَن كان مسلماً أو من كان غير مسلم. ان مدرك الاخلاق في الاسلام هو المثل الأعلى نفسه وليس الملابساتِ الاجتماعيةَ التي تجيز في بعض الفلسفات حسن المعاملة مع القبيل دون سائر الناس. والغاية في الاسلام لا تبرّر الواسطة، وغير المسلم لا يجوز الاضرار به ابتداء لأنّه غير مسلم. أما الذي يَقْصدُ الاضرار بالمسلمين فتجب محاربته، سواء أكان غير مسلم أو كان مسلماً. والايمان بالله والعمل الصالح هما مقياس الدين ومقياس الخلق الكريم.



# الإسلامُ والعِلمُ

## صورة العلم في القرآن الكريم خاصّة

يبدأ تاريخ العلم الصحيح عند العرب بنزول القرآن. ان السورة الاولى التي أُوحيت الى محمّد رسول الله هي سورة العلق، السورة السادسة والتسعون في المصحف، ومبدأها:

بسم الله الرحمن الرحيم:

اقرأ باسمِ ربّك الذي خلَق، خلق الانسان من علَق[1]، اقرأ وربُّك الأكرم الّذي علّم بالقلم، علّم الانسان ما لم يعلم، (الى آخر السورة).

والحضّ على العلم والتعليم في القرآن الكريم كثير جدّاً. وكذلك الآياتُ التي فيها: «لعلّكم تعقلون؛ لآيات لقوم يتفكّرون؛ لآيات لقوم يعلمون؛ فاعتبروا، يا أولي الابصار؛ لآيات لأولي الالباب» أكثر من آن تحصى في فصل مثل هذا. على أن الآيات التالية كافية في هذا المجال:

— في سورة الزُمَر: قلْ: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ إنّما يتذكّر أولو الالباب، (٣٩ : ٩).

— في سورة طه: وقل: ربّ، زِدْني علماً، (٢٠ : ١١٤).

(١) العلق: القطعة من الدم الجامد.

– في سورة البقرة : كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتِنا ويعلّمكم الكتابَ والحكمة ، ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون ، (٢ : ١٥١) .

– في سورة البقرة : يؤتي الحِكمة من يشاء ، ومن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتِيَ خيراً كثيرا ؛ وما يَذّكّر إلاّ أولو الالباب ، (٢ : ٢٦٩) .

أما مفردات الحقائق العلمية فهي أيضاً كثيرة في القرآن الكريم . ان القرآن الكريم كتاب يعلّمنا الدين ويزكّي نفوسنا ، ونحن لا نعدّه كتاب فلَك أو كتاب جغرافية أو كتاباً في علم الحياة ، وان كانت الحقائق التي ذُكرتْ في القرآن في الطب والفلك وغيرهما صحيحة في نفسها . ثم ان القرآن الكريم لم يُرد من هذه الحقائق أن تكون مقصودة فيه لذاتها ، ولكنّه أرادها لتكون دليلاً على قدرة الله وحكمته ثم وسيلة الى تهذيب نفوسنا وعِبرة .

## نظرية المعرفة

ومعَ أن محمداً رسول الله قد بُعث ليعلّمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديّات ، كما يقول ابن خلدون (المقدمة ٩١٩) ، فان الله قد علّمنا بوساطة رسول الله كثيراً من جوانب العلم ومن المعارف .

ان الانسان وُلد لا يعلم شيئاً ولكنّه وُهب أسباب المعرفة . جاء في سورة النحل (١٦ : ٧٨) : والله أخرجكم من بطون أمّهاتكم لا تعلمون شيئاً ؛ وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » . أما المعارف فيَكسبها الانسان من ثلاث طرق : من طريق التعليم بالوحي (على لسان الرسل) ، ومن طريق الحواس ، ومن طريق العقل بالتفكير والاستنباط .

أما التعليم من طريق الوحي فالآيات عليه كثيرة جداً . ان أول سورة أُوحيت الى رسول الله هي سورة العلق ، وهي السادسة والتسعون في المصحف ، وتبدأ بعد البسملة بقوله تعالى : « اقرأ باسم ربّك الذي خلق : خلق الانسان من علق . اقرأ ، وربك الاكرم الذي علّم بالقلم : علّم الانسان ما لم يعلم » .



وفي المعرفة من طريق الحواس قال الله تعالى في سورة البلد (٩٠ : ٨ – ١١) يقرّع الانسان الذي وُهب حواسّ ولكنّه لا ينتفع بها : « ألم نجعلْ له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين ؟ فلا اقتحم العقبة ! [1] .

وكذلك يَكثُر في القرآن الكريم الكلام على المعرفة من طريق الفكر والعقل واللب وبالاستنباط . ولكن مع الايام يتقدم الانسان في السن ، وقد يصاب بالخرف فتبطُل عنده المعرفة الصحيحة من طريق الحواس ومن طريق العقل . قال الله تعالى في سورة النحل (١٦ : ٧٠) : « والله خلقكم ثم يتوفّاكم . ومنكم من يُردّ الى أرذل العمُر لكيلا يعلم بعد علمٍ شيئا » (راجع أيضاً سورة الحج ، ٢٢ : ٥) .

واتجاه الاسلام في وجود العالم هو أن الله أبدع العالم من العدم ، وأن الله هو الذي يمسك العالم في وجوده ونظامه ، ولولا ذلك لزال العالم .

والمكان والزمان . مما يبدو من القرآن الكريم ، متناهيان في الماضي لأن الله وحده قديم وهو الذي خلقهما . أما في المستقبل فيجب أن يكونا أيضاً متناهيين لأن الله هو الاول والآخر (سورة الحديد ٥٧ : ٣) . على أن الحياة الدنيا فانية لا ريب في ذلك . أما النعيم والشقاء في الآخرة فيبدو أنهما دائمان خالدان أبداً .

## المكان والزمان المطلقان

في القرآن الكريم اشارة الى الفضاء المطلق في قوله تعالى (٦ : ١٢٦) : « فمن يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صدرَه للاسلام ؛ ومن يرد أن يُضِلّه يجعلْ صدرَه ضَيّقاً حَرَجاً كأنّما يَصّعّدُ في السماء » . ثم ان فيه أيضاً اشارات الى الزمان المطلق كقوله تعال (٢٢ : ٤٧) : « ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يُخْلِفَ الله وعدَه ؛ وإنّ يوماً عند ربّك كألفِ سَنةٍ

(١) فهلا تجاوز العقبة : لماذا اختار سبيل الشدة أو الهلاك ؟

مما تَعُدّون ؛ أو كقوله (٣٢ : ٥) : « يُدَبِّر الامرَ من السماء الى الارض ، ثم يَعْرُجُ اليه في يوم كان مقداره ألفَ سَنَةٍ مما تعدّون » ؛ أو كقوله (٧٠ : ٤) : « تَعْرُجُ الملائكةُ والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألفَ سنَة » .

لقد أراد الله تعالى أن يفتح عقول المؤمنين على حقيقة قياس الزمن التي نَعْرِفها على أرضنا وعلى حقيقة الزمن المطلق خارج عالمنا الذي نعيش فيه .

ولم تبق هذه الارقام بألوف السنين وعشرات ألوفها أمثلةً واستعاراتٍ في الحياة الروحية بل دخلت في نسيج الادب :

لما نزل عُتْبة بن غزْوان في البصرة (سنة ١٤ هـ = ٦٣٥ م) خطب في جنوده فقال في أثناء الخُطبة [1] :

« ... ولقد ذُكر لي أن صخرة ألقيت من شفير [2] جهنّم سبعين خريفا [3] ؛ ولقد ذكر لي أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنّة أربعين خريفاً ، وليأتينّ عليه يوم وهو كظيظ [4] » .

**في الفلك**

وفي القرآن الكريم حقائق تتعلّق بالفلك وعلم طبقات الارض والجغرافية .

ان الله تعالى هو الذي أبدع الوجود بمادّته وصورته مع العدم ، فهو بديع السموات والارض (القرآن ٢ : ١١٧ ؛ ٦ : ١٠١) . والوجود لم يكن دُفعة واحدة بل كان أولاً دُخاناً (٤١ : ١١) . والدُخان هو العثان (القاموس ٤ : ٢٢١ ، ٢٤٦) ، ومثله الضَباب ، وهو نَدًى كالغيم أو

(١) ابن الأثير ٢ : ٢٠٦ .
(٢) الشفير في الأصل : ناحية الوادي من أعلاه .
(٣) الخريف : السنة والعام (القاموس ٣ : ١٣٦) .
(٤) كظيظ : مجهود ، تعبان (؟) .



سحاب رقيق كالدخان (القاموس ١ : ٩٥) . وكذلك السّديم هو الضباب (٤ : ١٢٨) . قال تعالى : « ثم استوى الى السماء وهي دُخانٌ فقال لها وللارض : ائْتِيا طَوْعاً أو كَرْهاً . قالتا : اتينا طائعين . فقضاهُنّ سبعَ سموات في يومين ؛ وأوحى في كلّ سماء أمرها ، وزيّنّا السماء الدنيا بمصابيحَ وحِفظاً . ذلك تقدير العزيز العليم . (٤١ : ١١ – ١٢) . ولقد كان خلق السموات والارض وما بينهما في ستّة أيام (القرآن ٢٥ : ٥٩ ؛ راجع ٧ : ٥٤ ، ١١ : ٧ ، ٣٢ : ٤ ، ٥٠ : ٣٨ ، ٥٧ : ٤) .

والايّام الستّة هذه في خلق العالم ليست للحصر بل للدلالة على تطوّر العالم في الخلق في مدة معلومة ، فلقد رأينا قبل بضع صفحات أن اليوم عند الله ، وفي الفضاء ، يساوي ألف سنة أو خمسين ألفَ سنة مما نَعُدّ نحن على أرضنا هذه .

أما أعيان الموجودات فخُلقت من ماء ، أو في الماء ، قال تعالى : « أوَلم يَرَ الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رَتْقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كلّ شيءٍ حيٍّ ؟ (القرآن ٢٥ : ٣٠) . وفصّل الله تعالى ذلك تفصيلاً يسيرا فقال : « والله خلق كلّ دابّةٍ من ماء ؛ فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رِجْلين ، ومنهم من يمشي على أربع (٢٤ : ٤٥) .

والاجرام السماوية كلّها تسير : « والشمس والقمر والنجوم مُسخّراتٌ بأمره » (القرآن ٧ : ٥٣ و ١٦ : ١٢) ؛ ولكل جرْم فَلَكُه الخاصّ به : « وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كُلٌّ في فَلَكٍ يسبحون » (٢١ : ٣٣) . وقد يكون الجرم السماوي ثابتاً بالاضافة إليْنا (الى الارض التي نعيش عليها) ولكنّه يسير بالاضافة الى أجرام أُخَرَ : « وآيةٌ لهم الليلُ نَسْلَخُ منه النهارَ فاذا هم مظلمون ، والشمس تجري لِمُسْتَقَرٍّ لها ؛ ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدّرناه منازلَ حتى عاد

كالعُرجون القديم[1] ، لا الشمسُ ينبغي لها أن تدركَ القمرَ ولا الليلُ سابق النهارِ ؛ وكلٌّ في فلكٍ يسبحون ، ( القرآن ٣٦ : ٣٧ – ٤٠ ) .

وشكل الارض ليس تامّاً ، فالأرض ناقصة من أطرافها ( أو من طرفيها عند القطبين ) : « أولم يرَوْا أنّا نأتي الارضَ نَنْقُصها من أطرافها ؟ » ( القرآن ١٣ : ٤١ ) . والارض ليست جامدة هادئة كما يُخَيَّل الى من يراها : » وترى الجبال تَحْسَبُها جامدة ؛ وهي تمرّ مرّ السَحاب ؛ صُنْعَ اللهِ الذي أتقن كلَّ شيء ، إنّه خبير بما تفعلون ، ( القرآن ٢٧ : ٨٨ ) .

وفناء العالم يكون باختلال هذا النظام الفلكي وبتحطّم الاجرام السماوية وبتبدّل الارض غيرَ الارض والسموات غير السماوات وانشقاق القمر . والاشارات الى ذلك كثيرة جداً .

ومال العرب في آخر العصر الجاهلي الى الفلك يكثرون من تعلّمه ليستعينوا بذلك على التنجيم ، فنهى رسول الله عن تعلّم علم النجوم لذلك[2] .

## علم الحياة

وفي القرآن الكريم أوجه عامّة من علم النبات والحيوان . فممّا يَلْفِتُ النظرَ منها أن الرياح تحمل اللِقاح في النبات بين أزهاره ، من الازهار المذكّرة الى الازهار المؤنّثة ، أو من الاشجار المذكّرة الى الاشجار المؤنّثة كما في النخل خاصّة . جاء في القرآن الكريم ( سورة الحجر – ١٥ : ٢٢ ) : « وأرسلنا الرياح لواقحَ » .

والعادة القديمة أن أصحاب النخيل يؤبّرون نخيلهم في أيام الربيع ، ينقلون الطَلع من النخلة المذكّرة الى طلع النخلة المؤنثة . فقال نفر من المسلمين ذات

(١) العرجون هو الغلاف الذي يضم عذق ( بكسر العين : قنو ، عنقود ، قرط ) ثمر النخل عند نشوئه . ثم ينشق العرجون ويظهر العذق لينمو وينضج . بعدئذ ييبس العرجون ويتقوس ( ينحني ) .

(٢) راجع سنن ابن ماجة ٢ : ١٢٢٨ ( رقم الحديث ٣٧٢٦ ) .



يوم لرسول الله : « النخل يؤبّرونها ؟ » ( أيجب على الناس أن يؤبّروها ؟ ) فقال لهم رسول الله : لو لم يفعلوا لَصلَح . فلم يؤبّروا ( النخل ) عامئذ . فصار ( الحمل ) شيصا[1] . فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ان كان شيئاً من أمور دنياكم فشأنكم به ؛ وان كان من أمور دينكم فَإلَيَّ »[2] .

## الطب

الطب النبوي يطلق على مجموع أحاديثَ تبلغ نحو ثلاثمائة حديث تدور في الحقيقة على حفظ الصحة . ولا ريب في أن بعضها صحيح النسبة الى رسول الله ، كما أن بعضها أقوال أطبّاءَ وحكماءَ نُسبت الى الرسول . والأخذ بهذه الاحاديث مفيد جدّاً لأنها توصي بالاعتدال في كل شيء وتأمر بما يحفظ الصِحة وتَنْهى عما يضر بالصحّة . وفيها شيء من حيّز التطبيب . ومع أن هذا الموجود من الطب في هذا المجموع من الحديث صحيح ، فان الطب كلّه ليس موجوداً في هذه الاحاديث . ثمّ إن تلك الاحاديث في الحقيقة تدور على الطب النفساني أكثر مما تدور على الطب المِزاجي . قال ابن خلدون ( المقدمة ٩١٨ – ٩١٩ ) :

« وللبادية من أهل العُمران طِبّ يَبْنونه في غالب الامر على تَجْرِبة قاصرة على بعض الاشخاص ، ويتداولونه مُتوارَثاً عن مشايخ الحيّ وعجائزه . وربّما يَصِحّ منه البعض ، الا أنه ليس على قانون طبيعيّ ولا عن موافقة المزاج . وكان عند العرب من هذا الطب كثير ...

« والطب المنقول في الشرعيّات من هذا القبيل وليس من الوحي في شيء ، وانما هو أمر كان عادِيّاً للعرب ثم وقع في ذكر أحوال النبي صلى

(١) الشيص : تمر لا يشتد نواه فيكون رديئاً ( القاموس ٢ : ٣٠٧ ) . قد يتفق أن تحمل الرياح شيئاً من اللقاح من النخل المذكرة الى النخل المؤنثة فيصح عدد من الثمر في العرجون ، أما معظم الثمر فيكون شيصاً .

(٢) سنن ابن ماجة ٢ : ٨٢٥ ، الحديث ٢٤٧١ ، راجع ٢٤٧٠ .

الله عليه وسلم من نوع ذكر أحواله التي هي عادةً جبِلّةً ، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل [1] ، فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلّمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديّات . وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع ، فقال : أنتم أعلم بأمور دنياكم !

« فلا ينبغي أن يحمل شيء من الذي وقع من الطب الذي وقع في الاحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع ، فليس هنالك ما يدل على ذلك ؛ اللّهمّ إلاّ اذا استُعمل على جهة التبرّك وصدق العَقد [2] الإيماني ، فيكون له أثر عظيم في النفع . وليس ذلك من الطب المزاجي وانما هومن آثار الكلمة الايمانية » .

ومع أن العرب لم يكونوا يُعنَوْنَ في صدر الاسلام بشيء من العلم الا بلغتهم وبمعرفة أحكام الشريعة ، فانهم كانوا يهتمّون بصناعة الطب ، فكانت تلك الصناعة موجودة عند نفر منهم غير منكَرة عند جماهيرهم لحاجة الناس طُرّاً اليها [3] .

ونحن نلاحظ أنّ الطب في صدر الاسلام الاول كان يدور في الاكثر على الوقاية ، وكان الاسلام قد حثّ على الاعتدال في الطعام والشراب وعلى العناية في تناولهما ومراعاة آدابها كالالحاح على ضرورة الشرب والشاربون جلوس ، وان كانوا لا يرَون بأساً في أن يشرب الانسان وهو قائم [4] .

أما الحثّ على التداوي فبارز جدّاً في كتب الحديث . جاء في الموطّأ للامام مالك [5] : « قال رسول الله : أنزل الدواءَ الذي أنزل الادواء » .

---

(١) اتفق أن النبي خاطب انساناً أو لمسه أو نصحه بعمل فشفي من مرض . ولكن ذلك كله كان حوادث فردية صحت ، فلا يجب علينا أن نتخذها قواعد عامة للمداواة .

(٢) العقد الايماني : الاقتناع الشخصي الصادق .

(٣) طبقات الامم لصاعد ٤٧ .

(٤) الموطأ ص ٩٢٤ وما بعدها .

(٥) الموطأ ٩٤٤ ؛ راجع سنن ابن ماجه ٢ : ١١٣٧ – ١١٣٨ ، الاحاديث رقم ٣٤٣٦ ، ٣٤٣٨ ، ٣٤٣٩ . ثم ان ذلك وارد في معظم كتب الحديث .



ورُوي عن الرسول أنه عاد رجلاً من أصحابه فقال له : انك مفؤود [1] ، ائتِ الحارث بن كلدة أخا ثقيف فانه يتطبّب [2] » .

وفي الحديث أن الرسول قبل كثيراً من أوجه التطبيب كالحجامة ( استخراج الدم من الجسم بطريق تشطيب الجلد ) والكيّ ( احداث حرق في الجلد بوساطة حديدة ) والكحل بالإثْمِد [3] ، ولكنّه منع التداوي بالخمر [4] .

ومع أن عدداً من الاحاديث ينكر العدوى ، ففي كتب الحديث أحاديثُ صريحة تنص على وجود العدوى . ففي الموطّأ ( ص ٩٤٦ ) : « لا عدوى [5] ولا هامَ [6] ولا صفرَ [7] . ولا يحل المُمْرَض على المُصِحّ . وليَحلل المصحّ حيث شاء . فقالوا : يا رسول الله ، وما ذاك ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : انه أذىً ! » [8] .

وفي الحديث نُصحٌ بأن يُخفّف أثر الحمّى بالماء البارد [9] .

وكذلك أمر رسول الله باقامة ما يشبه المستشفى :

---

(١) عاد : زار إنساناً مريضاً ؛ مفؤود : مصاب بفؤاده ( به مرض القلب ) .

(٢) راجع ، فوق ، ١٠٦ – ١٠٧ ، ١٠٨ – ١١٠ .

(٣) راجع سنن ابن ماجه ٢ : ١١٥١ ، ١١٥٤ ، ١١٥٦ .

(٤) سنن ابن ماجه ٢ : ١١٥٧ .

(٥) العدوى انتقال المرض من المريض الى السليم . وقوله : « لا عدوى » لا تسقيم مع بقية معنى الحديث فيمكن أن تكون مضافة فيما بعد ، ويمكن أن نجعل ( مما نرى في الحديث ) المعنى بأن العدوى ممكنة ولكن ليست لازمة .

(٦) الهام جمع هامة . زعموا أن الهامة طائر يخرج من جمجمة القتيل ثم يظل يصيح : اسقوني ، حتى يؤخذ بثأر ذلك القتيل . قال ذو الاصبع العدواني ( المفضليات ، ص ١٦٠ ) :

يا عمرو ، إلا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة : اسقوني !

(٧) صفر ، زعموا أن شهر صفر يموت فيه العجائز .

(٨) الموطأ ٩٤٦ ؛ سنن ابن ماجه ٢ : ١١٧١ ، رقم الحديث ٣٥٤١ .

(٩) الموطأ ٩٤٥ ؛ سنن ابن ماجه ٢ : ١١٤٩ وما بعدها ، الاحاديث ٣٤٧١ وما بعده ، ٣٤٧١ ، ٣٤٧٥ .

أصيب سعد بن مُعاذ يوم الخندق [1] في الاكحل [2] فجعله رسول الله في خيمة لامرأة من بني أسْلَم يقال لها رُفَيْدة في مسجده . وكانت رفيدة تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كان به ضبعة [3] من المسلمين [4] .

غير أننا لا نعرف كيف كان المسلمون الأوّلون يداوون الجراح ، الا اذا قبلنا أن تكون الطريقة التالية هي السائدة يومذاك :

لمّا جرح الرسول يوم أحد في وجهه جعلت ابنته « فاطمة تغسل الدم عنه وكان علي ( بن أبي طالب ) يسكب الماء عليه بالمجن " [5] . فلمّا رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم الا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقتها ، حتى اذا صار ( ما أحرقته ) رماداً آلزمته الجرح فاستمسك الدم » [6] .

غير أن الحواضر كانت فيما يبدو ، ومنذ الجاهلية أيضاً ، أرقى في التطبيب من البادية ومما قرُب من البادية ، فقد كان عثمان بن عفّان وموسى بن طلحة قد شدّا أسنانهما بالذهب [7] .

**الانسان : ولادته وكرامته**

ان معرفة الروح محجوبة عن البشر : « ويسألونك [8] عن الروح ؛ قل : الروح من أمر ربّي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا ( ١٧ : ٨٥ ) . والانسان يتكون جنيناً من ماء يخرج من الصُلب أو العمود الفِقري ( راجع

(١) كانت معركة الخندق في سنة ٥ هـ ( ٦٢٧ م ) .
(٢) الاكحل عرق ( شريان ) في الذراع، ويقال له أيضاً عرق الحياة ( القاموس ٤ : ٤٤ ) .
(٣) لم أجد « ضبعة » تناسب المعنى المطلوب في القاموس ( ٣ : ٥٣ — ٥٥ ) .
(٤) تاريخ البيمارستانات ٩ ، ١٦ .
(٥) المجن ( بكسر الميم وفتح الجيم ) : الترس .
(٦) سنن ابن ماجه ٢ : ١١٤٧ ، رقم ٣٤٦٤ ، راجع ٣٤٦٥ .
(٧) راجع عمر بن أبي ربيعة لجبرائيل جبور ١ : ٣٥ عن السيوطي ( تاريخ الخلفاء ، مصر ١٣٠٥ هـ ) ٥٨ ؛ المعارف لابن قتيبة ( غوتنجن ١٨٥٠ ) ٩٦ ، ١٢٠ .
(٨) الخطاب لرسول الله .



القاموس ١ : ٩٣ ) في الرجل ومن الترائب أو الموضع بين الثديين والتَرقُوتين في أعلى الصدر ( القاموس ١ : ٣٩ ، ٤ : ٣٣٦ ) في المرآة : « فَلْيَنْظُرِ الانسانُ مِمّ خُلِق ، خُلِق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، ( القرآن ٨٦ : ٥ — ٧ ) . وفي الرحم يتخلّق ( يتطوّر ) الجنين : « يخلقكم في بطون أمّهاتكم خَلْقاً من بعد خلقٍ في ظُلمات ثلاث ( القرآن ٣٩ : ٦ ) . ثم يجري التخلّق مجرىً طبيعياً : « ولقد خلقنا الانسان من سُلالة من طين ، ثم جعلناه نُطْفَة في قرار مكين ، ثم خلقنا النُطفةَ عَلَقَةً فخلقنا العلقة مُضْغَة [1] فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العِظام لحماً ، ثم أنشأناه خَلْقاً آخرَ ؛ فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين » ( ٢٤ : ١٢ — ١٤ ) .

وجعل الاسلام للانسان كرامة لم تكن له من قبل في الاديان الاخرى ولا في النظم الاجتماعية التي سبقت . فالانسان في الاسلام خُلِق طاهراً بريئاً كريماً يَملِك زمام أمره في أعماله الخاصة به : « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيّبات ، وفضّلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا ( القرآن ١٧ : ٧٠ ) حتى « إن الله لا يُغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم » ( القرآن ١٣ : ١٢ ، راجع ٨ : ٥٤ ) .

ومع أن في القرآن الكريم آيات تشير الى مُعجزات خارقةٍ للطبيعة فيما يتعلّق بالامم السابقة ، على سبيل المثل والعِبرة وتبياناً لقدرة الله ، فان الاسلام قد نشأ في جو من الفِطرة الطبيعية ، وكانت مُعجزاتُه ما تحقّقه الارادة والعمل . ولمّا سأل الجاهليون محمداً رسول الله معجزاتٍ خارقةً للطبيعة نزل الوحيُ بالردّ عليهم ( القرآن ١٧ : ٨٩ — ٩٣ ) :

« ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل ، فأبى أكثر الناس الا كُفورا ، وقالوا : لن نؤمنَ لك حتى تُفَجّرَ لنا من الارض يَنْبوعاً ،

(١) المضغة : القطعة من اللحم ( من المادة اللينة ) : يكون الجنين في نهاية الشهر الأول كتلة لحمية .... ( راجع كتاب « الحمل والولادة » للدكتور مصطفى خالدي ، ص ٦٨ ، ١١٠ ) .

أو تكونَ لك جنّة من نخيل وعنب فتفجّرَ الأنهار خلالَها تفجيرا ، أو تُسْقِطَ السماء ، كما زعمت ، علينا كِسَفاً ، أو تأتيَ بالله والملائكة قَبيلا ، أو يكونَ لك بيت من زُخْرُف ، أو تَرْقى في السماء ؛ ولن نؤمنَ لِرُقيّك حتى تُنَزّل علينا كتاباً نَقْرأه . قل : سُبْحانَ ربّي ! هل كنت إلاّ بشرا رسولا » .

**الإرث وتقسيمه**

والجانب الرياضي من الارث في الاسلام بارز ايضاً : كيف تكون قِسمة عددٍ ما على كل مجموع من الكسور ممكنة ؟

اذا كان للمتوفّى أولادٌ فيهم ذكر أو ذكور :

للابِ السُدُس ، وللامّ السدس ، وللزوجة الثُمُن ، ثم يقتسم الاولاد الباقي للذكر مثل حظ الأُنْثَيَيْن :

أولا : تطرح فُروض (حِصَص) من كان حياً من الأبوَيْنِ $\frac{1}{6}$ و $\frac{1}{6}$ وأحدِ الزوجين $\frac{1}{8}$ من مجموع التَرِكَة ؛

ثانياً : ثم يُقسَم الباقي على الأولاد ، كما يأتي :

حصّةٌ واحدةٌ للبنت ،

حصّتين للصبيّ .

( فاذا كان عندنا مثلاً ثلاثُ بنات وصَبيّانِ جُعلت حصصهم ٣ + ٤ = ٧ ، فأعْطِيت البنـاتُ الثلاثُ كلٌّ بنت حصّةً ( ٣ حصص ) وأعطي الصَبيّان كلّ صبي حصّتين (= ٤ حصص ) .

ان نظام الارث في الاسلام أراد أن ينصف المرأة التي لم تكن ترث في الجاهلية وأن يَفرُضَ نصيباً للابِ وللامّ لأن الجاهليين لم يكونوا يُورّثون الا الاشخاص الذين يستطيعون ركوب الخيل للذهاب الى الحرب . وبما أن



الاب عادة يكون قد شاخ عند موت ولده فانه لم يكن يرثه . غير أن الاسلام لجأ الى هذه الطريقة في تقسيم الارث ليعطيَ كلّ فرد من الاقربين على مِقدار نفعه الاجتماعي في الاسرة ، مع الانصاف .

**الكتابة والخط**

لمّا جاء الاسلام كانت الكتابة قد أصبحت مألوفة ومرغوباً فيها ، يدلّنا على ذلك أن القرآن الكريم كان يكتب بعد نزوله مباشرة . ولمّا جاء عمر بن الخطّاب ليبطش بأخته فاطمة وبزوجها ابن عمه سعيدِ بن زيد بن عمرو العَدَوي – لأنهما كانا قد أسلما – كان عندهما خبّاب بن الأرَتّ يقرئهما القرآن الكريم في صحيفة مكتوبة ، وذلك قبل الهجرة بنحو سبع سنوات [1] .

ولما حَصَر القرشيون المشركون محمّداً رسول الله وآله في شِعب أبي أبي طالب ، بعد اسلام عمر بقليل ، كتبوا بينهم صحيفة وعلّقوها في الكعبة [2] .

وفي المدينة ، بعد الهجرة ، أصبح للرسول كَتَبَة للوحي ولرسائله منهم أُبيّ بن كعب وعثمان بن عفّان وعليّ بن أبي طالب وخالد بن سعيد وأبان ابن سعيد والعَلاء بن الحَضْرمي وزيدُ بن ثابت وعبد الله بن أبي سَرْح ومُعاوية ابن أبي سُفيان وحَنْظلة الاسيدي [3] .

وبعد غزوة بدر (سنة ٢ هـ = ٦٢٤ م) كان في يد المسلمين أسْرى من من المشركين ليس لهم مال يفتدون به أنفسهم ، فأمر الرسول أن يعلّم كلٌّ واحد من هؤلاء ( اذا كان يعرف القراءة والخط ) عشْرةً من صبيان المسلمين القراءةَ والكتابة . ثم ان رسول الله اتّخذ خاتماً نقش عليه اسمه « محمد رسول الله » في ثلاثة أسطر ، كلّ كلمة في سطر ، وكان يختم به الرسائل التي كان يوجّهها الى الملوك والى غيرهم .

(١) ابن الأثير ٢ : ٣٤ .
(٢) ابن الاثير ٢ : ٣٥ وما بعدها .
(٣) ابن الاثير ٢ : ١٣٠ .

وفي أيام أبي بكر جُمع القرآن الكريم في مصحف واحد ، ثم أُعيد جَمْعُه ونسخه في أيام عثمان في ستّ نسخ كان المسلمون في الاقطار المختلفة يصنعون نسخاً منقولة عنها . ونحن نستطيع أن نجزم بأن القراءة والكتابة كانتا قد عمّتا في المسلمين قبل أن ينتهي عهد الخلفاء الراشدين ( سنة ٤٠ هـ = ٦٦٠ م ) .

### سياسة الحرب

لا ريب في أن العرب لمّا خرجوا بالاسلام الى فتح العالم في سبيل دين الله كانوا أمّة فتيّة بدْوية ، بينما كان خصومهم الروم والفرس أمتين قد أفسدهما ترف الحضارة . ولا ريب أيضاً في أن العرب كانوا أقوياء بالحَمِيّة الدينية وبالرغبة أيضاً في الحصول على الدنيا ، وكل هذه عوامل مُرجِّحة في الظفر . غير أن هذه وحدَها لا يمكن أن تقرّر مصير معركة حربية . فلم يكن بدّ إذَنْ من أن الرسول نفسه والقادة الذين جاءوا بعده قد عرفوا من أساليب القتال وترتيب المعارك ما جعلهم فوق خصومهم علمياً وفنّياً .

ومنذ الهجرة ( ٢ هـ = ٦٢٢ م ) أصبح في الاسلام سياسةٌ حربية[1] :

أُمِرَ المسلمون بالجهاد في مطلع السّنة الثانية للهجرة ( تمّوز – يوليو ٦٢٣ م ) ، وكان على جميع الرجال البالغين العاقلين الأصِحّاء[2] أن يُلَبّوا داعِيَ الجهاد وأن يفضّلوه على كلّ أمر من أمور دنياهم ؛ وما كان لأحدٍ أن يتخلّف عن هذا الواجب الديني . والجهاد لم يكن بذهاب الرجل الى الحرب فقط ، بل كان الجهاد يقتضي أن يقدّم الرجل مالَه أيضاً في سبيل

(١) راجع الرسول القائد لمحمود شيث خطاب ، ٢٧ وما بعدها .

(٢) قال الله تعالى في سورة الفتح ( ٤٨ : ١٦ – ١٧ ) : « قل للمخلفين ( بفتح اللام المشددة ) من الأعراب ستدعون ( بفتح العين ) الى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ( بضم الياء وسكون السين ) . فان تطيعوا يؤتكم أجراً حسناً ، وإن تتولوا ( بفتح اللام المشددة ) كما توليتم من قبل يعذبكم ( بسكون الباء ) عذاباً أليماً . ليس على الأعمى حرج ( بفتح الحاء والراء ) ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج .... »



الله . ومع أن الجهاد كان واجب الرجال ، فانّ النساء أيضاً كُنّ يشترِكن في الحرب تطوّعاً من عند أنفسهن ، فربّما قاتَلْن العدوّ وربّما اكتَفَيْنَ بحمل الماء والغذاء وتحميس الرجال والعناية بالجَرْحى .

والغاية الاساسية من الجهاد كانت حمايةَ الدين والدفاعَ عن الجماعة الإسلامية وقتال أعداء الدعوة الاسلامية الذين كانوا يقاومون نشر الدعوة بالطرق السلمية المألوفة . ثمّ لمّا أصبح الاسلام دولةً لم يكن له بُدّ من أن يجعل الجهاد ( الحرب ) وسيلة من وسائل المحافظة على الدولة .

وطبيعة الجهاد كانت تتبدّى في ما يلي :

١ – كان الجهاد تَعَبّداً – طاعةً لأمر الله – يقوم به المسلم في الدنيا لينالَ رضا الله في الآخرة .

٢ – كان حرباً دفاعيّة ، اذ كان في الدرجة الاولى ردّاً لاعتداء أعدائه ؛ قال الله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تَعْتَدوا ؛ إنّ الله لا يحب المعتدين » ( ٢ : ١٩٠ ، سورة البقرة ) .

٣ – كان استعداداً للحرب في سبيل إتباب السلام : كان المقصودَ من ذلك أن يكون المسلمون في حال تأهّبٍ للقتال فيهابُهم أعداؤهم فيسودُ السلام . أمّا ما دام أعداء المسلمين مائلين الى السلْم لا يُثيرون على المسلمين حرباً ولا يحاولون اثارة الحرب فعلى المسلمين أن يتركوا الحرب ويحافظوا على السلم ، قال الله تعالى : « وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ ومن رباط الخيلِ تُرهبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم نحن نعلمهم . وما تُنْفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ اليكم وأنتم لا تُظلمون . وان جَنَحوا للسَّلْم فاجْنَحْ لها وتوكّلْ على الله ، إنّه هو السميع العليم » ( ٨ : ٦٠ – ٦١ ، الانفال ) . وهكذا كان الجهاد حرباً وِقائية .

٤ – ولم يكن الجهاد حرباً جَماعيّة ، فالمسلمون قد أُمِروا بقتال الذين يقاتلونهم في الميدان أو يُساعدون أعداءهم بالقتال وبتقديم السلاح ونقل

الاخبار وما شابه ذلك . والاسلام يأمر بترك التعرّض لمن ليسوا « أهل حرب » من النساء والوُلدان والشيوخ والرهبان أو من القادرين على حمل السلاح ممّن لم يحملوا السلاح ولم يقاتلوا أو يُعينوا على القتال .

٥ – وكذلك لم يكن الجهاد حرْبَ إبادةٍ واستئصال [1] ، فقد أمر الاسلام بألاّ يتتبّعَ المسلمون الفارَّ وألاّ يُجهزوا على جريحٍ او يقتلوا مَن استسلم اليهم أو وقع في يدهم أسيراً .

(١) هذا لا ينطبق على المشركين من العرب الذين كان الدخول في الإسلام واجباً عليهم ، ولم يكن يقبل من أحدهم شيء غيره .



# عصر الخلفاء الراشدين
## والجانب الحضاري منه

عصر الخلفاء الراشدين هو الحِقبة التي امتدّت من وفاة الرسول ( ١١ هـ = ٦٣٢ م ) الى قيام الدولة الامويّة ( ٤٠ هـ = ٦٦٠ م ) وجاء فيها الى الحكم أربعةٌ من أصحاب رسول الله : أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ .

**أبو بكرٍ الصدّيق**

لما تُوُفّيَ محمدٌ رسول الله اختلف رؤساء الجماعة في المدينة على من يخلفه ، فحسم عمر بن الخطاب الخلاف بمبايعة أبي بكرٍ عبد الله بن أبي قُحافة . وكان أبو بكر صَديقاً للرسول ومن الأوّلين الذين دخلوا في الاسلام .

الردّة :

في أيام الرسول كانت الصدَقاتُ ( الزكاة ) [1] تأتي من الأقطار المختلفة في شبه جزيرة العرب الى الرسول في المدينة . وكان الرسول ينفق هذه الصدقات المجموعةَ في وجوهها ويرسل الى كلّ قطر ما يحتاج ذلك القطر اليه .

وبعد وفاة الرسول رفضت قبائلُ من العرب أن ترسلَ الصدقاتِ الى المدينة ، كما كانت تفعل في عهد رسول الله ، وأرادت أن تَستوفيَ حاجتَها من تلك الصدقات أولاً ثمّ ترسل ما يفيض عن حاجتها الى المدينة . وأبى

(١) راجع ١٢٢ ، ١٣٠ .

أبو بكر أن يقبل ذلك وقال قوله المشهورَ : « والله ِ ، لو منعوني عِقال[1] بعيرٍ كانوا يؤدّونه الى رسول الله لحاربتهم عليه » .

وبما أن الزكاة ركنٌ من أركان الاسلام ، وبما أن عمل رسول الله كان سُنّة واجبةَ الاتّباعِ ، فقد عدّ أبو بكر سلوك هذه القبائل في مخالفة سُنّةِ رسول الله والامتناع عن إرسال زكاتها الى المدينة هَدْماً لركن من أركان الاسلام وارتداداً عن الاسلام نفسه فعزم على محاربة تلك القبائل . ويبدو أن نفرا من الصّحابة فيهم عمرُ بن الخطاب لم يَرَوْا في أوّل الأمر رأيَ أبي بكرٍ وخالفوه في محاربة تلك القبائل ثمّ إنهم أدركوا الحكمة من عَمَلِ أبي بكرٍ ( تلافيَ كل ثُغْرة في الحكم ) فوافقوه على الحرب .

جمع القرآن :

وفي تلك الحروب التي عرفت بحروب الردّة قتل من الفريقين ( من المسلمين ومن المرتدّين ) عدد كبير جداً واستُشْهِدَ من القُراء ( حفَظَة القرآن الكريم ) بِضعُ مئاتٍ ، فخاف عمر بن الخطاب أن يَحْدُثَ في الاسلام حادثٌ آخرُ ويموتَ نفر كثيرون آخرون من القراء ويضيعَ جانب من آيات القرآن الكريم وسُوَرِه . وأشار عمر على أبي بكر بأن يجمعَ القرآنَ : أي أن يَضمّ جميعَ سُوَرِ القرآن الكريم في مُصْحَف ( كتاب مجلّد ) واحد .

ليس معنى جمعِ القرآن أنّ القرآن دُوّنَ في أيامِ أبي بكرٍ ، كما يظن نفر من غير المسلمين ، فالقرآن كان مدوّناً مرتّباً منذ أيام رسول الله ، غير أنّ سوره كانت مفرّقة في صُحُفٍ مختلفة ، بالاضافة الى أن القراء كانوا يحفظون سُوَراً من القرآن غَيْباً . إنّ جمعَ القرآن لم يكن سوى ضمّ هذه السور المدوّنة على صحف متفرّقة في مصحف واحد .

بدء الفتوح :

ومنذ أيام أبي بكر بدأ فتح الشام والعراق . ولكنّ أبا بكر توفّي ( ١٣ هـ = ٦٣٤ م ) قبل أن يكون المسلمون قد استقرّوا في بلدٍ من البلاد .

(١) عقال : زكاة عام واحد .



## عمر بن الخطاب

جاء عمر بن الخطّاب بعهدٍ من أبي بكر فقَبِلَ مُعْظَمُ أهل الحلّ والعقد ذلك وبايعوا عمر .

لقب خليفة ولقب « أمير المؤمنين » :

لمّا تولّى أبو بكرٍ الحكمَ كان الناسُ يسمّونه « خليفة رسول الله » تسميةً لُغوية لأنّه خَلَفَ رسولَ الله ( جاء بعده ) . فلمّا تولّى عُمَرُ بدأوا يسمّونه « خليفةَ خليفةِ رسولِ الله » ثمّ استثقلوا ذلك في اللفظ فسمّوْه « أميرَ المؤمنين » ، ثمّ جازت هذه التسمية فتسمّى بها معظم الذين تَوَلّوُا الحكم العامّ في الاسلام .

الفتوح :

وفي أيام عمرَ بنِ الخطاب اتّسعت الفتوح الاسلامية : فَتَحَ العربُ الشام والعراق ومصر وفارس في مدّةٍ يسيرةٍ وبسهولة . ان أهل الشام والعراق ومصر وفارس كانوا يعيشون في ظلم اجتماعيّ وقلق روحيّ ، فلمّا جاء العرب اليهم بالعدل وبالاطمئنان دخل اهل تلك البلاد في دين الله أفواجاً : منهم مَنْ دخل إيماناً واعتقاداً ، ومنهم من آمن هرباً من الظلم الذي كان يُعانيه ، ومنهم من فرّ مِنَ استبداد قومه الى عدل العرب ، ومنهم من دخل في الاسلام جرّاً لمغنم من مغانم الدنيا لأنّ الاسلام كان يُسوّي بين جميع أتباعه في كلّ شيء : في المغانم والمناصب والوجاهة والحريّة وغيرها .

الإدارة :

لمّا فتح العرب البلاد التي كانت خاضعةً للفرس والروم أقرّوا النظام الاداريّ الذي كان مألوفاً في تلك البلاد ، حتّى أن اللغاتِ الرسميّةَ ( لغةَ الادارة المالية — سِجلاّتِ الدولة ) كانت البهلويّة ( الفارسية القديمة ) في العراق ، واليونانية في الشام ، والقبطية ( المصرية القديمة ) في مصر . على أن هذا لم يمنع أن تكون الدواوين المركزيّة التي نشأتْ في المدينة ( كديوان

الجيش وديوان الأُعْطِيات ـــ وهما ديوانان قريبٌ أحدُهما من الآخر ـــ أن تُكْتَبَ باللغة العربية منذ نشأتها .

الدولة الاسلامية :

على أن عمرَ بنَ الخطّاب جعل هذه الدولة الجديدة دولة اسلامية هي الدولةُ الاسلامية الصحيحة التي عرَفها المسلمون في تاريخهم . لقد كانت خصائص هذه الدولة ثلاثاً :

أ ـــ لم يكن فوق يد الخليفة عمرَ بنِ الخطّاب سلطةٌ لا في داخل البلاد (كما اتّفق في أيام أبي بكر من النزاع في حروب الردّة وكما اتّفق في أيام عليّ حينما انقسمت السلطة السياسية بين خليفتين ) ولا في الخارج ( فانّه لم يكن في أيام عمرَ بن الخطّاب دولة أجنبية تستطيع أن تتدخّل مباشرة أو غير مباشرة في شؤون الدولة (كما اتّفق في أيام الدولة الاموية حينما اضطرّ معاويةُ وعبدُ الملك الى أن يَتَرضّيا ملوكَ الروم ويدفعا لهم إتاوة ليدفعا شرّهم عن بلاد الاسلام ) .

ب ـــ لم يكن في الدولة حكْمٌ لغير المسلمين (كما اتّفق في أيام الفاطميّين في مصرَ مثلاً وكما اتّفق في دويلة بني زيري في غرناطة ـــ الاندلس ـــ حيث كان لليهود نفوذ مستطيل ) .

جـ ـــ كان عمر يُطَبّقُ في الدولة مبادىء الاسلام تطبيقاً تامّاً صحيحاً .

الحضارة :

بدأ العرب منذ أيام عمر يتأثّرون بحضارات البلاد المفتوحة فحَرَص عمر على أن يخفّف من هذا التأثير ما استطاع :

منع نزولَ المجاهدين في المدن المفتوحة ولم يَسْمَحَ لهم أن يتزوّجوا نساءً من هذه البلاد لئلا تَفْتُرَ حَمِيّتُهم وتنكسرَ فيهم شوكةُ الفتح . ولقد أمرهم عمر أن يحملوا أهلَهم معهم أو أن يَرْجِعوا الى أهلهم مرة في



كلّ أربعة أشهر . ولم يسمح لهم أن يتّخذوا أرضاً يزرعونها في البلاد المفتوحة .

وجعل عمرُ غيرَ المسلمين من أهل الذِمّة (اليهودِ والنصارى خاصّة ) طبقةً خاصّة أعفاها من الجِهاد وفرض عليها جِزية يسيرة[1] في مقابل ذلك وفي مقابل رِعايتها أيضاً : رأى عمرُ مرّة في المدينة رَجُلاً مُسنّاً يستعطي فسأل عنه فقيل له : هذا ، يا أميرَ المؤمنين ، يهوديّ » . فقال لهم : « أيجوز لنا أن نأخذَ منه في شَبابه جزية ثم نَتْرُكَه في شيخوخته يستعطي حتى يعيش . اعطوه من بيت المال ما يكفيه ! » .

وسَمَحَ عمرُ لأهل الذِمّة أن يكون لهم قضاءٌ فيما بينَهم خاصّ بهم .

ثم إنّ عمر أجلى المشركين عن شِبه جزيرة العرب وألغى نصيب المؤلّفةِ قلوبُهم من بيت المال :

كان نفر من المسلمين الذين لم تكن قلوبهم بعدُ مطمئنّة بالايمان ونفرٌ آخرون من غير المسلمين يُخاف شرّهم على الإسلام أو يُرجى دخولُهم في الاسلام يُعْطَوْنَ نصيباً من بيت المال ، وكانوا يُعْطَوْنَ ذلك منذ أيام الرسول . ألغى عمر العطاء لهم وقال : هذا شيءٌ كنّا نفعله يومَ كان الاسلام لا يزال ضعيفَ الانتشار ضعيف الدفاع عن نفسه يحتاج الى أن يدفع شرّ هؤلاء عن نفسه أو أن يَقْوَى بهم . أما الآن فقد أغنى الله عنهم بقوّة الاسلام ، فمَنْ شاء فليُؤمِنْ ومن شاء فليَكْفُرْ !

## عثمان بن عفّان

مَعَ مجيء عثمان بن عفّان الى الخلافة ( ٢٣ هـ = ٦٤٤ م ) نشأ في الاسلام طبقة حاكمة ، ذلك لأنّ عثمان كان شَيْخاً مُسِنّاً طيب القلب فتسلّط عليه قومه بنو أميّة فكان كاتبُه مروانُ بن الحَكَم بن العاص بن أميّة على

(١) أربعة دنانير في العام على الأغنياء وديناران على متوسطي الحال ودينار واحد على الفقراء. ويعفى من الجزية النساء والطاعنون في السن والأطفال والرهبان والمرضى والعاطلون عن العمل .

صلة دائمة بوالي الشام مُعاوية بنِ أبي سُفيان بن حربِ بن أميّة ، وكان الاثنان يديران الدّولة إدارة أمويّة عصبيّة : ملأوا المناصب بالأمويّين وقدّموا الشُبّان الأغرار من بني أميّة على الجِلّة العاقلين من سائر المسلمين .

الفتوح في البحر :

في أيام عثمان استمرّتِ الفتوحُ في المَغْرِبِ (في ليبيا وتونس) خاصّة ، وكانت الحرب بين المسلمين وبين الروم والمشركين من أهل تَيْنك المقاطعتين سجالاً . وفي أيام عثمان بنى معاوية أسطولاً شامياً وبدأ يفتح في البحر . ثمّ أصبح في مصرَ أسطولٌ آخر . والى هذين الاسطولين يَرْجِعُ الفضل في انتصار المسلمين على الروم في شرقيّ البحر الابيض المتوسّط وفي زوال الخطر الرومي عن سواحل الشام خاصّة .

وعَظُمَ الاضطراب في أيام عثمان لأنّ القبائلَ العربية وأهل المقاطعات قد بدأوا يخسرون نفوذهم السياسي وحقوقهم وغنائمهم الاقتصاديّة بعد أن استبدّ بنو أميّة بكلّ ذلك . ثمّ حدثت أول ثورة في الاسلام فقُتِلَ فيها عثمان بن عفّان .

## عليّ بن أبي طالب

جاء علي بن أبي طالب الى الحكم (٣٥ هـ = ٦٥٦ م) والبلاد مضطربة ؛ ثم نَصَبَ معاويةُ العداوةَ والحرب لعليّ فزاد الاضطراب وتوقّفتِ الفتوحُ في البر والبحر . ثمّ انقسم المسلمون شيعةً (أنصاراً للامام علي على بني أميّة) وعثمانيّين (حزباً يرى أن عثمانَ بنَ عفّان قُتل مظلوماً ويجعل الخليفة علياً مسؤولاً عن الاقتصاص من قاتلي عثمان) ، وكان هوى هؤلاء بطبيعة الحال مَعَ مُعاويةَ بن أبي سفيان . هذا النزاع العنيف كان نزاعاً سياسياً على الخلافة ولم يكن قد حالَ بعدُ خِلافاً دينياً .

هذا النزاع أعاد الى المسلمين شيئاً من الحميّة الجاهلية التي كان الاسلام



قد قضى عليها ، فاذا حسّانُ بن ثابتٍ شاعرُ الرسول يهدّد أنصار علي ويتوعّد بني هاشم خاصّةً (آل عليّ) فيقول :

يا ليتَ شعري ، وليتَ الطيرَ تُخبّرني ... ما كان شأنُ عليّ وابنِ عفّانا؟
لَتَسْمَعُنّ وشيكاً في ديارِهِمُ : ... اللهُ أكبرُ ، يا ثاراتِ عُثمانا !

وسَرْعانَ ما خرج هذا النزاع من الكلام الى القتال فَنَشِبَتْ بين الامام عليّ وبين طلحةَ بن عُبيد الله والزُبير بن العوّام وعائشةَ زوجِ رسول الله حربُ الجَمَل على مَقْرُبة من الكوفة انتصر فيها عليّ ولكنّه خسر كثيراً من قوّته المادّية ومن أنصاره أيضاً . ثمّ أثار مُعاوية على عليّ الحرب والتقاه في معركة صفّين . وقد كان لمعركة صفّين خاصّة نتائجُ سياسيةٌ وحضارية مهمّة جدّاً في تاريخ الاسلام :

أ — كان الامامُ عليّ قد نقل العاصمة — عاصمة رسول الله — من المدينة الى الكوفة فمهّد السبيلَ بذلك إلى أن يَنْقُلَ معاوية الخلافة من الكوفة الى دِمَشْقَ .

ب — أصبح في الاسلام خليفتانِ فانشطر العالم الاسلامي شَطرين يمثّلان اتّجاهين سياسيّين سَرْعانَ ما حالا اتّجاهين دينيّين . ولقد امتلأ تاريخ الاسلام بالمآسي التي تَرْجِعُ بأسبابها الى هذا الاختلاف الأوّل . وكذلك نشأ من جرّاء هذا الاختلافِ نظرياتٌ سياسية وإيمانية وفقهية واجتماعية أضعفت العالم الاسلاميّ حِقبة طويلة من الزمن ولا تزال تضعفه في بعض جوانبه .

ج — نشأة الشيعة والخوارج :

كان الشيعة في أوّل الأمر أنصاراً سياسيّين للامام عليّ . أما الآن فقد أصبحوا جَماعةً قريبة من أن تكون حزباً . وكانت نظرية هؤلاء أن الخلافة «مَنْصِب ديني لا غنىً عنه ، وأنه يكون بالوراثة في علي بن أبي طالبٍ بوصيّة من رسول الله نصّاً وتعييناً ثمّ في أبناء عليّ من فاطمة بنت محمد رسول الله » .

أما الخوارج فهم أيضاً من الشيعة :

بعد أن انقسم العالم الاسلاميّ بين معاوية وعليّ جاء جماعة من شيعة عليّ الى عليّ وقالوا له : « إمّا أن تكون أنت على حقّ في القيام بأمر الخلافة وإمّا أن يكون معاوية على حقّ في المناداة بنفسه خليفه (لمكان شعوره بالقوّة على ذلك) . فاذا كان هو على حقّ ، فاترك الخلافة كلّها له واخلع نفسَك منها . وان كنت أنت على حقّ ، وكان هو مغتصباً ، فسرْ بنا اليه نقاتله » .

كان عليّ يعتقد أن معاوية كان ظالماً في سلوكه السياسيّ ولكنّه لم يكن قادراً على قتاله ، فلم يوافق على طلب هذه الفئة من أتباعه ، فخرج هؤلاء الاتباع من صفوفه (من جيشه) فسُمّوا الخوارجَ .

انطلق الخوارج في جدالهم السياسي من القول بأن « الخلافة » أمـر دُنْيَويّ غايته الدِفاعُ عن الدين وتدبير أمور الناس . فاذا استطاع الناس أنْ يُسيّروا أمورهم بأنفسهم لم يَبْقَ من حاجة الى خليفة . وكذلك رأوْا أن العمل الأول للخليفة كان الدفاعَ عن الدين ، فاذا لم يكنِ القائم بأمر الخلافة قادراً على ذلك فلا يكون خليفةً . من أجل ذلك بدأ الخوارج ، بعد جِدالهم الاول مَعَ علي ، بقتال معاوية وعليّ معاً .

وكان الخوارج ، منذ أول أمرهم أيضاً ، مُتَشَدّدين في ما كانوا يَرَوْنَ أنه الحق : لقد قتلوا على الذنبِ الكبير والذنب الصغير واعتقدوا أن الكَذِبَ اليسيرَ مُخْرِجٌ من الاسلام كالاشراك بالله سواءً بسواء .

**مدرك الحكم**
**في أيام الخلفاء الراشدين**

إنّ نظام الحكم في الاسلام هو النظام الذي جاء في القرآن الكريم : تنفيذُ ما جاء في الاسلام من المبادىء مع **الشُورى في طريقة التنفيذ** . فالرسول والخلفاء من بعدِه لم يَضَعوا أسساً للحكم ولكنّهمُ **اجتهدوا في تنفيذ مبادىء الإسلام** .



والسلطة الّتي تحمل الناس على إقامة الدين واجبةٌ ، والإمارة الّتي هي وِلاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، كما قال الامام ابن تَيْمِيَّةَ ، اذْ لا قيامَ للدين نفسِه إلاّ بها . وأوّل ولايةِ الامر النظرُ في مصالح المسلمين . ولا غنىً لوليّ الامر عن المُشاورة . وقد كان محمّدٌ رسولُ الله كثيرَ المشاورة لأصحابه ، وكان يعمل بما كان يوافق القرآن الكريم من آرائهم .

وأولو الأمر ليسوا رجالَ السياسة فقط ، بل رجال العلم ايضاً ، فهؤلاء كلّهم ذَوُو أثرٍ في حمل الناس على التعاون على البِرّ والتقوى والحَيْلولة بين الناس وبين التعاون على الاثم والعدوان .

طريقة اختيار الخلفاء الراشدين :

الثابتُ في التاريخ أن الرسول لم يُوصِ بالأمر بعده الى أحدٍ صَراحةً ولا تلميحاً يشبه الصراحة . من أجل ذلك لم نر الصحابة يَسْلُكون طريقاً واحداً في اختيار الخلفاء الراشدين ، بل سلكوا في ذلك طُرُقاً مُتعدّدةً :

جاء أبو بكرٍ بتقديم من عُمَرَ بن الخطّاب فبايعَ الكَثْرة من أهل الحلّ والعقد في المدينة أبا بكرٍ ثمّ تَبِعَهم سائرُ المسلمين .

ولمّا حَضَرَتِ الوفاةُ أبا بكرٍ عَهِدَ بالخلافةِ الى عُمَرَ بنِ الخطّاب ليكون خليفةً بعده . وأجاز المسلمون ذلك وبايعوا عمر .

ولمّا طَعَنَ أبو لؤلؤةَ الفارسيّ عمرَ بن الخطّاب عيّن عُمَرُ سِتّةَ نَفَرٍ من وجوه أهل المدينة ومن الذين كانوا طامحين الى الخلافة وأمرهم أن يختاروا واحداً منهم للخلافة فاختاروا — في حديثٍ طويل — عثمانَ ابنَ عفّان ، ورَضِيَ المسلمون بذلك .

ولمّا اضطرب الأمر بعد مقتل عثمان حتّى أصبح فوضىً أجمع رجال الوفود الآتون من أقطار الدولة الاسلامية على اختيار عليّ بن أبي طالب وبايعوه فبايعهُ جميع المسلمين .

ومع أن هذه الطرق تختلف فيما بينها في مقـدار ما فيها من الشورى الصحيحة ، فانّ كلّ طريق منها كانت في حينها أسلم الطرق وأجمع الطرق في الحفاظ على مصلحة المسلمين .

ولم يكن في صدر الاسلام الاول مَنْصِبٌ للوزارة ، ولكنّ كلّ صحابي كان يقوم للخليفة بالنصيحة ، كما كان الخليفة يشاور الصّحابة في جميع الامور . ولقد كان رسول الله يستشير أبا بكرٍ وعمرَ في أمور كثيرة حتى جاز أن يُسمّيا وَزيرَيْ رسول الله . وكان عمرُ مسموعَ الرأيِ في أيام أبي بكر حتى قيل فيه إنّه كاد أن يَشْرَكَ أبا بكرٍ في الحكم . فأبو بكر لم يُسَيّرِ الجيوش الى قتال أهل الردّة حتى اطمأن عمر الى وجوب ذلك . وأبو بكر لم يكن مطمئناً الى جمع القرآن الكريم [1] حتى أقنعه عمر بذلك . وكذلك كان عمر في أيام خلافته كثير الاستشارة لعليّ بن أبي طالب حتى قال عمر مرّة : « لولا عليٌّ لهَلَكَ عمر ! » .

وكان الحكم في صدر الاسلام الأوّل « رِعاية » يقوم بها الخليفة نحو الناس كلّهم : انّه كان يهتمّ بكل شيء حتى روي عن عمر بن الخطّاب قوله : « لو أن شاة ضاعت على نهر الفرات لظَنَنْتُ أن الله سيسأل عمر عنها ! » وكان الخليفة يعيّن جميع الولاة والعُمّال ( جامعي الزكاة ) والقضاة والقوّاد تعييناً مباشراً فيكونون مسؤولين أمامه ويكون هو مسؤولاً عند الرعيّة عن أعمالهم .

(١) رجع ، فوق ، ١٥٠ .



# صُورَة الحياة في العصر الأموي

## نظام الحكم والادارة

كان شكل الحكم في الدولة الاموية « مُلْكاً مطلقاً يرتكز في ظاهره على الوازع الديني » . أما أنه مُلْك فلأن الخلافة كانت قد انقلبت من شورى صحيحة الى شورى شكلية ، وأصبح انتقالها من خليفة الى خليفة بالارث . وأما انه كان مطلقاً فلأن الخليفة لم يكن يتقيد في حكم البلاد الاسلامية وادارتها بدستور موضوع ، ولم يكن هنالك مجالس ثابتة رسمية . ولقد كانت السلطات الثلاث : التنفيذية والتشريعية والقضائية تجتمع في شخص الخليفة . وأما ان هذا الملك كان يرتكز **في ظاهره** على الوازع الديني فلأن الخلافة الاموية كانت **في ظاهرها** تتمة لدولة الخلفاء الراشدين ، ولا عبرة بالبَيْعة الدينية التي كانت تسبق تنصيب الخليفة الأموي الجديدة ، ولا بالأيمان التي كان يقسمها المبايعون « اذ كان الإكراه فيها اكثر وأغلب » .

وهكذا كان الخليفة الأموي رئيس الدولة والمتشرع والقاضي والقائد في الجيش والامام في المسجد . ومع أن الخليفة الأموي لم يُرِدْ احياناً ان يتحمل جميع هذه التّبِعات ، أو لم يستطع ذلك ، فانه كان دائماً يعين الذين يجب ان يقوموا بها رأساً تعييناً شخصياً . وكان جميع القضاة والولاة والقواد مسؤولين تجاهه .

ولما تولى الفرعُ المرواني الخلافة جعل ولاة الأمصار كلهم من أهل البيت المالك (ما عدا العراق. ولكن اتفق ان كان في العراق قبل الحجاج بِشر بن مروان، أخو عبد الملك). والظاهر من هذه السياسة ان الخليفة كان يريد ان يجعل ولاة الأمصار من اعضاء أهل البيت المالك ليصرف أولئك الأعضاء عن التفكير في طلب الخلافة اذا كان قد سبق لهم ان فكروا فيها.

وكان جميع الخلفاء الامويين عرباً اقحاحاً، من جهة الأب والأم، ما عدا يزيد الثالث (ابن الوليد بن عبد الملك بن مروان) فانه كان ابن أمَة.

### ولاية العهد

ومع ان معاوية قد جعل الخلافة وراثية فانه لم يكن هنالك نظام ثابت لتوارث الملك. لقد كان المفهوم منها ان تنتقل الخلافة دائماً الى أفضل فرد في الأسرة الاموية الحاكمة، وليس من الضروري ان تنتقل من الأب الى ابنه — وان كان اكثر الخلفاء قد حرَصوا على نقلها الى ابنائهم — فقد انتقلت من معاوية الى ابنه يزيد، كما انها انتقلت من الوليد الى أخيه سليمان ثم انتقلت من سليمان الى ابن عمه عمر بن عبد العزيز.

ويدافع ابن خلدون عن ولاية العهد (مقدمته ٣٨٧) بأن ولاية العهد (أي مجيء خليفة بعد آخر) كانت الشورى المطلقة بين جميع المسلمين حينما كان «الوازع الديني» قوياً جداً في النفوس، فكان الجميع يتوخَّوْنَ المصلحة العامة. أما بعد ان ضعف الوازع الديني وقوي الوازع العصباني (وازع العصبية)، فلو عهد (خليفة) الى غير من ترتضيه العصبية لَرُدَّ العهد وانتقض أمره (أمر العهد) وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف. والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه (مع انه كان يومذاك في غير بني أمية، وفي بني أمية أنفسهم، من هو أفضل من يزيد) انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق اهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ مِنْ بني أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يَرْضَوْنَ سواهم — وهم



عِصابة قريش، وأهلُ الملة اجمعُ وأهل الغَلَب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يُظن أنه أولى بها، وعَدَل عن الفاضل الى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهمّ عند الشارع ...».

### السلطة التشريعية

لم يكن في الاسلام سلطة تشريعية ولا جاز ان يكون هنالك مثل هذه السلطة، لأن القرآن الكريم كان شريعة مُنْزلة، وكان الحديث الشريف متمماً لتلك الشريعة. وعمل الخليفة كان تنفيذ الشريعة المنزلة، لا وضع شرائع جديدة.

ولكن الفقهاء كانوا أحياناً يختلفون في تأويل بعض الآيات او تفسير شيء من الحديث فنشأت حاجة الى «المجالس الخاصة»، وهي ان يدعوَ الخليفة بين حين وآخر نفراً من الصحابة أو التابعين أو بعض العلماء المعروفين يسامرهم في الأدب والفقه والسياسة والأخبار ليتفقه منهم في بعض وجوه السياسة والادارة أو ينظر في الحقيقة الى حاجة الدولة الاسلامية في أقطارها المختلفة. وقد كان الخليفة أحياناً يستقدم الوفود من البلدان المختلفة يستخبرهم احوالَ بلادهم، كما كان يفعل معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز. وكثيراً ما كان الخليفة يعتمد على الولاة انفسهم في ذلك.

وقد تَعرِض مشكلة خاصة فيجتمع بنو أمية — كما فعلوا في الجابية بعد موت معاوية بن يزيد — أو يجتمع الخليفة ببعض زعماء الأقطار كما اتفق لعبد الملك حينما عظمت نقمة العراقيين على الحجاج، أو كما اتفق في مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج وفي استدعائه وفداً من سكان بلاد ما وراء النهر. وهكذا نرى ان الحاجة مسّت منذ أيام بني أمية الى تقليب النظر في أحوال البلاد في الناحية السياسية والناحية الدينية ايضاً.

### القصر والمسجد

ولم يكن للحكومة مكان خاص مستقل، بل كان الخليفة يباشر الأعمال

في بيته . وكذلك كان يفعل الوالي . وكان معاوية يستقبل مساعديه ووزراءه في بيته الخاص الملاصق للجامع الأموي ، وكان سريره أيضاً في بيته . أمّا القضاء فكان الخليفة يباشره في المسجد لا في بيته . فبيت الخليفة اذن كان مستقر السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية ( أي القصر ) ، وأما المسجد فكان المحكمة .

ولقد درج الخلفاء كلهم الى أيام بني العباس على ان يكون القصر ملاصقاً للمسجد كما نرى في دمشق وبغداد . وعلى هذا سار الولاة ايضاً كما نرى في الكوفة حيث نجد المسجد لصيق دار الأمارة ، وكما نرى في واسط .

### السلطة التنفيذية

كان الخليفة يدير البلاد الاسلامية شخصياً أو كان يعين مِن قِبَله مَن يدير بعض المقطعات أو الأعمال . على ان الأمويين لم يفصلوا تماماً بين أعمال هؤلاء الولاة والقضاة والقواد ، فالمهلّب لم يكن قائداً فقط بل كان والياً وعاملاً ايضاً ، وكان له حق التصرف بما يَجبي من أموال البلاد التي في المشرق ، وبأن يدير مقاطعته ويعين لها في حياته أو بعد موته من يشاء . وكذلك الحجاج فقد عينه عبد الملك والياً على العراق ، ولكنه كان يفصل في الدعاوى ويعاقب ويقضي ويقود الجيوش ويوجهها الى الفتح ويعين الولاة على البلاد التي فتحتها جيوشه .

غير أن أحوال الحياة والحكومة كانت في أيام بني أمية قد تشعبت وجوهها ، وأصبحت البلاد بحاجة الى ما يسمى اليوم بالوزارة . فاتخذ الأمويون منذ أيام معاوية المساعدين أو الوزراء كما كانوا يُدعَوْنَ أيضاً : فالمهلّب والحجاجُ كانوا من وزراء بني أمية لا بمعنى ان منصب الوزارة كان قد أصبح محدوداً معروفاً ، بل بمعنى ان هؤلاء كانوا يساعدون الخلفاء ويقومون بجميع الأعمال التي يقوم بها الوزراء عادة في كل زمن .

وقبل التبسط في الإدارة الأموية يجب ان نعلم شيئاً عن الوزارة الى أيامهم :



لا شك في ان العرب عرفوا الوزير بمعنى المساعد والشريك في الأمر ، والذي يساعد في حمل الاعباء ، كما جاء في قوله تعالى « واجعلْ لي وزيراً من أهلي : هرون أخي ، اشْدُدْ بهِ أزْري وأشْرِكْه في أمري » .

وكذلك رأينا في أيام الرسول ان ابا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم يستشيرهما في المُلِمّات ، ويساعدانه في تسيير الأمور . وكذلك كان عمر وزيراً لأبي بكر . ثم جاء عثمان بن عفان فكان مروان بن الحكَم كاتباً له وأميناً ينفذ عنه كل ما شاء . ولم يتأخر الامام علي عن استشارة بعض اعوانه من الصحابة في كثير من الأمور .

فلما جاء بنو أمية اختاروا مساعديهم من أهل الدنيا لا من أهل الدين ، كعمرو بن العاص وزياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف ، وهكذا اخذت الادارة الاسلامية منذ أيام الامويين تكتسب الصبغة السياسية الحديثة . غير أنها عادت في أيام عمر بن عبد العزيز سيرتها الدينية الاولى ، فقد كان لعمر ثلاثة نفر يأخذ بآرائهم في كل شيء هم أخوه سهل ، وابنه عبد الملك ، ومولاه مزاحم ، وكان اتّجاه هؤلاء دينياً مثل اتجاه عمر بن عبد العزيز نفسهِ لا دنيوياً كاتجاه زياد والحجاج .

وكان **معنى الوزارة في بني أمية** « حجب العامة عن الخليفة والقيام بالأعمال الإدارية » . قال ابن خلدون ( مقدمته ٤٢١ ) : « وقد جاء ان عبد الملك لما ولّى حاجبه قال له قد وليتك حجابة بابي الا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فانه داعي الله ، وصاحب البريد فأمرٌ ما جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسُد . ثم استفحل الملك بعد ذلك ... وكانت الوزارة أرفع المراتب في دولة بني أمية ، وكان النظر للوزير عامّاً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلية وغير ذلك » .

## رأس السلطة التنفيذية

تشمل السلطة التنفيذية اليوم « الوزارة التي تقوم بتنفيذ ما تقره السلطتان التشريعية والقضائية » باسم الملك في البلاد الملكية وباسم الشعب في البلاد الجمهورية . أما في صدر الاسلام فقد كانت هذه السلطات مجتمعة في شخص الخليفة . ومع أن معاوية اتخذ المساعدين والوزراء ، فانه لم يتخلّ عن النظر شخصياً في أمور الدولة ، لقد كان يستعرض الشؤون العامة مرتين كل يوم على الأقل : اذ يدخل عليه وزراؤه في الصباح على الطعام فيكلمونه فيما يريدونه من يومهم الى العشيّ ، ثم يدخلون عليه بعد صلاة العشاء فيذاكرونه فيما أرادوا وأصدروا من ليلتهم . ( مروج ٢ : ٣٢٠ ، ٣٣٢ ، و ٣ : ٢٥١ ).

ولكن الخليفة منذ أيام الخلفاء الراشدين كان قد شعر باستحالة الاشراف على الأعمال ، فانشأ الدواوين المختلفة . فلما جاء معاوية كان في الاسلام اربعة دواوين : ديوان الرسائل وديوان الجند وديوان الناس وأعطياتهم وديوان الخراج . ثم أوجد معاوية ديواناً خامساً جديداً هو ديوان الخاتم .

وكانت الخواتم في خزائن الملوك لا تدفعها الى الوزراء . فاطّرد الأمر على ذلك حتى ملك بنو أمية وأفرد معاوية ديوان الخاتم وولاه عُبيدَ بن أوس الغساني وسلم الخاتم اليه ، وكان ( منقوشاً ) على فَصّة « لكل عمل ثواب » . وكان سبب ذلك ان معاوية كتب لعمرو بن الزبير الى بعض عماله بمائة الف درهم ، ففرّق عمرو الهاء وجعلها ياء ، وأخذ مائتي الف درهم . فلما مرت الرقعة بعدئذ بمعاوية ذكر انه لم يَصِلْه الا بمائة الف درهم . فأحضر العاملُ الكتاب ، فوقف معاوية على الأمر فأتخذ ديوان الخاتم [1] .

وفي أيام يزيد بن الوليد أصبح للخاتم ديوانان : ديوان الخاتم الكبير وديوان الخاتم الصغير .

---

(١) الصولى ، أدب الكتاب ( المكتبة العربية ببغداد ، المطبعة السلفية بمصر ١٣٤١ ) ص ١٤٣ .



م كانت الحاجة قد دعت ، منذ صدر الدولة الأموية ، الى دواوينَ جديدة لوجوه الحياة التي استجدت ، فقد رأينا في أيام الوليد بن عبد الملك كاتباً يُكتب له على المستغلاّت بدمشق . وفي أيام سليمان كان عبد الله بن عمرو بن الحارث يكتب له على النفقات وبيوت الأموال والخزائن والرقيق . وفي أيام هشام كان قُبيصة بن ذؤيب يتولى ديوان الصدقة . والكتابة على الصدقة قديمة ، كانت منذ أيام الرسول ، ولكن لم يكن لها ديوان . ثم كان هنالك ديوان الخاصة ، أي الديوان الذي يتولى الاشراف على الأموال والأراضي الخاصة بالخليفة . وربما كان لولي العهد كاتبه الخاصّ به .

وكذلك كان في الأمصار دواوين محلية على غرار تلك التي في العاصمة . أما الدواوين الرئيسية في الدولة الأموية فكانت التي تلي :

( ١ ) ديوان الرسائل : ديوانُ الرسائل يشبه رئاسة الوزارة في أيامنا . فرئيس ديوان الرسائل ، ويسمّى الكاتب ، ينشىء الرسائل التي يبعث بها الخليفة الى الولاة والعمال والملوك الآخرين ، ويتلقى الرسائل التي ترد الى الخليفة . وقد كان الكاتب في أوّل أمره موظفاً بسيطاً لا تتعدى وظيفته استملاء الرسائل من الخليفة . حتى ان بعض الخلفاء ، كعمر بن عبد العزيز كان يكتب رسائله احياناً بيده . ولكن لما تشعبت أمور الدولة أخذ الخليفة يعتمد على كاتبه شيئاً فشيئاً . « فقد كان قُبيصة بن ذُؤيب يكتب لعبد الملك ، وبلغ من لطافة محله منه انه كان يقرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل ان يقرأها عبد الملك ، وكان له ذلك عادة » . وقد تساهل سليمان بن عبد الملك وأمر كاتبه ان يوقّع عنه في رسالة وردت من مَسلمة بفتح بعض بـلاد الروم . ثم أصبح الكاتب مأموناً في كل ما يكتب ، ولا يفعل الخليفة اكثر من أن يوقّع فقط . ولذلك كثيراً ما كان الكُتّاب يتلاعبون بالأمور . فقد « حُكي ان هشاماً أَقْطَعَ قبل ان يلي الخلافة ( ربما في أيام يزيد بن عبد الملك ) ارضاً يقال لها دورين . فأرسل في قبضها فاذا هي خراب . فقال لذُويد ــ كاتب كان بالشام ــ وَيحَك ، كيف الحيلة ! فقال ( ذويد ) ما

تجعل لي؟ فقال هشام: اربعمائة دينار. فكتب (ذويد): «دورين وقراها»، ثم امضاها في الدواوين. فأخذ هشام شيئاً كثيراً ... ولقد حصّل الكتاب انفسهم من مناصبهم اموالاً جليلة. وبلغت الجرأة بالكتاب إلى انّ قَطَناً مولى يزيد بن الوليد، وكان يتولى ديوان الخاتم والحجابة، كتب على لسان الخليفة يزيد بن الوليد كتاباً بولاية العهد لابراهيم بن الوليد وقرأه على الناس فبايعوا لابراهيم خلافاً لإرادة الخليفة المُحْتَضَر.

وقبل ان ينقضي العصر الأموي كانت الكتابة قد أصبحت صناعة ذات قواعد وأصول (في أيام عبد الحميد الكاتب، كاتب مروان الثاني)، وأصبح الكاتب كأنه وزير له رأي في أمور الدولة وله سلطة عظيمة في تسيرها.

وقد جعل سليمان للكتابة هيبة فأمر ان يُكْتَب في الطوامير — القراطيس الكبيرة (الأوراق الرسمية) — بخط حسن كبير منمق. فلما جاء عمر بن عبد العزيز رأى ان ذلك اسراف فأمر بالاقتصاد بالقراطيس، وبأن يُجْعَل الخط ناعماً دقيقاً.

ولقد حرَص الخلفاء كلهم على ألا يتناولَ الكُتّاب الهدايا لئلا يحملَهم ذلك على الخيانة في أموال الدولة وأمورها. ومع كل هذا الحرص فقد وقع في أعمال الدولة كثير من المحذور، وكذلك أجمع الخلفاء على عزل الكاتب اذا قبل الهدية.

وكان هذا الديوان يكتب، منذ ايجاده، باللغة العربية.

(٢) ديوان الجند: كان الجهاد ركناً من أركان الدعوة الاسلامية. وكان الناس يتطوعون للذهاب الى الفتوح تطوعاً حراً بلا قيودٍ لاسمائهم ولا أعْطياتهم ولا للغنائم التي يأخذونها. وظل الأمر كذلك حتى أوجد عمر بن الخطاب ديوان الجند وهو في الحقيقة سجل للجيش. أما الذي دعا عمر الى ايجاد هذا الديوان فهو «ان الهرمزان لما رأى عمر يبعث البعوث



بلا ديوان قال له: ومن يعلم بغَيْبة من يغيب منهم؟ فان من تخلّف أخلّ بمكانه، وانما يضبط ذلك الكتاب». فأوجد عمر ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانساب مبتدئاً من قرابة رسول الله وما بعدها الأقربِ فالاقلِ قرباً، وذلك في المحرم من سنة عشرين (كانون الثاني ٦٤١).

(٣) ديوان الناس وأعطياتهم: هذا الديوان يشبه ديوان الجند، وقد يستنتج من بعض الأقوال انهما واحد. وهـذا الديوان من وضع عمر بن الخطاب أيضاً. يقال إنّ أبا هُريرة أتى من البحرين بمال فاستكثروه وتعبوا في قسمته، فسَمَوْا الى احصاء الأموال وضبط العطاء والحقوق فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال: رأيت ملوك الشام يدوّنون. فقبل منه عمر ذلك الرأي.

(٤) ديوان الخراج: الخَراج هو الضريبة التي تؤخذ على الأرض وقد اختلف العلماء في تحديد الخراج، ولكن الذي يبدو لنا من المصادر ان ديوان الخراج لم يكن فقط للخراج وانما كان لوجوه الأموال كلها، أي أنه كان ديواناً لانواع الضرائب التي كانت الدولة تَجبيها. ولما دخلت بلاد الشرق الأدنى في الدولة الاسلامية كان هـذا الديوان موجوداً ويكتب بلغة البلاد المفتوحة»؛ وبقي بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل: ديوان العراق بالفارسية، وديوان الشام بالرومية، وديوان مصر بالقبطية. وقد كان الذين يكتبون في هذه الدواوين من الذين يعرفون الفارسية أو الرومية او القبطية، ومن غير المسلمين ايضاً: كان سرجون بن منصور الرومي النصراني يكتب على ديوان الخراج منذ أيام معاوية الى أيام عبد الملك. وكتب لمعاوية على ديوان خراج حمص ابنُ أثال النصراني. وكان يكتب لمسلم بن زياد، والي يزيد على خراسان، اسطفانوس. وكان يكتب لعبد العزيز بن مروان والي مصر ايناس بن خمايا، وهو من أهل الرها. وقد كتب على ديوان الخراج رجال من الفرس دخل اكثرهم الاسلام امثال زادويه والد عبد الله بن المقفع، وسارزاد وزادان فرّوخ كاتب الحجاج

ابن يوسف .

وأخيراً أراد عبد الملك تعريب الامبراطورية لأسباب كثيرة .

أ – اعتقاد المسلمين ان اللغة العربية لغة الدين وأشرف اللغات ، فلا يجوز أن تظل سجلات الدولة العربية المسلمة تكتب بغير اللغة العربية .

ب – كانت كتابة الدواوين بغير اللغة العربية حائلاً دون مراقبة السجلات .

ج – كان الذين يديرون الدواوين في الأغلب من غير المسلمين .

د – قويت النزعة القومية العربية في الدولة الأموية فلم يكن الامويون يرضَوْن باستعمال لغة غير عربية في حكومتهم .

وهكذا خطر لعبد الملك منذ سنة إحدى وثمانين للهجرة ( ٧٠٠ م ) ان ينقل الدواوين الى اللغة العربية ، فأمر سليمانَ بن سعد بنقل ديوان الشام . فطلب سليمان مقابل ذلك خراج الاردن عاماً واحداً ( ١٨٠ الف دينار ) . وقد تم نقل ديوان الشام في عام واحد . وأما في العراق وسائر المشرق فكانت الدواوين بالفهلوية ، وكان يكتب على ديوان العراق زادان فروخ ابن بيري ، وكان له معاون اسمه صالح بن عبد الرحمن وهو فارسي الأصل ايضاً . ثم ان زادان فروخ قتل في اثناء فتنة ابن الأشعث ، فلما بدا للحجاج نقل الدواوين عهد بذلك لصالح فنقلها سنة ٧٨ هـ ، أي قبل ان ينقل ديوان الشام بثلاث سنوات .

وبعد نقل الدواوين الى العربية ظل فيها نفر من الموظفين من المسيحيين او الصابئة أو المجوس الذي كانوا قد اتقنوا العربية . ولكن عمر بن عبد العزيز أمر ان يُعَيَّنَ مكانهم موظفون مسلمون .

ويتبع ديوانَ الخراج أنواعُ العملة ، فقد كان المسلمون إلى أيام عبد الملك يستعملون النقود اليونانية أو الفارسية ، وهي مختلفة الأوزان والقيَمِ ، فاتخذ المسلمون عياراً وسطاً وجعلوا الدرهم أربعة عشر قيراطاً فضةً . ثم أنهم



ضربوا الدينار من الذهب ، وذلك سنة ٧٤ أو ٧٥ هـ ( ٦٩٣ م ) . ولكنّ هذه الدنانيرَ وضعت موضع التداول عام ٧٦ هـ . ويقال ان مُصعَب بن الزبير ضرب الدراهم والدنانير قبل ذلك ، في سنة ٧٠ ، بأمر من أخيه عبد الله . وفي سنة ٧١ ضرب الحجاج الدراهم باسمه . ولم يجعل المسلمون في نقوش النقود صوراً بل كلمات من كتاب الله .

ونأتي الآن الى أحكام ديوان الخراج عامة ونظام بيت المال في عهد بني أمية . ويجب ان نلاحظ أولاً ان مصادر بيت المال قد نقصت في بعض النواحي كالزكاة والصدقة وزادت في بعضها كالضرائب التي أخذها الأمويون ولم ينصّ عليها الدين . ثم ان الانفاق من بيت المال أصبح تابعاً لهوى الخليفة لا للشريعة . وكذلك أصبح للخليفة ولأعضاء البيت المالك رواتبُ باهظة من بيت المال .

اولاً – مصادر بيت المال :

أ – الزكاة : وهي مبلغ اثنين ونصف بالمائة من المال المجموع ( ومن الحيوان وثمار الأرض ) اذا مر عليه عام من غير ان يتعلق به دين . وقد قل ورود الزكاة الى بيت المال لأن نفراً من الناس لم يكونوا يرَوْن بَيْعة بني امية صحيحةً ، فلم يكونوا يرسلون زكاتهم الى بيت المال بل كانوا يَهَبونها بطريقة خاصة ، مع ان بعض الفقهاء أجاز تسليمها لبني أمية وولاتهم .

ب – الصدقة : وهي التبرع الحر بالأموال في وجوه الاحسان . وقد قلت الصدقة كالزكاة وللسبب نفسه .

ج – الغنائم : كان الخمس من الغنائم ( الأموال والأشياء المنقولة التي تغنم في الحرب ) يذهب الى بيت المال . والجزية داخلة في الغنائم .

د – العُشر : يؤخذ من أصحاب الأرض الذين اسلموا عند الفتح ، تبقى الأرض ملكاً لهم ويدفعون عنها عشراً فقط . فالعشر اذن زكاة ما

تُنبت الأرض ، وهو يؤخذ من المسلمين . وبعض الفقهاء كانوا يرون ان الأرض يكون عليها إما خراج وإما عشر . وبعضهم كان يقول بأن الأرض يجب ان تدفع خراجها على مساحتها ثم عشراً على ما تنبت من الحب خاصة . ويؤخذ العشر من المسلمين ، أما الخراج فيؤخذ من الذمّيين . فاذا أسلم رجل ذمي تخرج أرضه من الخراج الى العشر . فالخراج اذن ضريبة والعشر صدقة ( زكاة ) . واذا استأجر ذمي أرضاً من مسلم فلا يدفع المسلم عشرها لأن النتاج ليس له ، ولا يدفع الذمي خراجاً لأن الأرض ليست له — بل يُكتفى منه بالجزية .

هـ — الخَرْج : اذا فُتحت بلاد ما صلحاً وأتفق العرب مع أهل البلاد (الذين لم يسلموا ) على مبلغ معين يدفع في كل عام ، فان الارض تبقى حينئذ لاصحابها ويكون لبيت المال ذلك المبلغ الذي اتفق الفريقان عليه .

و — الفيء : وفي حكمه خلاف بين الأئمة . ولكن الأرض التي تفتح عَنوة تكون أرض فيء : تكون الارض نفسها للمسلمين بمعنى انه لا يجوز لاصحابها بيعها ولا الانتقال منها ، بل تعتبر الارض وقفاً وأهلها رقيقاً ونتاجها لبيت المال .

ز — الخراج : الخراج ، ويسمى الطسق أيضاً ، وهو يشبه الفيء من الناحية العلمية على اعتبار ان الأرض تبقى ملكاً لاصحابها ولكن أصحابها يدفعون الخراج عنها بحسب مساحتها . فهم يدفعون عن كل جريب درهماً نقداً وقفيزاً من نتاجها . أما اذا أصاب الغلال آفة او غرقت الأرض فان الخراج يسقط عن صاحبها . وبهذا يختلف الخراج من الخرج ، لأن الخراج نسبة ثابتة معلومة بينما الخرج مبلغ متفق عليه لا علاقة له بقياس الأرض ولا بخصبها ولا نوع ثمرها .

ح — الجزية : الجزية ضريبة تؤخذ عن الاشخاص من غير المسلمين اطلاقاً (من أهل الكتاب : اليهود والنصاري ، ومن أُنْزل منزلتهم من



المجوس والصابئة ، كما تؤخذ أيضاً من المشركين الذين يعدّدون الآلهة ومن عبَدة الأوثان ) . وتؤخذ الجزية من الذكور البالغين الاصحّاء الذين يتكسبون (ولا تؤخذ من الاطفال والنساء وذوي العاهات والرهبان ولا من الطاعنين في السن ) . أما مقدار الجزية فكان مبلغاً ثابتاً مقطوعاً ( مهما كانت ثروة الذي تستحق عليه ) . وقد جعلت الجزية على ثلاث مراتب : أربعةَ دنانير في العام على الموسرين ، ودينارين على متوسطي الحال ، وديناراً واحداً على من دونهم . ويمكن تقسيم الجزية أقساطاً أو تأجيلها الى زمن الغلّة . أما الذي يُسلم فتسقط عنه الجزية . وإذا اتفق أن ذمياً تأخر عن أداء الجزية عاماً أو أكثر ثم أسلم ، فان الجزية المتأخرة تسقط عنه أيضاً .

**والعَرَبُ لا تُقْبَلُ** منهم الجزية ، فقد أمر الاسلام بأن يُقاتل العرب على الاسلام (أي يقاتلوا حتّى يدخلوا في الاسلام وألاّ يُقْبَل منهم غيره ) . وقد استثنى عمر بن الخطاب من ذلك قبيلة تغلبَ النازلة في العراق ، وهم عرب كانوا على النصرانية ، استثناء موقتاً ، فأخذ منهم الزكاة مضاعفة (خمسة بالمائة ) وسكت عن بقاء المعاصرين له منهم على النصرانية ، ولكن شَرَط عليهم ألا يصبغوا أولادهم بالنصرانية (ألاّ يعمّدوهم ) . وقد أثاب عمر بن الخطاب بني تغلب بذلك لأنهم حاربوا الفرس يوم القادسية في صفوف المسلمين .

وبما أن الناس كانوا يدخلون في الاسلام تباعاً وباستمرار ، فان عدداً من مصادر الأموال الواردة الى بيت المال — كالجزية والخراج — قد قل الوارد منها ، مع الأيام ، أو انقطع . عندئذ عمد الامويون الى زيادة الجزية على الباقين على غير الاسلام فجعلوها خمسة دنانير . ثم بدّلوا في الجزية والخراج وسَمّوْا ما استحدثوا منهما عشراً وزادوا في مبالغهما ثم ضربوها كلّها على المسلمين ، حتّى ثار المسلمون في مصر والعراق خاصة واحتجوا لثورتهم بأن الولاة يأخذون منهم الجزية .

وهكذا نرى جباية الأموال في أيام الأمويين – حاشا عمرَ بن عبد العزيز – تكتسب طابعاً سياسياً دنيوياً وتخسر صفتها الدينية . وكذلك وجوه النفقات عند الامويين لم تكن مقيدة بما كانت مقيدة به في أيام الرسول وأيام الخلفاء الراشدين ، بل أصبح بيت المال – يجمع ما يرد اليه – في ايدي الخليفة . وكان الخليفة ينفق في الوجوه التي يراها هو موافقة لمصلحة الدولة أو لمصلحة الأسرة المالكة أو لمصلحته هو نفسِهِ .

### القضاء

لم يكن للمسلمين قوانين موضوعة ، بل كان لهم شريعة نزلت مُجملة في القرآن الكريم ثم فصّلت في الحديث . وعلى ذلك لم يكن للقاضي في أول الأمر الا النظر في القضايا والدعاوى وتطبيق أوامر الدين ونواهيه عليها . وكان الرسول يباشر القضاء بنفسه في المدينة . فلما انتصر الاسلام في شبه جزيرة العرب ثم وصل الى اليمن جعل الرسول نفسه يستقضي الجِلّة من الصحابة . ثم ان عمر بن الخطاب جعل القضاء مَنصِباً مستقلاً بنفسه عن الخلافة نفسها .

وكان عمل القاضي ، في أول الأمر ، لا يتجاوز « الفصل بين الخصوم » . ثم أضيفت اليه مع الأيام أمور تشبه ما نعرفه اليوم من أعمال القضاة .

### رد المظالم

غير أن الخلفاء احتفظوا بالنظر في المظالم .

قد يتعرّض بعض الناس (مسلماً كان أو غير مسلم) لظلم لا يستطيع القاضي أن يدفعه : كأن يظلم أحدُ الامراء شخصاً ما ، أو يشتطّ والٍ في عقاب رجل أو مضايقته ، أو لا يرضى مستقض بحكم القاضي ، ويسمي العرب ذلك ظُلامة أو مَظلمة . عندئذ يرفع المظلوم أمره الى الخليفة . وكان الخلفاء الراشدون وخلفاء بني أمية يجلسون في المسجد ، إما كل يوم أو أيّاما



معدودة في الاسبوع . وكان الخليفة عموماً يــرد كل مظلمة (أي ينصف كل متظلم) . الا أن الغالب في رد المظالم كان إرضاء للمظلوم اكثر منه عقاباً للظالم .

ويدخل في نطاق المظالم «كل ما عجز عنه القضاة أو غيرهم (من الولاة مثلاً) من إمضائه كالنظر في البينات والتقرير واعتماد الأمارات والقرائن ، وتأخير الحكم الى استجلاء الحق ، وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود ؛ وذلك أوسع من نظر القاضي » . ومع ذلك فان عمر بن الخطاب كان قد فوض قاضيَه أبا ادريس الخَولاني النظرَ في المظالم ، لتشعُّب وجوه السياسة والادارة منذ ذلك الحين . ولا ريب في أن تخلي الخلفاء الامويين عن النظــر في المظالم – حاشا عمر بن عبد العزيز – كان أكثر .

## الحياة الاجتماعية

ضمت الدولة الاسلامية شعوباً مختلفة الأديان والأجناس والألوان ،

١ – العرب المسلمون :

كان العرب المسلمون أرقى طبقات البيئة الاجتماعية على قِلّة عددهم بالإضافة الى غيرهم ، إذ كانوا الطبقة الممتازة في الحياة الاجتماعية والادارية والسياسية . لقد كان منهم الشعراء والقواد والأمراء . ولقد كانوا كلهم يتناولون أُعْطيات من بيت المال . وقد كان العرب عصبيّتين : عربَ الشمال وعرب الجنوب . وكذلك كان العرب قد انقسموا سياسياً منذ وفاة الرسول قسمين : أهلَ السنة والجماعة ثم الشيعة . ولكن التشيع ما لبث ان اتخذ اتجاهاً دينياً منذ ثورة المختار بن ابي عُبيد الثقفي .

٢ – الموالي ، أي المسلمون من غير العرب :

سوّى الاسلام بين المسلمين جميعاً بقطع النظر عما كانوا عليه قبل الاسلام . وعلى هذا كان كل من يدخل في الاسلام يجب ان يتمتـع بجميع الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها العرب المسلمون . وكان الموالي في أيام الدولة الأموية من شعوب مختلفة أشهرها : السند والترك والفرس والروم والبربر والفرنجة وغيرهم .

(آ) الولاء : وذلك ان غير العربي اذا دخل في الاسلام سعى الى ان يدخل في ولاء قبيلة عربية أو اسرة عربية أو أن ينتمي الى رجل عربي بالولاء والاسم : نحو ابي تمام الطائي (وكان رومياً) وأبو نواس الحَكَمي (وكان فارسياً) ومسلم بن الوليد الانصاري وغيرهم .

(ب) الصناعة : ولما اختص العرب انفسهم بالشعر والامارة والقيادة تناول الموالي الصناعات المختلفة لمهارتهم فيها ولانصراف العرب عنها . وكذلك اشتغلوا بالتجارة .

(ج) العلم : وكذلك اشتغل الموالي بالعلم لأنهم كانوا من قبلُ أهلَ ثقافة علمية .

(د) الشعوبية : على ان العرب كانوا يعدّون أنفسهم أرقى من الموالي ، وكثيراً ما جاهروا بذلك وأغاظوا الموالي جهلاً منهم . فنشأ في الموالي ردّ فعل عنيف ، فجعل الموالي في أول الأمر يظهرون فضل أقوامهم عـلى العرب . ثم انهم أخذوا يكرهون العرب . ثم جعلوا يهاجمون العرب ويحاولون القضاء على نفوذهم : تلك هي الشعوبية ، أي كره العرب وتفضيل غيرهم عليهم وانكار فضلهم .

٣ ــ المولّدون . المولّد من كان أحد أبويه عربياً والآخر غير عربيّ . وكان الغالب على المولّدين أن يكون آباؤهم عرباً وأمّهاتهم غير عربيّات ، وقلّ من كانت أمّه عربية وأبوه غير عربي لأن العرب كانوا لا يزالون في العصر الأموي يَحرِصون على الاستعلاء العصبي فلا يُصهرون (لا



يزوّجون بناتهم) لغير العرب .

وبانتشار طبقة المولّدين برزت الخؤولة غير العربية في مقابل العمومة العربية وبدأ الرابط العصبي يضعف ممّا زاد في قوة الشعوبية .

٤ ــ أهل الذمة ، أي غير المسلمين من أهل الكتاب (أي اهل الكتاب منزل) ، وهم اليهود والنصارى خاصة ، ثم جُعل فيهم ايضاً الصابئـة والمجوس . وكان النصارى خاصة شيعاً .

وكان أهل الذمة كلهم يعيشون في الدولة الاسلامية متمتعين بحرية الاعتقاد والعمل وهم مُعفَوْن من الجهاد يدافع المسلمون عنهم وعن أموالهم مقابل جزية يدفعونها عن أنفسهم وخراجاً يؤدونه عن أرضهم . ولكن لم يكن لهم أعطيات من بيت المال كالمسلمين ، ولا كان بامكانهم ان يحتلوا المناصب الكبرى في الدولة كالامارة والقيادة مثلاً . إلا أنه كان بامكانهم ان يعملوا في مصالح الدولة كالكتابة مثلاً .

٥ ــ الارقاء : جاء الاسلام بإلغاء الرق ، فالمسلم لا يُسترقّ . واذا دخل الرقيق في الاسلام أُعتق حالاً . ولكن يبدو ان القضاء على الاسترقاق بسرعة لم يكن ممكناً . فقد ظل بعض الأرقاء الذين دخلوا في الاسلام عبيداً حتى كاتبوا أسيادهم (اتفقوا معهم على بدل معين لعتقهم) . ومن القواعد التي كانت في صدر الاسلام فيما يتعلق بالرق :

ــ اذا تزوج عبد حرة فان أولاده يكونون أحراراً حتماً .

ــ اذا تزوج حر جارية رقيقة فان اولاده منها يمكن ان يكونوا أحراراً في الأكثر أو أرقاء له .

ــ اذا ولدت الجارية الرقيقة لسيدها غلاماً ذكراً أصبحت «أمَّ ولد» لا تُباع ولا تُوهب . ثم اذا مات زوجها عنها أصبحت حرة .

وجاء الرقيق الى بلاد الدولة الاسلامية إما من طريق الفتوح بالأَسْر أو من طريق الأسواق بالشراء من جميع أقطار العالم. وقد يبلغ ثمن العبد اذا كان صَقْلَبِيّاً (اوروبياً أبيض من سكان الروسية أو جرمانياً أو الأندلس) الف دينار. أما التركي فكان يساوي نحو ستمائة. وأرخص منه العبد الأفريقي الأسود.

## الرفاهية في العصر الأموي

ان اتساع الفتوح جعلت الناسَ في العصر الأموي يغتنون، وجعل بيوت الأموال تمتلىء، فقام الخلفاء والامراء والحكام باصلاحات كثيرة وبنَوُا القصور والمساجد ووسّعوا على الموظفين وانصرف كثير من الخلفاء الى اللهو والترف. ثم ان هذا الغنى وهذه الرفاهية لم يكونا قاصرين على الخلفاء والامراء والحكام بل كانا عامّين في الرعية، فقد بلغ من كثرة الأموال واتساع الغنى ان الرجل كان يطوف (في أيام عمر بن عبد العزيز) بصدقته أو زكاته في الشام وافريقية فلا يجد مستحقاً لأخذها. ويمكننا ان نعلم مقدار الثروة المتداولة في العصر الأموي اذا نظرنا في هِبات الخلفاء والامراء للشعراء والاشراف والقبائل، أو اذا نظرنا الى الموائد التي كان الامراء والحكام يَنْصِبونها في كل مكان. ان الحجاج وحدَه كان يقيم في كل يوم الف مائدة لأهل الشام وحدَهم. قد يكون في هذه الأخبار شيء قليل أو كثير من المبالغة، ولكنها تدل بلا ريب على شيء كثير من الغنى في العصر الأموي.

وكان سكان البلاد في الدولة الأموية، من حيث الجنس، قسمين اثنين: العرب وغير العرب. أما العرب الذين نزلوا في الشام والعراق مع الفتح فقد ظلوا زماناً طويلاً أهل رِحلة، مع أن معاوية بن أبي سفيان قد عمل كثيراً على تحضيرهم. وكان هؤلاء العرب إما يمانيين أو قيسيين، وكانت العصبية فيهم ثائرة في أكثر الأحيان. ولقد كان من المنتظر أن يحملهم



ازدياد الثروة بينهم على تناسي أحقادهم القديمة. ولكن الواقع أن تلك الثروات كانت تُذكي بينهم النزاع، وخصوصاً اذا علمنا أن هؤلاء كانوا لا يعملون في الغالب عملاً يتكسبون به، فقد كانوا يتناولون أُعْطيات من بيت المال يعيشون عليها. ولما استقر هؤلاء في الشام والعراق سكنوا في أحياء متفرقة، فكان أهل كل قبيلة ينزلون منزلاً خاصاً بهم. وهكذا عمل هذا التجاور في أحياء خاصة على حفظ عصبياتهم وعلى ما بين أهل تلك العصبيات من عِداء.

وأما أهل البلاد الأصليين فكان منهم عرب يمانية من الغساسنة في الشام، ثم مناذرة في العراق. وكان منهم الآراميون في الشام والعراق، وكان منهم أيضاً الفرس في العراق، والقبط في مصر، ثم الروم في الشام والعراق ومصر.

ولما خصّ عرب الجزيرة أنفسهم، في كل مكان نزلوا فيه، بالخلافة والقيادة والشعر، استبد باقي سكان الدولة الاسلامية بالزراعة والصناعة والتجارة ونزلوا، دون العرب، في المدن والقرى. وهكذا نجد أن الحضارة المادية والعمران المدني كانا في سهم غير العرب.

وابتدأ الترف، أول ما ابتدأ، في بلاط الخلفاء ثم انتشر منه الى الشعب. فان معاوية لما قلب الخلافة ملكاً اتخذ من دون الرعية حجاباً واتخذ في الجامع مقصورة يصلي فيها، ثم اتخذ سريراً للملك (عرشاً).

ثم ان معاوية أتخذ ايضاً المجالس في الليالي يستمع فيها الى القُصّاص والإخباريين والشعراء. وكان يدبر عليهم في تلك المجالس شراب الورد. ولكن يزيدَ، فيما بعد، شرب الخمر في تلك المجالس.

وشرب الأمويون الخمر [1] أيضاً على اختلاف فيما بينهم في المقدار.

(١) بين الرواة – وبين الفقهاء أيضاً – خلاف على «الخمر» التي كان يشربها الخلفاء.

فالاصفهاني يخبرنا ان يزيد كان يشربها كل يوم . أما الوليد فكان يشرب مرة في كل يومين ، وهشام مرة في كل اسبوع يوم الجمعة ، وعبد الملك مرة في الشهر . وكان ليزيد الثاني (بن عبد الملك) قينتان : حبّابة وسلاّمة . ولقد بلغ الترف في الغناء والخمر اقصاه في بلاط الوليد الثاني (بن يزيد ابن عبد الملك) فقد زعموا انه كان يملأ حوضاً بالخمر ثم ينزل اليه ويكرع فيه حتّى يتدنى سطحه .

وعُنِيَ الأمويون بأثاث دورهم الخاصة وأثاث دور الحكومة ، وكانت كلها تفرش في الصيف بأثاث الصيف وفي الشتاء بأثاث الشتاء .

ولقد تأنق الخلفاء بملابسهم وزيهم ، فكان هشام بن عبد الملك أعطر بني أمية ، «وكان حُبِّبَ اليه التكاثر من الدنيا والاستمتاعُ بالكساء ، لم يلبس ثوباً يوماً فعاد اليه» . وكذلك اشترط الخلفاء على الذين يدخلون عليهم ان يأخذوا لذلك زينتهم .

وكذلك أقام الخلفاء حَلَبات السباق للخيول التي تجتمع في دمشق من جميع أقطار الدولة ثم توزع الجوائز على الفائزين . ولقد أُجريت الخيل حتّى في أيام عمر بن عبد العزيز .

**البناء خاصة**

وبالغ الأمويون في الانفاق على العمران والبناء فانفقوا على الجامع الأموي في دمشق مالاً عظيماً ، وخصوصاً على زخرفته . ولا ريب في ان بناء هذا الجامع قد بدأ منذ عهد معاوية واستمر البناء فيه الى أيام الوليد ، والوليد هو الذي زينه وزخرفه . وبما ان هذا الجامع قد قارب تمامه في أيام الوليد فانه يعرف باسم جامع الوليد .

وكانت مِئذنة الجامع الأموي مربعة فانتشر هذا الشكل المربع للمئذنة غرباً الى بيروت ومصر والمغرب والاندلس . أما في المشرق فكانت المآذن



مستديرة لغلبة الهندسة الايرانية عليها ، اذ كانت الابراج الايرانية مستديرة .

الحرم الشريف في القدس : يضم الحرم الشريف في القدس ثلاثة مساجد ، مسجد الصخرة ومسجد عمر والمسجد الأقصى . أما مسجد الصخرة فهو بناء صغير مثمن تعلوه قبة كبيرة (بالاضافة الى حجمه) . ويعد مسجد الصخرة معَ صِغَره من أجمل المساجد في الاسلام شكلاً وتزييناً . ويقع مسجد الصخرة في النصف الشمالي من الحرم ، وهو من بناء عبد الملك .

أما مسجد عمر فهو مسجد بسيط يقوم عند الطرف الشرقي من الحرم في المكان الذي صلى فيه عمر بن الخطاب لما ذهب الى القدس ليتسلّمها من البطرَيرك صفرونيوس . وأما المسجد الأقصى فهو المسجد الرئيسي في الحرم وقد بني غرب مسجد عمر ومُحاذياً له ، وهو يشبه في تنظيمه الداخلي الجامع الأموي في دمشق والجامع العُمَري الكبير في بيروت .

وكما ان الامويين هم الذين أضافوا المئذنة الى المساجد فانهم ادخلوا فيها المقصورة (وهي غرفة داخلية يصلي فيها الحاكم أحياناً خوفاً من الاعتداء عليه) والمِحراب .

**القصور**

وكذلك عُنِيَ الأمويون ببناء القصور في بادية الشام لقضاء الشتاء أو الصيف وللاستجمام فيها حينما كانوا يذهبون الى الصيد . وقد كانت هذه القصور مملوءة بأسباب الترف ومزخرفة بالفُسيفساء والصور . من هذه :

(آ) قُصير عَمْرة ، وقد بناه الوليد بن عبد الملك شرق نهر الأردن (للاشتاء) . وكان قصير عمرة مزيناً برسوم للوليد ولُذَريق (آخر ملوك القوط في اسبانية) وبرسوم للحيوان والنبات وبصور عارية لاشخاص يرقصون .

(ب) قصر الحَيْر ، بناه هشام على نحو أربعين كيلومتراً من القريتين شرقاً في شمال (للاصطياف) .

( ح ) قصرٌ عند بقعة تعرف اليوم باسم خربة مَفْجر قرب اريحا ( للاشتاء ) بناه هشام ايضاً . ويمتاز هذا القصر برسوم جميلة وخصوصاً ما كان منها بالفسيفساء .

( د ) الموقر ليزيد بن عبد الملك شرق نهر الأردن ( للاشتاء ) .

( هـ ) قصر بناه الوليد بن يزيد في ناحية تسمى المَشْتَى شرق نهر الأردن ( للاشتاء ) .

**المدن**

واستحدث الأمويون مدناً كثيرة ، فقد بنى الحجاج مدينة واسط ، وبني سليمان بن عبد الملك الرملة في فلسطين ، وبنى هشام بن عبد الملك الرُصافة غرب الرّقة ( على الفرات ) لينزلها في الصيف .

## الحياة الأدبية والفكرية

كان للحياة الأدبية والفكرية بيئتان أساسيتان : المسجد والمَرْبِد : أما المسجد فكان مركز العلم والتعليم . وكان رواة الحديث واللغة والادب ورجال الفكر يتخذون المساجد مراكز لهم يُمْلون فيها محفوظاتهم وآراءهم . وكان لكل عالم أسطوانة معروفة يوافيه اليها اتباعه وطلابه أو سائلوه وخصومه . ومن هنا نشأتْ لفظة « أساطين » ( جمع اسطوانة ) للدلالة على الرجل البارع في فن من الفنون الأدبية أو الفكرية .

أما المَربد فكان مركز الشعراء المتناقضين أو المتفاخرين ومركزاً للنزاع الأدبي السياسي يلتقي فيه اتباع الاحزاب المختلفة ، وربما اقتتلوا هناك .

والمربد ( بكسر الميم وفتح الباء ، اسم آلة ) عصا طويلة تحجز بها الأبل . أما المربد ( بفتح الميم وكسر الباء ، اسم مكان ) فهو سوق الأبل ، أو السوق العامّ في البصرة خاصة .



### المظهر الأدبي للحياة الأموية

١ – إعجام القرآن وتحريكه ( راجع تحت ، ص ١٨٣ ) .

٢ – الخطابة : كانت الخطابة من مستلزمات الادارة يُضطر اليها الخليفة والوالي والعامل والقاضي . ولكن اتفق ان برع فيها في العصر الأموي نفر من رجال الدولة كزياد بن أبيه والحجاج .

٣ – الشعر : عادت العصبية الى الشعر العربي بعد أن كان الاسلام قد جاء بالقضاء عليها . وكذلك عاد الغزل الصريح بعد ان كان عمر بن الخطاب قد نهى عنه .

( آ ) شعراء النقائض ، كان هؤلاء يتكسبون بالخصومة السياسية ، وكانوا نحو مائة شعر يتقسمون بين أصحاب الاحزاب المختلفة : الفَرَزْدَق والكُميت بن زيد من شعراء آل البيت ، جرير شاعر الزبيريين ، الأخطل شاعر بني أمية ، الطِرِمّاح شاعر الخوارج ، عُبيد الله بن قيس الرُقَيّات شاعر قريش عامة . ولما ظهر بنو أمية على خصومهم مال اكثر هؤلاء الشعراء اليهم وتكسبوا منهم . وكان من الذين ثبتوا على مبدأهم الطِرِمّاح شاعر الخوارج .

( ب ) شعراء الغزل العذري : قيس بن ذَريح والمجنون وغَيلان وجميل وكُثَيِّر ، الا أن بعض هؤلاء كجميل وكثير شاركوا في المناقضات او مدحوا بني أمية .

( ح ) شعراء الغزل الصريح : عمر ابن ابي ربيعة والأحوص والعَرْجي ووَضّاح اليمن .

( د ) شعراء البدو ، وهم رُجّاز ( ينظمون الشعر رجَزاً لا قصيداً ) وأشهر هؤلاء العجّاج .

٤ – الكتابة : تطورت الكتابة من الخطابة ، لأن الكتابة أصبحت من

مستلزمات الإدارة بعد أن اتسعت رقعة الدولة الاسلامية وأصبح من المتعذر على الخليفة أو الوالي ان يجمع الناس فيخطُبَهم في أوامر الدولة . وهكذا كانت الرسالة الاولى في الحقيقة خطبة مدونة . غير ان الكتابة اقتضت تطويلاً وتنميقاً وتحميدات في المطالع والخواتيم (تتفق مع مقام الأشخاص الذين يتبادلونها ، كأن تكون من خليفة الى والٍ أو من والٍ الى خليفة ) . ولما ترقت الكتابة أصبح لها ديوان كبير فيه موظفون متعددون ، وأصبح للكتابة نفسها قواعدُ معينة . ولما جاء عبد الحميد أوجد للكتاب « نقابة » (راجع رسالة عبد الحميد الى الكتّاب ) .

## ٥ — التدوين والتأليف

الصرف والنحو

الحديث والفقه (الزّهري معاصر لعمر بن عبد العزيز )

المغازي والتـــاريخ

رواية الشعر

### نقل الدواوين

وفي أيام عبد الملك بن مروان ، من سنة ٦٥ الى سنة ٨٥ للهجرة ( ٦٨٥ — ٧٠٥ م ) ، قام والي العراق الحجاج بن يوسف بنقل الدواوين (سجلاّت الدولة ) من الفارسية الى العربية ، نقلها له صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم أحد الكُتّاب في الديوان من الذين كانوا يعرفون العربية والفارسية . ثم نقلت دواوين الشام من الرومية الى العربية ، ودواوين مصر من القبطية الى العربية .

وكانت الخطوة الضرورية لنقل الدواوين ايجاد مصطلحات حسابية تقابل المصطلحات الفارسية ، وهذا اقتضى بلا ريب نظاماً من الحُسبان للاعداد الصحيحة وللكسور . ويقال ان صالح بن عبد الرحمن لمّا عزم على نقل



الديوان سأله مردانشاه بن زادانفرُّخ : كيف تصنع بالتعبيرين دهويه وششويه ؟ فقال له صالح : أكتب عشراً ونصف العشر [1] . والمفهوم أنه كان يكتب تلك الكسور بالاحرف لا بالارقام .

### الكتابة والخط

والمشهور أن تنقيط الحروف ووضع الحركات عليها يَرْجِع الى أيام الحجّاج بن يوسف (ت ٩٥ هـ = ٧١٥ م ) والي العراق . قال ابن خلّكان ( ١ : ٢٢٠ — ٢٢١ ) :

« ان الناس غَبَرَوا يقرأون في مصحف عثمان [2] بن عفّانٍ رضي الله عنه نيّفاً وأربعين سنة الى أيام عبد الملك بن مروان ؛ ثم كثُر التصحيف [3] وانتشر في العراق . ففزع الحجّاج الى كُتّابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات . فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفراداً وأزواجاً وخالف بين أماكنها . فغَبَر الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً . فكان مع استعمال النقط أيضاً يقع التصحيف فأحدثوا الإعجام ... »

الملموح في هذا النصّ أن الاعجام (تنقيط الحروف ) والحركات أحدثت في أيام الحجاج بن يوسف ، في الدولة الاموية . ولكننا كنا قد رأينا أن الاعجام والحركات كانت مألوفة من قبل ، في أيام الجاهلية [4] . فاذا نحن أخذنا بذلك تعيّن علينا أن نحمل عمل الحجاج في الاعجام والحركات على أنه فرضهما

---

(١) الفهرست ٣٣٨ — ٣٣٩ ؛ راجع مقدمة ابن خلدون ٤٣٢ — ٤٣٣ . في القاموس : دهيك ( بفتح الدال والياء ) وشش يك ( بفتح الشين الأولى والياء ) : العشر والسدس ( واحد من عشرة وواحد من ستة ) راجع : Steingass, Persion-English Dict. 550, 745.

(٢) المصحف الذي جمع فيه عثمان القرآن الكريم .

(٣) التحصيف غفلة القارىء عن مواضع النقط على الحروف كقراءة « خبر » مكان « خبز » او « حبر » مكان « خثر » .

(٤) راجع فوق ، ص ١٠٥ — ١٠٦ .

في القرآن الكريم لا على أنه هو أول من أحدثهما [1] في اللغة العربية .

ومما يؤكد هذا الرأي أن الناس ظلوا بعد ذلك مدة طويلة لا يستعملون الاعجام والحركات في كتابتهما العادية ، بل كانوا يعدّون الاعجام والتحريك في الكلمات احتقاراً للمكتوب اليهم . ولقد ظلّ ذلك مألوفاً الى العصر العبّاسي .

وفي أيام الوليد بن عبد الملك الذي جاء الى الخلافة سنة ٨٦ ﻫ (٧٠٥ م) كان التأنق البالغ في الزخرف قد دخل على الخطّ العربي . كان خالد بن أبي الهيّاج يكتب المصاحف والشعر والاخبار للوليد ، وهو الذي كتب الكتاب (اللوحة) الذي في قبلة مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلّم (في المدينة) بالذهب ، ابتداء من سورة الشمس ، وهي السورة الواحدة والتسعون في المصحف ، الى آخر القرآن ، أي الى سورة الناس ، وهي السورة الرابعةُ عَشْرَة بعد المائة [2] .

وأعْجبَت هذه الكتابة عمرَ بن عبد العزيز فقال لخالد : اكتب لي مصحفاً على هذا المثال . فكتب خالد له مصحفاً تنوّق فيه . فأقبل عمر يقلّب المصحف ويستحسنه ، ولكنه استكثر أجرة نسخه فردّه الى خالد معتذراً (الفهرست ١٠) . وشاعت في العصر الاموي صناعة نسخ المصاحف ، وقد كان أبو يحيي مالك بن دينار (ت ١٣٠ ﻫ = ٧٤٨ م) ، وهو مولى أسامة بن لُؤَيّ ابن غالب ، يكتب المصاحف بأجرة [3] .

ولكن يبدو أن هذا التأنّق في الخط كان قاصراً على الزخرف ؛ أما الخطّ نفسه فلم يتطوّر كثيراً ، فقد ظلّ « الناس يكتبون على مثال الخطّ القديم الى أول الدولة العبّاسية » (الفهرست ١٢) .

---

(١) راجع مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٣٤ وما بعدها .

(٢) راجع الفهرست ٩ – ١٠ .

(٣) الفهرست ١٠ ؛ ابن خلكان ٢ : ٢٠٢ . ومالك بن دينار هذا هو العالم الزاهد المشهور.





كان أقدمَ أوجه النشاط الفكري في الاسلام نشاطُ الاحزاب السياسية التي أصبحت مع الأيام فرقاً دينية . وكان هذا النشاط الفكري نزاعاً على الخلافة :

١ – أهل السّنّة والجماعة (أي حزب الاكثرية « الجماعة ») ، وكانوا يسيرون على خطا الرسول والصحابة الأولين (السنة) . وكان هؤلاء حريصين على ان تكون الخلافة في قريش (أقوى قبائل العرب واشدّها عصبية يومذاك) وان تكون بالانتخاب . وهؤلاء هم الذين أصبحوا فيما بعد أصحاب المذهب السني .

٢ – الشيعة : أنصار آل البيت وأشياع علي بن أبي طالب (وهم الأقلية) وكانوا يرون ان الخلافة يجب ان تنتقل بالوراثة .

٣ – الخوارج : هؤلاء كانوا أيضاً أشياعاً للامام علي ولكنّهم كانوا يَرَوْنَ أن الخلافة تكون بالانتخاب . فلما قبل علي التحكيم بعد معركة صفّين ثم لم يعمل به ناظروه فقالوا له : ان معاوية (بتمسكه بالخلافة) يجب ان يكون إما مصيباً أو مخطئاً . فان كان مصيباً فاترك له انت الخلافة ، وان كان مخطئاً فسر بنا اليه حتّى نقاتله . فلما لم يقرّهم الامام علي على مناظرتهم « خرجوا » من صفوفه . وكان الخوارج يرون ان الخلافة أمر دنيوي (كما يقول أهل السنة) ، ولكنها ليست ضرورية على كل حال . ان المراد من الخلافة ان تضبط أمور الناس ، فاذا اتفق الناس على ضبط أمورهم بأنفسهم لم يبق من حاجة الى خليفة ابداً .

٤و٥ – الزيدية والروافض : كان زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب يرى ان الخلافة تكون بالنّص والوراثة وأنّ جدّه الأعلى علياً كان أحق الناس بها . ولكن بما أنّ الخلافة قد تولاّها ابو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ ، فانّه أقرّ خلافة الثلاثة مع اعتقاده ان علياً كان أفضل منهم (فهو

اذن يجيز إمامة المفضول معَ وجود الأفضل ) . فأتباع زيد الذين قبلوا رأيه هذا يُسمّون الزيدية . وأمّا أتباعه الذين « رفضوا » رأيه هذا وتبرأوا من أبي بكر وعمر وعثمان فيسمّون الرافضة او الروافض .

٦ – المرجئة : ويمكننا ان نفهم آراء المرجئة اذا افترضنا انهم كانوا شيعة . رأى هؤلاء – بعد قيام بني أمية – ان الشيعة الذين لا يزالون يناصرون آل البيت ويعادون بني أمية متطرفون ذات اليمين (لأنهم ينصرون حزباً قد فقد قوته السياسية ) ، وان الخوارج الذين لا يزالون يحاربون بني أمية متطرفون ذات اليسار (لأنهم يرَوْن ان الخلافة ليست ضرورية ) . ثم انهم رأوا ، فوق ذلك ، ان الشيعة والخوارج لم يستفيدوا من قتال بني أمية شيئاً . من أجل ذلك أرادوا أن يشقوا لانفسهم طريقاً وسطاً : لقد اعتقدوا أن بني أمية عموماً كانوا فاسقين لقتالهم علياً وآلَ بيته من بعده ولسلوكهم الشخصي أيضاً . ولكن هؤلاء الامويين يحوزون القوة السياسية والعسكرية ولا تمكن مقاومتهم ، في الأحوال الراهنة ، مما دلت عليه التجارب خلال نصف قرن من الدهر . لذلك قرر هؤلاء (الذين عُرفوا فيما بعد باسم المرجئة ) ان يقبلوا سلطان بني أمية السياسي وان يظلوا (كإخوانهم الشيعة والخوارج ) منكرين عليهم فسقَهم وظلمهم ، ولكن من غير ان يقاتلوهم . ثم عللوا موقفهم هذا بأن « الحكم على المسلم بالايمان أو بالكفر أمر خارج عن طوق الانسان وراجع الى الله . لذلك قالوا : « نحن نطيعهم في الدنيا ونُرجىء الى الله تعالى الفصلَ في أمرهم يوم القيامة » . ومن هنا جاءهم اسم المرجئة .

## انقلاب الكفاح السياسي جدالاً دينياً

لما قوي أمر بني أمية وأصبح الشيعة والخوارج والزيدية كلهم عاجزين عن مقاومتهم انقلبوا يتجادلون في أمرهم . في هذا الدور بدأت الآراء والحجج التي تبرر قتال الامويين تتبلور . ولقد دل تطور هذه الآراء والحجج على أن الخلاف بين شيعة آل علي بن أبي طالب وبين الأمويين



كان نزاعاً سياسياً ثم انقلب جدالاً دينياً فلسفياً . على أن هذا الجدال الديني كان لا يستند الى النظريات السياسية ولا الى قواعد المنطق ، بل كان يستند الى الأقوال المَرْوية . وكان سَنَدَ هذه الأقوال الثقةُ بالرجال الذين رَوَوْها (كما كان الشأنُ في رواية الحديث والاخبار ) . من أجل ذلك كان من المنتظر طبعاً ألاّ تثقَ فرقة الا بأقوال رجال ينتسبون اليها . وهكذا كان الشيعة يفضلون الرواة من آل البيت ، وكذلك كان الخوارج يفضلون الرواية التي تتصل بهم من طريق رجالهم هم .

## قيام المعتزلة

وإذا كان عليّ قد حارب عائشة ، وكلاهما من الصحابة ، فأيهما المخطىء وأيهما المصيب ؟ وهل يعاقب المخطىء منهما على خطأه ؟ ثم هل المخطىء اطلاقاً مخطىء بارادته أم بغير ارادته ؟ ثم هل الانسان قادر على أعماله مُخيَّر في عمل ما يعمل وترك ما يترك ، أم أنه مُجبَر على اعماله ، يعمل ما يعمل ويترك ما يترك بغير إرادته ؟ ثم من الذي يحكم في هذه الأعمال أخطأ هي أم صواب : العقل أم روايات الرجال ؟

هذه السلسلة المتعانقة من الاسئلة كانت تمثّل الاضطراب الفكري في العصر الأموي ، وكان الناس يسألون عنها أئمة عصرهم علّهم يجدون عندهم قولاً فصلاً أو جواباً شافياً .

ويبدو أن تشدد الخوارج (وكانوا يقولون إنّ المسلم لا يكون مؤمناً حقاً الا اذا توفرت فيه جميع شروط الايمان ثم عمل بمقتضاها كلها ولم يأت معصية قط ) ، وانّ تساهل المرجئة (وكانوا يقولون ان المسلم اذا آمن بالله ثم ارتكب المعاصي ، فان هذه المعاصي لا تضره ولا تَنقُص من ايمانه شيئاً ) لم يُدخلا اطمئناناً على النفوس . لذلك كان من المنتظر ان ينشأ بين الخوارج وبين المرجئة مذهب يشق طريقاً وسطاً ، فنشأ مذهبٌ « اعتزل أصحابه قول الخوارج وقول المرجئة » فقالوا : ان مرتكب الكبيرة ليس

مؤمناً كاملاً لأنه ترك شرطاً من شروط صحة الايمان ، وكذلك ليس هو كافراً كاملاً لأنه لا يزال ( بعد ارتكابه تلك المعصية ) يتمتع بشروط كثيرة من شروط الايمان . فهو اذن في منزلة بين المنزلتين ، أي أنه « فاسق » ( بين المؤمن والكافر ) .

ان حركة الاعتزال التي يبدو لنا انها بدأت معَ مَعْبد الجُهَنَي الذي قتله الحجاج لأنه ثار عليه مع عبد الرحمن بن الأشعث ، ثم ما زالت تتطور وتتسع حتى أيام الحسن البصري المتوفّى سنة ١١٠ هـ ( ٧٢٨ م ) وواصل ابن عَطاء ( ت ١٣١ هـ ) ، في أيام هشام بن عبد الملك ، كانت تضم في أواخر العصر الأموي رؤوس المسائل التالية :

– أمُخَيَّر الإنسان في أعماله أم هو مُجْبَر عليها ؟

– أيَخْلُد صاحب الكبيرة في النار ؟

– اذا توفي غير المسلم صغيراً ، أفيذهب الى الجنة أم الى النار ؟

– ألله ذات فحسب أم له أيضاً صفات زائدة على ذاته ؟

– ما معنى « القرآن كلام الله » ؟

– ما مقام العقل في الحكم على الأمور ؟

أما المعتزلة فكانوا يجعلون العقل حكماً في كل شيء حتى قالوا : اذا اختلف العقل والنقل ( عن الرجال ) فاتبع العقل ، ثم قالوا بأن الانسان مخير في أعماله .



# العِلم في العَصر الأمَويّ

امتدّ العصر الاموي نحو تسعين عاماً ، من سنة ٤٠ الى ١٣٢ للهجرة ( ٦٦٠ – ٧٥٠ م ) ، وكان مملوءاً بالكفاح السياسي بين الاحزاب وبين النزعات ، كما كان عصرَ فتوحٍ في المشرق والمغرب . والامبرطورية الاسلامية كانت في الحقيقة من عمل الدولة الاموية ، فإن الدولة الامويّة هي التي ثبّتت الفتوح التي كانت في أيام الخليفة العظيم عمر بن الخطّاب وفي قسم من أيام عثمان بن عفّان ، ثم مدت الحكم الاسلامي من التركستان الى المحيط الاطلسي .

غير أن الدولة الاموية كانت دولة عصبية : تفضّل العرب كلّهم على المسلمين من غير العرب ، ثم تخصّ عرب الشام بالتقريب دون عرب العراق والحجاز بعامل العصبية الاقليمية التي ضمنت الحكم للبيت السفياني ثم للبيت المرواني من بني أمية . واتّبعت الدولة الاموية في الشام نفسها سياستين متناقضتين : فمرّة تكون السياسة يمانية معادية للقيسية أو غير معادية لها ، ومرة تكون قيسية معادية لليمانية . والواقع أن ثورات العصبية ( القتال بين القيسية واليمانية ) كادت تكون في العصر الاموي متّصلة .

والذي يبدو أن العرب في العصر الامويّ لم يكن لهم اهتمام بالعلوم الرياضية والطبيعية لأن اهتمامهم كلّه اتّجه الى العلوم العربية في اللغة والشعر والخطابة والرواية . أما ما ورد على لسان العرب في الدولة الاموية من الكلام في السماء

والنجوم والارض فكان روايات نصفها دينيّ ونصفها الآخر من إرث الأمم القديمة. ولم يكن البحث العلميّ هدفاً لهم في ذلك، بل كانوا يرمون من ذكر تلك المظاهر الفلكية خاصة ضرب المثل للعِبرة أو للتهويل. من ذلك مثلاً[1] ما روي من أن الشمس والقمر طولهما وعرضهما تسعمائة فرسخ في تسعمائة فرسخ، وأن سعة الشمس مثل سعة الارض وثلثها، وسعة القمر مثل الدنيا سواء. وشبيه بذلك قولهم ان السماء كهيئة القبّة وأن الكواكب معلّقة فيها كالقناديل[2].

ويشذّ عن هذا الاتّجاه، فيما قيل، خالد بن يزيد بن معاوية. ولكنّ أمر خالد بن يزيد غامض، وسنبسط القول فيه لِما للفصل في هذا الموضوع من الاهميّة في تاريخ العلم عند العرب خاصة.

**خالد بن يزيد بن معاوية**

تُجمع المصادر والمراجع على أن اهتمام العرب بالعلوم اليونانية خاصة بدأ منذ العصر الامويّ. وأصحاب تلك المصادر والمراجع يذكرون أن خالد ابن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المُتَوَفّى سنة ٨٥ للهجرة (٧٠٤ م) لما يئس من الفوز بالخلافة، بعد انتقال الخلافة من الفرع السفياني الى الفرع المرواني، انقلب الى العلم ثم درس الكيمياء خاصة على راهب اسكندراني اسمه مريانوس، ثم إنه أمر بنقل كتب الصنعة (الكيمياء) الى العربية. ويبدو أن نقل الطب والفلك قد بدأ في العصر الاموي أيضاً، ولكن لم يصل الينا شيء مكتوب من العصر الامويّ سوى ما ذكره نلّينو[3] من أن كتاب عرض مفتاح النجوم المنسوب الى هرمس قد نقل الى اللغة العربية سنة ١٢٥ هـ

(١) أولى نلينو (علم الفلك ١٣٧ – ٢٤٠) هذا الموضوع اهتماماً، وإن كانت الأمثلة الّتي أعطاها ليست قاصرة على العصر الأموي، بل يمكن أن تكون سابقة عليه.

(٢) القول بأن السماء قبة وأن الكواكب معلقة في هـذه القبة يشبه قول أناكسيمانس الملطي، وهو شبيه أيضاً بقول الدين.

(٣) علم الفلك ١٤٢ – ١٤٣.



(٧٤٣ م)، قبل انتهاء العصر الاموي بسبع سنوات؛ وأن هذا الكتاب اقتنته المكتبة الامبروسيانية في مدينة ميلانو الايطالية حديثاً.

على أن اهتمام خالد بن يزيد بالعلوم اليونانية أصبح موضوع نقاش شديد. أما أن خالد بن يزيد شخصية تاريخية فأمر لا جِدال فيه البتّة؛ وأما اشتغاله بالعلم في ذلك الطور المتقدّم من حياة العرب السياسية فأمر بعيد عن الوضوح.

يذكر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ = ٨٦٩ م) خالد بن يزيد فيقول فيه: كان «خطيباً شاعراً وفصيحاً جامعاً وجيّد الرأي كثير الادب؛ وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء[1]».

على اننا نلمح في قول الجاحظ نفسه أن عمل خالد بن يزيد كان الاشراف على نقل العلم لا العلم، ولذلك يقول[2]: «ومتى كان خالد مثل أفلاطون!»

وفي الاغاني[3] لابي الفرج الاصفهاني (ت ٣٥٦ = ٩٦٧ م) اشارة الى خالد بن يزيد في هذا الشأن، هي: «وكان قد شغل نفسه بطلب الكيمياء فأفنى بذلك عمره وأسقط نفسه».

ثم يأتي ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ = ٩٩٥ م) فيقول[4]: «كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمّى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه وله همّة ومحبّة للعلوم، خطر بباله الصنعة فأمر جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصّح بالعربية، بنقل الكتب في الصنعة[5] من اللسان اليوناني والقبطيّ الى العربي. وهـذا أول نقل كان في الاسلام من

(١) الحيوان ١ : ٣٢٨.

(٢) الحيوان ١ : ٧٦.

(٣) بولاق ١٦ : ٨٨.

(٤) الفهرست ٣٣٨.

(٥) الصنعة : الكيمياء القديمة.

لغة الى لغة » . ثم يذكر ابن النديم بعد صفحتين [1] اصطفن القديم[2] وأنه نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة وغيرها .

بعدئذ يخصّ ابن النديم خالد بن يزيد بترجمة موجزة يقول فيها [1] :

كان خالد بن يزيد بن معاوية [3] « خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ذا رأي . وهو أول من تُرْجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء ... ويقال — والله أعلم — إنّه صح له عمل الصناعة ؛ وله في ذلك عدّة كتب ورسائل . وله شعر كثير في هذا المعنى رأيت منه نحو خمسمائة ورقة [4] . ورأيت من كتبه : كالحرارات ، كالصحيفة الكبير ، كالصحيفة الصغير ، كوصيّته الى ابنه في الصنعة » .

ويذكر صاعد الاندلسي (ت ٤٦٢ هـ = ١٠٧٠ م) خالد بن يزيد فيقول (طبقات الامم ٤٨) : «كان بصيراً بالطب والكيمياء . وله في الكيمياء رسائل وأشعار دالّة على معرفته وبراعته فيها » .

وعقد ابن خلّكان (ت ٦٨٠ هـ = ١٢٨١ م) ترجمة موجزة لخالد ابن يزيد قال فيها [5] : «كانت له صنعة الكيمياء والطب ، وله رسائل دالّة على معرفته وبراعته ؛ أخذ الصنعة من رجل من الرهبان يقال له مريانس [6] المذكور (المشهور ؟) الرومي .

---

(١) الفهرست ٣٤٠ .
(٢) راجع في اصطفن مناقشة يوليوس روسكا ٩ — ١١ ، ٣٠ الخ .
(٣) الفهرست ، طبعة ليبسيك ٣٥٤ ، راجع ٢٤٢ ، ٢٤٣ . ولعله خالد بن يزيد الذي له قصيدة في الاحدأث والملوك (ص ١٠٤) أما خالد بن يزيد الذي روى قراءة القرآن عن حمزة بن حبيب الزيات (ص ٢٩) فيبدو أنه خالد بن يزيد آخر .
(٤) نحو عشرة آلاف بيت (راجع الفهرست ٢٢٧) .
(٥) وفيات الأعيان ١ : ٣٠٠ .
(٦) راجع في مريانس مناقشة يوليوس روسكا ٨ ، ١١ ، ٢٦ ، ٣١ وما بعدها .



وكذلك يذكر ابن الطقطقى (ت ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م) في كتابه الموجز [1] خالد ابن يزيد بن معاوية فيقول : « وكان فصيحاً بليغاً ، وقيل أصاب عمل الكيمياء » .

وينكر ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م) أن يكون لخالد بن يزيد ابن معاوية شيء من العلم بالكيمياء فيقول (المقدمة ٩٧٧ — ٩٧٨) :

« وربما نسبوا بعض المذاهب والاقوال فيها (في الكيمياء) لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم . ومن المعلوم البيّن أن خالداً من الجيل العربي ، والبداوة اليه أقرب ، فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة ؛ فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنيّة على معرفة طبائع المركّبات وأمزجتها ! وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطبّ لم تظهر بعد ولم تترجم ، اللّهمّ إلاّ أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبّه باسمه فممكن » [2] .

أما المستشرق الذي أولى خالد بن يزيد عناية خاصة فهو يوليوس روسكا الالماني (١٨٦٧ — ١٩٤٩) ؛ قال [3] :

ان كثيراً مما يروى عن خالد بن يزيد في شأن الصنعة (الكيمياء) وفيما يتعلّق باتّصاله براهب اسمه اصطفن أو ماريانوس أو مورينوس ، كما يذكر بعض المتأخّرين كابن خلّكان مثلاً ، ليس بثبت . على أن هذا لا يعني أن خالد بن يزيد لم يشتغل بالكيمياء قط ، أو لم يكن يميل الى الاشتغال

---

(١) الفخري ٨٧ .
(٢) في طبقات الأطباء ٢ : ٤١ خالد بن يزيد بن رومان النصراني كان طبيباً من أهل قرطبة ، وكان معاصراً لنسطاس بن جريج المصري . وكان نسطاس هذا في دولة الاخشيديين (طبقات الأطباء ٢ : ٨٥ — ٨٦) ، في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة (النصف الأول من القرن العاشر للميلاد) . راجع طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ٨٣ ، ٩٦ .
(٢) Julius Ruska, Arabische Alchemisten I ( Chalid Ibn Jazîd ibn Mu'awija ), Heidelberg 1924, I 5 ff., besond. 31, 32, 33, 48 f., vgl. 50 unten, 51 — 2.

بها على الاقل. ولكن الذي نعني : أننا لا نستطيع ، من مراجعة ما بين أيدينا من المصادر والمراجع ، أن نثبت أو ننفي أنه عمل في الصنعة . وأما الكتب المنسوبة اليه في الصنعة فمنحولة كلّها وليست له . حتى اصطفن القديم الذي يقال انه نقل كتب الكيمياء لخالد بن يزيد يجب أن يكون استفانوس الاسكندراني المنجّم الذي عاش في بلاط هرقل امبرطور الروم ، وكانوا ينسبون اليه معرفة في الكيمياء . إلاّ أن استفانوس هذا توفّي قبل أيام خالد ابن يزيد بزمن ليس قصيراً .

اذن ، ليس لدينا دليل على أن خالد بن يزيد قد ألّف كتباً في الكيمياء أو غيرها ، أو أمر بنقل هذه الكتب الى اللغة العربية ، أو كان له عمل في الكيمياء ، ذلك لأن العمل في الكيمياء يقتضي الالمام بمعارف كثيرة لم تكن متوفّرة لخالد بن يزيد ولا لغيره من العرب في ذلك الطور الباكر من حياة العرب السياسية . وهذا هو رأي ابن خلدون ، كما رأينا على الصفحة السابقة ، وهو رأي مقبول في العقل والعادة .

### صناعة العطر

ولا ريب في أن صناعة العطر كانت في العصر الاموي، وخصوصاً في الحجاز، متطوّرة جداً ورائجة . وكذلك كان في مكّة عطارون وعطّارات (غ ١ : ٦٤ — ٦٥ )، وكان يُصنع من العطر أنواع كثيرة . وكان في مكّة عطّار يصنع لعمر بن أبي ربيعة عطراً لا يصنع مثله لغيره مما يدلّ على رقيّ فن الكيمياء الصناعية .

### فقس الفراخ آلياً

كانت سُكينة بنت الحسين تمزح مع أشعب الطمّاع فتأمره مرة بعد مرة أن يجلس على سلة مملوءة بيضاً وكأنه دجاجة تحتضن بيضها لتخرج منه فراخ .



وأرادت يوماً أن تُخرج مزحها مخرج الجدّ « فصنعت[1] بيتاً كبيراً من خشب ووضعت فيه تبناً وسرجين[2] ثم وضعت فيه بيضاً كثيراً وأمرت أشعب أن يحضن ذلك البيض[3] حتى يفقس . فلم يزل ( أشعب ) يحضن ( ذلك البيض ) حتى فقس وخرج منه الالوف من الفراريج وربّيت ( تلك الفراريج ) في دار سكينة ، فكانت سكينة تنسبهن اليه وتقول : بنات أشعب » .

### عمر بن عبد العزيز والعلم

وفي أيام عمر بن عبد العزيز حدث أمران :

خفّت حركة الاعتزال ، لأن عمر بن عبد العزيز لم يكن في واقع الامر خليفة أموياً يتساهل في جنب الدين في سبيل السياسة والدنيا ، بل كان أحق أن يعدّ في الخلفاء الراشدين لأنّه « نزع الى طريقة الخلفاء الراشدين جُهدَه ولم يهمل[3] » . وما كان عمر بن عبد العزيز ليرضى عن المعتزلة وهم يخالفون رأي أهل السنة والجماعة .

وكان التدريس للفلسفة والعلم قاصراً على مدينة الاسكندرية ، فلمّا أفضت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز، سنة تسع وتسعين للهجرة، نقل التدريس الى أنطاكية وحرّان ، وتفرّق ( التدريس ) في البلاد ، وبقي في أنطاكية زمناً طويلاً[4] .

ومع أن ماسرجويه الطبيب البصري يعدّ في أطبّاء الدولة العبّاسية ، فيقال إنّه ادرك بني أمية واشتغل في خلافتهم بالتطبيب وبنقل الكتب : قيل أيضاً إنّه تولّى نقل كتاب أهرن القس بن أعين المعروف باسم ( مجموع في

---

(١) الأغاني ١٦ : ١٤٨ — ١٤٩ .

(٢) السرجين والسرقين ( بكسر السين ) : الزبل ، روث الحيوان ( راجع القاموس ٤ : ٢٣٤ ) .

(٣) مقدمة ابن خلدون ٣٦٦ .

(٤) طبقات الأطباء ٢ : ١٣٤ و ١ : ١١٦ ) .

الطب ) ، نقله ماسرجويه من السريانية الى العربية لعمر بن عبد العزيز[1] .
وربّما قيل في ماسرجويه ماسرجيس .

### الطبّ

ومنذ مطلع الدولة الاموية كان الطبّ قد بدأ يتأثر بالاتّجاه اليوناني في التطبيب المزاجي . واشتهر في أيام بني أميّة أطبّاء منهم :

ابن أثال[2] وكان طبيباً متقدماً من الاطبّاء المتميّزين من أهل دمشق نصراني المذهب ؛ وكان خبيراً بالادوية المفردة وبالسموم . فلما وَلِيَ معاويةُ الخلافة قرّبه واستعان به على خصومه السياسيين . وكان ابن أثال بعيداً عن كرم الخلق الطبّي مخالفاً لوصيّة أبقراط .

لما أراد معاوية أن يسمّي ابنه يزيد لولاية العهد لم يشأ أن يَجبَهَ الناس بتقديم ولده من عند نفسه ويجعل الخلافة وراثية خلافاً لما كانت عليه في أيام الخلفاء الراشدين . وسأل معاوية الناس في مجلسه وقال : من تَرَوْن أن يخلفني (وهو يظنّ أنهم سيفهمون ما يَقْصِد ويقولون « يزيد » ) . ولكنّ الناس جرَوْا على السجيّة وقالوا (وهم لا يشكّون في أنفسهم أن الخلافة مبايعة لشخص يختارونه ) : عبد الرحمن بن خالد بن الوليد . وخاف معاوية أن يخلق عبد الرحمن هذا شيئاً من المتاعب ليزيد « فدسّ اليه ابنَ أثال الطبيبَ فسقاه سمّاً فمات » .

واشتهر هذا الامر فجاء خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد (وهو ابن أخي عبد الرحمن بن خالد ) من مكّة الى دمشق مع مولى له اسمه نافع وقتلا ابن أثال .

---

(١) القفطي ٢١٣ ؛ طبقات الأطباء ١ : ١٦٣ . راجع الفهرست ٤١٣ ؛ القفطي ٥٧ ؛ طبقات الأطباء ١ : ١٠٩ ، ١٦٣ ، ٢٠٤ .
(٢) طبقات الأطباء ١ : ١١٦ — ١١٨ .



ويبدو أن معاوية نفسه لم يكن يأمن ابن أُثال في كل شيء فقرّب طبيباً نصرانياً آخر اسمه أبو الحكم الدمشقي[1] ، وكان عالماً بأنواع العلاج والادوية أميناً في علاجه ، ولذلك كان معاوية يستطبّه ويعتمد عليه في معالجة نفسه وأهل بيته . ولما مرض عبد الملك ، سنة ٨٦ للهجرة (٧٠٥ م) حماه أبو الحكم من شرب الماء وأعلمه أنه اذا شرب الماء قبل نُضج علّته توفّي . فاحتمى عبد الملك يومين وبعض اليوم الثالث ثم دعا بماء فشربه (قيل لأنه استاء من سلوك ابنه الوليد حياله في مرضه ) فمات .

وكان في مطلع الدولة الامويّة طبيب اسمه تياذوق[2] اختصّ به الحجاج . ويبدو أن تياذوق كان لا يزال يعالج العلاج الفطري القائم على المداراة ولم يكن كثير الخبرة بالتطبيب المزاجي الذي كان قد بدأ يصل الى أطبّاء زمنه . وتوفّي تياذوق في واسط ، سنة ٩٠ هـ (٧٠٩ م) ، وقد أسنّ .

ومن نصائح تياذوق في حفظ الصحّة[3] ، وفيها كثير من آراء أطبّاء البداوة وقليل من آراء أبقراط وجالينو س ، ولكنّها قليلة الصلة بعلم الطب المزاجي :

لا تأكل من اللحم الا فتيّا ، وأجِدْ مضغ الطعام ولا تأكل ما تَعْجِز أسنانك عن مضغه فتَعْجز مَعِدتُك عن هضمه . ثم لا تأكل طعاماً وفي معدتك طعام غيره . ولا تأكل الفاكهة الا وهي في أوان نُضْجها . ولا تشرب الماء على الطعام ، بل بعد أن تَفْرُغ من الطعام بساعتين ، فان أصل الداء التخمة وأصل التخمة الماء . واذا أكلت نهاراً فنم قليلاً ، واذا أكلت ليلاً فامشِ ولو خمسين خطوة . وعليك بالسواك .

ثم عليك بدخول الحمّام مرة كل يومين ، ولا تحبس البول ، واعرض نفسك على الخلاء قبل النوم . ولا تشرب الدواء الا من علّة . أما العوامل

---

(١) طبقات الأطباء ١ : ١١٩ ؛ القفطي ١٢٣ .
(٢) طبقات الأطباء ١ : ١٢١ — ١٢٣ ؛ القفطي ٧٤ .
(٣) راجع ، فوق ، الحارث بن كلدة ( في الجاهلية ) .

الخارجية كالحر والبرد والوقوع والغرق والجراح والموت فلا سلطة للانسان عليها.

وكان في مصر قبل الفتح الاسلامي طبيب عالم ماهر يتولّى التدريس في الاسكندرية. هذا الطبيب يعرف باسم عبد الملك بن سعيد بن أبجر الكنانيّ [1]، ويبدو لنا أنه اتّخذ هذا الاسم العربي والنسبة العربية بعد أن أسلم على يد عمر بن عبد العزيز حينما كان عمر والياً على مصر من سنة ٨٦ الى سنة ٩٣ ه (٧٠٥ – ٧١١ م). ومع أن عبد الملك بن أبجر كان من الاطبّاء الاسكندرانيين، فان ابن أبي أصيبعة روى له جملتين في الطب العاديّ ولم يذكر له شيئاً من الطبّ المزاجيّ. وكان عمر بن عبد العزيز يبعث اليه بمائه (بقارورة البول) اذا مرض.

وعرف العرب في العصر الاموي عدداً من الامراض ومن وجوه التطبيب: عرفوا الكَلَب مثلاً ودواءه، قيل عرفوا دواءه من الحبشة. ويبدو أن الكلاب الكَلِبة كثرت في البصرة فكتب زياد بن أبيه[2] دواء الكَلَب وعلّقه على باب المسجد الاعظم في البصرة ليعرفه جميع الناس[3].

وأصيب الفرزدق بالدُبيلة فقُدِم به الى البصرة ليعالج عند رجل متطبّب من بني قيس (غ ١٩ : ٤٦).

ومزح عمر بن أبي ربيعة يوماً مع الثريّا بنت عليّ بن عبد الله بن الحارث – وكان يتعشّقها – فضربته بظاهر كفّها (وكان النساء اذذاك يتختّمن في أصابعهن العشر) فأصابت الخواتيم ثَنيّتيه العُلْيَيَيْن فنَغِضتا (قلقتا وتحرّكتا في مكانهما) وكادتا تسقطان. فقدم (عمر) البصرة فعُولِجتا له فثبتتا واسودّتا (غ ١ : ٢٣٠ – ٢٣١).

(١) طبقات الأطباء ١ : ١١٦ ؛ طبقات الأطباء والحكماء ٥٨ ، ٥٩ – ٦٠ .

(٢) طبقات الأمم ٤٨ ؛ طبقات الأطباء والحكماء ٥٩ .

(٢) ولي زياد البصرة سنة ٤٥ ه (٦٦٥ م).

(٣) الحيوان ٢ : ١٣ ، راجع ١٠ – ١١ .



وعرف العصر الاموي براعة في الجراحة:

جاء في الاغاني (١٦ : ١٦٠):

ان سُكينة بنت الحسين خرجت لها سلعة [1] في أسفل عينها فكبرت حتى أخذت وجهَها وعينها وعظم شأنُها. وكان بدراقس[2] منقطعاً اليها في خدمتها[3]. فقالت له (سكينة): ألا ترى ما قد وقعت فيه؟ فقال لها: أتَصبرين على ما يَمَسُّكِ من الألم حتى أعالجَكِ؟ قالت: نعم!

فأضجعها وشقّ جلد وجهها حتى ظهرت السلعة؛ ثم كشط الجلد عنها أجمع وسلخ اللحم من تحتها حتى ظهرت عروق السلعة، وكان منها شيء تحت الحَدَقة، فرفع الحدقة عنه حتى جعلها ناحية، ثم سلّ عروق السلعة من تحتها فأخرجها أجمع وردّ العين الى موضعها، وسكينة مضّطجعة لا تتحرّك ولا تئنّ حتى فَرَغ مما أراد. فزال ذلك عنها وبرئت منها، وبقي أثر تلك الجِراحة في مؤخر عينها، فكان أحسن شيء في وجهها، وكان أحسن على وجهها من كلّ حَلْيٍ وزينة. ولم يؤثر ذلك في نظرها ولا في عينها.

في أيام الوليد بن عبد الملك الذي جاء الى الخلافة في سنة ٨٦ ه (٧٠٥ م) عرف العرب المستشفى بمعناه الصحيح وعرفوا القوانين الطبية الواقية والرحيمة. كان الوليد أول من بنى البيمارستانات (المشافي، المستشفيات) في الاسلام وجعل فيها الاطبّاء وأجرى على هؤلاء الاطبّاء الارزاق (جعل لهم رواتب).

(١) السلعة بكسر السين أو فتحها، وبفتح السين واللام وبكسر السين و فتح اللام أيضاً غدة (بالضم وتشديد الدال) أو خراج (بضم الجيم من غير تشديد للراء) أو زيادة في البدن تتحرك اذا حركت، وتكون من حمصة (بكسر الحاء وتشديد الميم المكسورة أو المفتوحة) الى بطيخة (القاموس ٢ : ٢٩٩).

(٢) . . . .

(٣) منقطعاً إليها في خدمتها : كان طبيباً خاصاً لها.

وكذلك أمر بحبس المجذومين [1] لئلاّ يخرجوا وأجرى عليهم وعلى العميان الارزاق ، وقال للمجذومين : « لا تسألوا الناس » ! وكذلك أعطى كلّ مُقْعَدٍ (عاجز عن السير ) خادماً وكلّ ضرير ( أعمى ) قائداً [2].

وعرف نفر من غير الاطبّاء طرفاً من العلاج للاحوال المألوفة :

كان عبد الرحمن بن سيحان بن أرطأة نديماً للوليد بن عثمان بن عفان ، في صدر الدولة الاموية ، فاتّفق أن أصاب عبد الرحمن يوماً خمار ( ألم الخمر وأذاها ) فذهب لسانه وسكنت أطرافه وصرخ عليه أهله . فجاءه الوليد بن عثمان بشراب ( خمر ) ساخن فسقاه ايّاه وقيّأه . ثم صنع له حساء [3] وجعل على رأسه دهناً وجعل رجليه في ماء ساخن ، فما لبث أن انطلق ( مشت بطنه ) فذهب ما كان به ( غ ٢ : ٢٤٤ ) .

**الاعتزال** [4]

اذا كان خالد بن يزيد المتوفّي سنة ٨٥ للهجرة ( ٧٠٤ م ) لم يزد في تاريخ العلم عند العرب شيئاً ، فان المعتزلة الذين يجب أن يكونوا قد بدأوا نشاطهم في نحو ذلك الزمن قد زادوا في تاريخ العلم في الاسلام كثيراً .

كان الدين منذ فجر الانسانية متّصلاً بالعاطفة وبعيداً جدّاً عن النظر العقلي . غير أن الاسلام حث على طلب العلم ودعا الى الاقتناع قبل الايمان وحضّ المسلمين على التفكير .

المعتزلة فرقة من المسلمين **اعتزلوا** تطرّفَ الخوارج في تكفير كل من

---

(١) الجذام ( بضم الجيم ) علة تحدث من انتشار السوداء في البدن كله فيفسد مزاج الأعضاء وهيأتها ، وربما انتهى الى تأكل الأعضاء وسقوطها ( القاموس ٤ : ٨٨ ) . حبس المجذومين : منعهم من الاختلاط بالناس .

(٢) تاريخ البيمارستانات ١٠ .

(٣) مرق ( طعام مائع ) ساخن ( شورباه ) .

(٤) راجع فوق ، ص ١٨٧ .



ارتكب ذنباً مهما كانت درجة ذلك الذنب من القلة في الاساءة الى الفرد أو المجتمع كما اعتزلوا تساهل المرجئة في عدد من الامور الدينية حفاظاً على مصالحهم السياسية ، وكما اعتزلوا أيضاً رأي الشيعة القائل بأن المذهب السياسي جزء من الايمان ، وأن الخضوع لخليفة دون خليفة يمكن أن يُخرج المعتقد من الايمان .

وخطا المعتزلة خطوة جريئة في الاتّجاه العلمي :

لقد أخضع المعتزلة جميع قضايا الدين للعقل ، حتى تلك التي لم تَجْرِ العادة باخضاعه له . لقد سمّي المعتزلة أنفسهم أهل العدل والتوحيد: قالوا: ليس من عدل الله أن يأمر الله الانسانَ بعمل شيء من الذنوب ؛ وأبعد من ذلك عن العدل أن يُعاقب الله ذلك الانسانَ على الذنب الذي أمر هو بارتكابه . فالانسان عند المعتزلة حرّ مخيّر في أعماله كلّها خيراً أو شرّاً . من أجل ذلك كان عدلاً من الله أن يحاسب الانسان على أعماله فيُثيبه على ما أحسن ( وذلك حق الانسان المحسن ) ويعاقبه على ما أساء ( وهذا أيضاً حقّ على الانسان المسيء ) .

وكذلك كان لهم مدركٌ واضح في وحدانية الله :

ان الله عند المعتزلة ، كما هو عند جميع المسلمين ، واحد أحَد . ولقد وافق المعتزلة جميع المسلمين في **أن الله واحد بالعدد** لا شريك له ولا نِدّ ولا قسيم ؛ ثم توسّعوا في تفسير **أحد** فجعلوا الله **مُنَزَّهاً** عن جميع أعمال البشر : لا يتّصف بشيء من صفات البشر ، ولا يتّصف البشر بشيء من صفاته . ومع أن جميع المسلمين يقولون بذلك ، فان المعتزلة قد وسّعوا هذه القاعدة حتى أنكروا الخلق والكلام والحساب على ما قَبِلَه المسلمون ، ثم حملوا جميع صفات الله (لأنهم ينكرون نسبة صفات الى الله ) على المجاز : فالله عندهم خالق بمعنى آمر بالخلق في الازل لا أنه صانع العالم مباشر لما يحدث فيه من التطور والتعدد . وكذلك الله عندهم لا يتكلّم :

ان القرآن وحيه ، ولكن الكلام ليس كلامه لأنه لا يتكلّم ، اذ الكلام خاصّة عضوية في الانسان . والله ليس له أعضاء تُخرج الكلام كما يَخرج الكلام بتلك الاعضاء من الانسان . والله لا يُرى عند المعتزلة يوم القيامة ، لأن الرؤية خاضعة لعوامل مادّية من المكان والجهة والحجم مما لا يمكن أن يحيط بالله . الى آخر ما قالوا .

وآراء المعتزلة ، كجميع أجناس الآراء ، خاضعة للنقد ، هم معرّضون فيها للخطأ والصواب . وكان خطأ المعتزلة أنهم أرادوا أن يُجرّدوا الدين من العنصر الاجتماعي العملي ليجعلوا منه مَدْركاً عقلياً نظرياً . أما اتّجاههم في العلم فكان في أنهم أرادوا أن يوجدوا قاعدة تنطبق على كل شيء، حتى على الامور التي لا تنطبق عليها قواعد العقل ، أو هي وراء إدراك العقل .

ومن الادلّة على أن المعتزلة أرادوا أن يتّجهوا في التفكير الديني اتّجاهاً علمياً أنهم التفتوا فيما بعد الى العلم وبحثوا في الذرّة والطّفرة والعلوم الطبيعية ، كما اتفق لهم في العصر العباسي .

### الغنـــاء

عرَفت صناعة الغناء في العصر الاموي تطوّراً كبيراً سريعاً . هذا التطور يبدو في المظاهر التالية :

أ ـ ان جميع المغنّين والمغنّيات كانوا من الموالي الفرس ، سوى نفر ممن لم تكن لهم براعة خاصّة مثل أحمد النَصْبي ومالك الطائي[1] .

ب ـ لقد أحيا هؤلاء المغنّون والمغنّيات ، برُغْم أنهم كانوا جميعاً فُرساً ، أوجهاً كثيرة من الغناء الجاهلي .

ج ـ لقد دخل على الغناء العربي شيء من التفنّن الذي اقتضى « عملاً فنّياً » جعل الغناء العربي أكثر تنوّعاً وتعقّداً مما كان من قبل .

(١) أنظر موجز ترجمتيهما تحت ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ ـ ٢١٠ .



د ـ ومع أن الغناء العربي احتفظ بوَحدته وبخصائصه الاولى ، فقد دخل فيه كثير من ألحان الفرس ( أداء المقاطع المفردة ) ومن صناعة الموسيقى التي كانت معروفة في الشام تقليداً للموسيقى الرومية .

هـ ـ تفنّن هؤلاء في إفاضة الالحان على الشعر ، فقد كان الصوت الواحد ( القطعة الشعرية الواحدة ) يُغنّى من طرائق مختلفة بألحان مختلفة ، حتى أن أبيات عمر بن أبي ربيعة التي مطلعها :

تشُطّ غداً دار جيراننا ... ولَلْدارُ بعد غد أبعد !

صُنع فيهـا تسعةَ عشر لحناً ( غ ١ : ٨٧ ) .

وكان معظم هؤلاء المغنّين متعاصرين وذوي خصائص متباينة . واذا قيل إن أحدهما أخذ عن الآخر فليس من الضروري أن يكون المأخوذ منه أكبر سنّاً من الآخذ . وكثيراً ما كان بعضهم يأخذ عن بعض ثم يعود المأخوذ منه فيأخذ عمّن كان قد أخذ عنه .

**وفي ما يلي عدد من تراجم المغنّين في العصر الأموي نرى منها تطوّر فن الغناء :**

١ ـ كان سائب خاثر ( ت ٦٣ هـ ) من أهل المدينة ، ولم يكن يضرب بالعود وانما كان يقرع بالقضيب ويغنّي مرتجلاً . ولما قدم نشيط الفارسي على المدينة وغنّى ( بالفارسية ) صنع سائب خاثر مثل ذلك الغناء الفارسي بالعربية في أبيات مطلعها : « لمن الديار رسومها قفر ؟ » فكان ذلك أول صوت غنّى به في الاسلام من الغناء المتقن الصنعة الممزوج بالالحان الفارسية . وكان ذلك اللحن من الثقيل الاول في مجرى السبّابة ، وقيل من الثقيل الاول في مجرى الوسطى ( غ ٨ : ٣٢١ وما بعدها ) .

ثم ان نشيطاً تعلّم الغناء العربي من سائب خاثر وعلّم فيما بعد عدداً من المغنّين بالعربية منهم عَزّة الميلاء وجميلة ومعبد وابن سُريج ( غ ٨ : ٣٢٩ س ) .

٢ – ُقتل أحمد بن أسامة الهمْداني ّ سنة ٨٢ ﻫ (٧٠١ م) في عسكر ابن الاشعث (غ ٦ : ٦٤). وكان أحمد هذا أوّل من توسع في النصْب [١]، أي أول من نقل الغناء من الُحداء – من التنغيم اليسير وراء الابل [٢] – الى شيء من العمل الفنّيّ. ثمّ إنّه أخرج من النصب ألواناً متعدّدة حتى ُشهر باسم أحمد النصبيّ. وكان أحمد يغنّي بالطُنبور في الاسلام، وله فيه صنعة حسنة لم يلحقه فيها أحد من الطنبوريّين ولا كثير ممّن يغنّي بالعود (غ ٦ : ٦٣).

٣ – وفي هذه الحِقبة تبرز عزّة الميلاء، وهي مغنّية قديمة كانت في أيام عثمان بن عفّان الذي جاء الى الخلافة سنة ٢٣ ﻫ (٦٤٤ م) ثم توفّيت في أيام الوليد، بين سنة ٨٦ وسنة ٩٠ ﻫ (٧٠٥ – ٧١٠ م).

سمع حسّان بن ثابت غناء عزّة الميلاء فقال انها ذكّرته غناء الجاهلية – وكانت عزة تضرب بالمزهر والمعزفة [٣]، وهما من آلات الجاهلية، كما كانت له براعة في الضرب بالعود.

٤ – ومع ابن مِسجح (ت ٨٧ ﻫ = ٧٠٦ م) اتّجه الغناءُ العربي وِجهة جديدة. لمّا احترقت الكعبة، سنة ٦٤ ﻫ (٦٨٣ م) في أيّام عبد الله بن الزبير، أتى ابن الزبير بعمّال من الفرس ليعيدوا بناءها، فكانوا في أثناء عملهم في البناء يتغنّوْن بالفارسية، فاشتق ابن مسجح من غنائهم مذهباً في الغناء قلّد فيه الغناء الفارسي في شعر عربي (غ ٣ : ٢٧٦ – ٢٧٨). ثم انه رحل الى الشام وأخذ (شيئاً من قواعد) ألحان الروم والبربطيّة [٤] والاسطوخوسيّة [٥]. وبعد ذلك انقلب الى فارس وأخذ بها غناء كثيراً وتعلّم

(١) النصب (بسكون النون) : ضرب من الغناء أرق من الحداء (قا ١ : ١٣٢).
(٢) راجع فوق، ص ١١٥.
(٣) المعزفة أو المعزف نوع من آلات الضرب الموسيقية كالعود والطنبور (قا ٣ : ١٧٥).
(٤) البربط : العود. البربطية : أهل الضرب على البربط والعالمون بأصول الضرب عليه.
(٥) الاسطوخوسية :



الضرب (بالعود). ثم انه قدم الى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم فألقى منها ما استقبحه من النبرات والنغم التي هي موجودة في غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب، وغنّى على هذا المذهب، فكان أول من أثبت ذلك ولحّنه. وتبعه الناس في ذلك وتعلّم منه ابن ُسريج والغريض (غ ٣ : ٢٧٦ – ٢٧٧).

٥ – وفي نحو هذا الزمن كان ابن ُمحرز قد تعلّم الضرب (على العود) من عَزّة الميلاء وأخذ الغناء من ابن مِسجح، ولكن يبدو أنه لم يعش كثيراً لأنّه كان مصاباً بالجذام فتوفّي في نحو الزمن الذي توفيت فيه عزّة الميلاء.

وبعد أن أخذ ابن محرز عن عزّة ذهب الى فارس فتعلم ألحان الفرس وأخذ غناءهم، ثم ذهب الى الشام فتعلّم ألحان الروم وأخذ غناءهم. بعدئذ أسقط من ذلك ما لا يستحسن من نغم الفريقين وأخذ مِنَ النغمين أشياءَ [١] مزج بعضها ببعض وألّف منها الاغاني التي صنعها في أشعار العرب، فأتى بما لم يُسمع مثله ؛ وكان يقال له صنّاج العرب (غ ٢ : ٣٧٨، ٣٧٩). والذي يبدو أنه أخذ من الفرس ألحاناً وأخذ شيئاً من قواعد الغناء عن الروم.

وفي الاغاني (١ : ٣٧٩) أن ابن محرز أول من غنّى (نغم) الرمل ولم يغنّ ذلك أحد قبله لا في العربية ولا في الفارسية. ثمّ تبعه الناس في هذا الغناء. وكذلك كان أول من غنّى بزوج من الشعر، وعمل ذلك بعدُ المغنّون اقتداء به. وكان ابن محزر يقول : إن الأفراد (الابيات المفردة) لا تتمّ بها الألحان.

٦ – وفي الاغاني أن طُويسا (١١ – ٩٣ ﻫ) كان أول من غنّى بالعربي من المخنّثين غناء متقناً [٢] يدخل فيه الايقاع [٣]. وكان طويس لا يضرب بالعود

(١) غ ١ : ٣٧٨، ٣٧٩.
(٢) راجع فوق، ص ٢٠٣.
(٣) غ ٣ : ٢٧، ٢٩، ٤ : ٢١٩. والإيقاع بناء ألحان الغناء على موقعها وميزانها (غ ٣ : ٢٧، الحاشية ١).

وانما ينقر بالدّف المربّع ويغنّي قائماً أو ماشياً[1] . وكذلك كان أول من صنع الالحان الخفيفة من الهزج والرمل حتى ضرب به المثل في البراعة في الهزج خاصة[2] .

٧ ـ أخذ الغريض ( ت ٨٧ ه = ٧٠٦ م ) الغناء في أول أمره عن ابن سريج ، ثم وقعت بينهما منافسة شديدة تبعها عداء مستمكن . واستطاع الغريض أن يقلّد ابن سريج في الغناء ويجيد حتى كان من العسير أن يفرّق الناقد البصير في الغناء بينهما[3] .

ولما قطع ابن سريج الغريض وأبى أن يستمرّ في تعليمه الغناء أخذ الغريض النوح عن النساء وخرّج عليه غناء كالمراثي ، ثم كان ينوح ويغنّي ويبدع في الالحان الخفيفة من الارمال والاهزاج[5] . وسمع الغريض مرة أصوات رهبان في دير لهم فاستحسنها ثم صاغ على مثلها لحناً حسناً . وقد كان في صوت الغريض شَجاً[6] فأحبّه الناس ( غ ٢ : ٣٦٠ ) .

وكذلك كان الغريض يضرب بالعود وينقر بالدُف ويوقّع بالقضيب ( غ ٢ : ٣٦٠ ) .

٨ ـ كان الدلال ( بغير شدّة على اللام ) تلميذاً لطويس ، ولعلّه عاش الى ما بعد خلافة عبد الملك بقليل .

وللدلال صنعة نزرة ( قليلة ) ولكن جيّدة ؛ وغناؤه بديع صحيح ؛ غير أنه لم يكن يغنّي الا غناء مضعفاً ، يعني كثير العمل ( غ ٤ : ٢٧٠ ) .

---

(١) راجع غ ٤ : ٢٢١ .

(٢) غ ٤ : ٢١٩ ، راجع ٣ : ٢٨ .

(٣) غ ٢ : ٣٦٥ – ٣٦٦ .

(٤) غ ٢ : ٣٦٠ ، ٣٦١ س – ٣٦٢ ، ٣٨٢ .

(٥) غ ٢ : ٣٦٠ – ٣٦١ .

(٦) الشجا في القاموس ( ٤ : ٣٤٧ ) : ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه . وقد تكون بحة ( بالضم ) فيظهر منها على الغناء شي من الحزن يحدث تأثيراً في النفس .



٩ ـ في الاغاني أن حُنيناً الحيري غنّى هشام بن عبد الملك ( ٢ ؛ ٣٤١ ـ ٣٤٣ ) وأنه عاصر الغريض وابن سريج ومعبدا ( ٢ : ٣٥٥ ) وأنه أسنّ حتى بلغ مائة وسبع سنين ( ٢ : ٣٥٢ ) حتى أصبح لا يُدرى أشَعره أشدّ بياضاً أم بغلته أم ثيابه ( ٢ : ٣٤٣ ) . فاذا نحن عددنا السنوات المائة والسبع مبالغاً فيها وجب أن نقبل بأن يكون حنيناً قد عاش بين سنة ٢٠ وسنة ١١٠ ه ( ٦٤١ ـ ٧٢٨ م ) .

وكان حنين ضارباً بالعود بارعاً ومغنّياً قديراً وملحّناً مشهوراً ، وكان أول أهل الاسلام ، في العراق ممن أدخل الغناء المتقن على السناد: . وكان يغني ومعه عود يضرب عليه وزامر يرافقه ( غ ٢ : ٣٤٢ ) . ولعل حنيناً كان يغنّي غناء أهـل الحيرة في أيـامه ، وهو غناء بين الهزج والنصْب ، وهو الى النصب أقرب ، الا أنه لم يدوّن منه شيء لسقوطه ولأنه ليس من غناء الفحول ( غ ٢ : ٣٥٢ ) . ويبدو أن حنيناً قد فاق أهل بلده بأن كانت له صنعة فاضلة متقدّمة ( غ ٢ : ٣٤١ ) في ذلك الغناء .

١٠ ـ كانت جميلة ( ت ١٠٣ ه = ٧٢٠ م ) معلّمة للغناء بارعة، قيل فيها ( غ ٨ : ١٨٦ ) : «كانت جميلة أعلم خلق الله بالغناء ؛ وقال معبد : أصل الغناء وفرعُه جميلة ، ولولا جميلةُ لم نكن نحن مغنّين » . وكان لجميلة جوارٍ تعلّمهن الغناء ويغنّين غناء جماعياً ( غ ٨ : ٢٢٩ ) . وكانت تغنّي ارتجالاً وتحسن حفظ الاصوات وترقص أحياناً : ففي أحد مجالسها المشهودة طربت وطرب أهل المجلس فرقصت وضربت بالعود ، وعلى رأسها البرنس الطويل وعلى عاتقها بردة يمانية وعلى القوم أمثالها . وقام ابن سريج يرقص ومعبد والغريض وابن عائشة ومالكٌ الطائي ، وفي يد كلّ واحد منهم عود يضرب به على ضرب جميلة ورقصها ؛ فغنّت وغنّى القوم على غنائها ( غ ٨ : ٢٢٦ ) .

وتستطيع جميلة أن تلقي على أغانيها رقّة وشجاً فلا يستطيع من يسمعها

الا أن يبكي (راجع غ ٨ : ٢٣٥) .

١١ – عاش ابن سُريج خمساً وثمانين سنة (غ ١ : ٢٤٩) من سنة ٢٣ الى سنة ١٠٨ هـ (٦٤٤ – ٧٢٦ م) ، وكان أكبر المغنّين في العصر الاموي أخذ الغناء عن طويس وابن مسجح وعرف عزّة الميلاء . وبدأ ابن سريج حياته الفنيّة بالنواح (غ ١ : ٢٥٤) ، وكان يعلّم النواح أيضاً ثم تركه وانتقل الى الغناء بعد موت محمد بن الحنفية (غ ١ : ٢٥٥ – ٢٥٦) ، سنة ٨١ هـ (٧٠٠ م) .

واستفاد ابن سريج من الغناء الذي سمعه بمكّة من العمال الفرس الذين كانوا يعيدون بناء الكعبة في أيام ابن الزبير (ص ٢٠٤) ، وكان أول من ضرب بالعود على الغناء العربي في مكّة (غ ١ : ٢٥٠ ، ٢٥١) ، كما كان أول من غنّى الغناء المتقن بعد طويس (غ ١ : ٢٥٤) . وهو الذي اتّخذ العود الفارسي نحو سنة ٦٥ هـ (٦٨٤ م) .

وكان ابن سريج يضرب بالعود ويغنّي مرتجلا ويوقّع بالقضيب (غ ١ : ٢٤٩ ، ٢٧٤ ، ٢٨٧ – ٢٨٨) . وكان غناؤه في الاصل كاملاً تاماً ، فقد غنّى غناء ثقيلا جيداً ثم عدل فيما بعد الى الالحان الخفيفة من الارمال والاهزاج ، فكان غناؤه من أجل ذلك محزناً مرة ومطرباً مرقصاً مرة أخرى (غ ١ : ٢٧٦ – ٢٨٤) . وكان مغنّياً مكثراً فان له ثمانية وستّين صوتاً (أغنية) ليس فيها ألحان مكرّرة الا في خمسة أصوات (راجع غ ١ : ٢٦٨ – ٢٦٩) .

والغالب على مذهب ابن سريج في التلحين والغناء حبّه للقديم ولطرائق القدماء ، ولذلك مال عنه معظم الناشئين في آخر الامر ولكنّه ظلّ محبّباً الى المتقدّمين في السن والى مشايخ الغناء (غ ١ : ٢٥٢) .

ونظر ابراهيم الموصلي المغنّي العبّاسي المشهور الى غناء ابن سريج فقال (غ ١ : ٢٩٠) : « الغناء على ثلاثة أضرب : فضرب منه مطرب يحرّك ويستخفّ ؛ وضرب ثان له شجا ورقّة ؛ وضرب ثالث (فيه) حكمة



واتقان وصنعة . وكلّ هذا مجموع في غناء ابن سريج » .

أما ابن سريج نفسه فقال في قيمة الغناء (غ ١ : ٣٢٥) :

« المصيب المحسن من المغنّين هو الذي يشبع الالحان ويملأ الانفاس ويعدّل الاوزان ويفخّم الالفاظ ، (ثم) يعرف الصواب ويقيم الإعراب ويستوفي النغم الطِوال ويحسّن مقاطع النغم القصار ، (ثم) يصيب أجناس الايقاع ويختلس مواقع النبرات ويستوفي ما يشاكلها في الضرب من النقرات » .

١٢ – تعلّم معبد بن وهب (ت ١٢٥ هـ = ٧٤٣ م) الضرب والغناء على جميلة وسائب خاثر ونشيط الفارسي ثم أصبح امام أهل المدينة في الغناء (غ ١ : ٣٨) . وكان معبد أكثر ميلاً الى الغناء الخفيف في الرمل والهزج ، إلا أنه كان يطيل الشعر ويمطّطه ، وكان مقتدراً جداً في صناعة الغناء (غ ١ : ٤١ ، ٤٤ – ٤٥) . وكان حسن الصوت جميل الاداء يميل اليه الناشئون أكثر مما كانوا يميلون الى ابن سريج ؛ ولقد سبّق ابنُ صفوان مرة بجائزة بين المغنّين فنالها معبد (غ ١ : ٤٠) .

١٣ – توفّي ابن عائشة في أيام الوليد ، بعد وفاة معبد ومالك الطائي (غ ٢ : ٢٠٣ س ٢٣٥–٢٣٧) ، وروى الاصفهانيّ أن قوماً زعموا أن ابن عائشة مات في أيام هشام ثم ردّ ذلك القول صراحة (غ ٢ : ٢٣٥) .

كان ابن عائشة مغنّياً مرتجلاً طيّب الصوت يطرب الناس كلّهم ، ولكنّه لم يكن يحسن الضرب بالعود (غ ٢ : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٢٨) . أما الذي فاق فيه ابن عائشة سائرَ المغنّين فهو حسن مطالعه في الغناء : كان أحسن الناس ابتداء في الغناء ، الا أنه كان يضعف على المدى (غ ٢ : ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

١٤ – مالك بن أبي السمح عربي من بني طيّ ، وجدّته لأمه قُرشيّة من بني مخزوم (غ ٥ : ١٠١) . أخذ مالك الغناء عن جميلة وعن معبد ثم

عاش طويلاً حتى أدرك أبا جعفرٍ المنصورَ وانقطع اليه (غ ٥ : ١٠١ ، ولعلّه توفّي في نحو سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م).

لم يكن مالك الطائي يحسن الضرب بالعود ولا كانت له براعة في صناعة الغناء ، وانما كان حسن الصوت يأخذ ألحان معبد خاصة وألحان نفر من المغنّين فيخفّفها اذا كانت طويلة ويحذف بعض نغمها ثم يزيد فيها أو ينقص منها ؛ ولم يكن يولي قواعد الغناء عناية خاصة . ولمّا سئل عن أحسن الناس غناء قال : أحسنهم صوتاً (غ ٥ : ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٣ ) ! وسمع مرة رجلاً يسوق حماراً ويترنّم بلحن من غير كلام فأخذ ذلك اللحن وكساه شعراً (غ ٥ : ١١٢ ) .

أما ألحانه الاصيلة فكانت نادرة جدّاً ، وكان له فيها مذهب واحد لا تباين (اختلاف) فيه ، وبعض ألحانه تلك كانت مبنية على النواح (غ ٥ : ١١٢ ثم ١٠٤ ) .

١٥ — كان يونس الكاتب أو يونس المغنّي (ت ١٤٨ هـ = ٧٦٥ م) من أهل المدينة ، وقد تلقّى الغناء عن الغريض وابن محرز وابن سريج ، الا أن أكثر روايته عن معبد (غ ٤ : ٣٩٨ ) .

وليونس الكاتب غناء حسن وصنعة في التلحين كثيرة وشعر جيّد (غ ٤ : ٣٩٨ ) . ثم انه مؤلّف له كتاب مجرّد يونس (في الاغاني) ، كالقيان ، كالنغم (الفهرست ٢٠٧ ) . وهو أول من دوّن الغناء ، وكتابه في الاغاني ونسبتها الى من غنّى فيها هو الأصل الذي يُعمل عليه ويرجع إليه ؛ ويونس أول من دوّن الغناء (غ ٤ : ٣٩٨ ) .



# فهرست أبجدي

## لأعلام الاشخاص ولمواد الكتاب الرئيسية


### الهمزة

أبان بن سعيد ١٤٥ .
ابرهة ٦٤ — ٦٥ .
الابجديّة = الكتابة
ابراهيم ٨١ .
ابراهيم الموصلي ٢٠٨ .
ابراهيم بن الوليد ١٦٦ .
أبقراط ١٩٦، ١٩٧ .
الابيلق الاسدي = عرّاف نجد
ابن أثال ١٦٧، ١٩٦ م، ١٩٧ .
ابن الاثير ١٤، ٢١، ٦٣ م، ٦٥ .
ابن الاشعث ٢٠٤ .
ابن أبي أصيبعة ١٩٨ .
ابن تيميّة ١٥٧ .
ابن جنّي ٢٠ .
ابن حذيم = حذيم
ابن حزم ١٨ .
ابن خالويه ٢٠ .
ابن خلدون ١٤، ٢١ م، ٢٧، ٤٦، ٥٠، ١٠٨، ١١٥، ١٣٣، ١٣٩، ١٦٠، ١٦٣، ١٩٣، ١٩٤ .
ابن خلّكان ١٧٣، ١٩٢، ١٩٣ .
ابن أبي رمثة ١١٤ م .
ابن زيابة ٦٥ م .
ابن سريج ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٦م، ٢٠٧، ٢٠٨—٢٠٩، ٢١٠ .
ابن سلاّم الجمحي ٢٢ .
ابن سيده ٢٠ .
ابن شاهين — أبو حفص ١٨ .
ابن شيبة ١٧ .
ابن صفوان ٢٠٩ .
ابن الطقطقي ١٩٣ .

ابن عائشة ٢٠٧، ٢٠٩ م .
ابن عبد ربّه ٢١ .
ابن قتيبة ١٥ م، ٢٠، ٢٢ م، ٩٢ .
ابن الكلبي ٢٠، ٢٠–٢١، ٢١ .
ابن محرز ٢٠٥ م، ٢١٠ .
ابن مسجح ٢٠٤–٢٠٥، ٢٠٨ .
ابن منظور ٢٠ .
ابن النديم ١٩١–١٩٢ .
ابن هشام ٢١ .
ابو ادريس الخولاني ١٧٣ .
ابو بكر ١٦، ١٢، ١٤٦، ١٤٩–١٥٢، ١٥٧ م، ١٥٨ م، ١٦٣م، ١٨٥م، ١٨٦ .
ابو تمّام ١٩، ١٧٤ .
ابو جعفر المنصور ٢١٠ .
ابو جهل ٧٦ م .
ابو الحكم الدمشقي ١٩٧ .
أبو داوود ١٧ .
أبو دؤاد الايادي ١٩ .
أبو زيد القرشي ١٩ .
ابو طالب ٧٨ .
أبو عبيدة معمر ٢٠ .
ابو الفرج الاصفهاني ٢٢، ١٧٨، ٢٠٩
أبو قيس = صرمة بن أبي أنس
أبو كبشة = جزء بن غالب بن عامر
أبو هلال العسكري ١٩ .
أبو لؤلؤة ١٥٧ .
أبو نواس ١٧٤ .
أبو هريرة ١٦٧ .
أبيّ بن كعب ١٤٥ .
أحبّ ٣٨ .
أحمد بن أسامة الهمداني النصبي ٢٠٢، ٢٠٤ م .
أحمد بن حنبل ١٧ .
الاحوص ١٨١ .
الاخطل ١٨١ .
الاخلاق ١٣١ .
الادارة ١٥١ .
الادب ٨٧، ١٨٠ .
الارث ٦٩، ٧٥، ١٤٤ .
أرسطبّوس ١٠٣ .
الارض ١٣٨، ١٣٩ .
الارقـــاء ١٧٥ .
أركان الدين — الاسلام، الايمان ١١٢ .
أرياط ٦٥ .
أسامة بن لؤيّ بن غالب ١٨٤ .
أسامة بن منقذ ١٣ – ١٤ .
الاسبوع ٩٨ .
الاسد — ناصر الدين ٢٣، ١٠٦ ح .
الاسرة ٧٢ .





اسطفانوس — اصطفن .
الاسكندر المقدوني ٥١ .
الاسلام ١١٩ .
اسماعيل ٨١ .
اسواق الجاهلية ٨٥ .
أشعب ١٩٤–١٩٥ .
الاشهر ٩٦ ؛ الاشهر الحرم ٨٥ .
اصطفن ١٦٧، ١٩٣، ١٩٤ م .
الاصفهاني= أبو الفرج الاصفهاني
الاصمعي ١٩، ٩٠م .
الاصمعي — عبد الجواد ٢٣ .
الاصنام ٨٢ .
الاعتزال = المعتزلة .
الاعجام ١٨٣ .
الاعشى ١٩، ٩٠، ٩٥، ١١٧ .
أغاثيوس ٥٨ ح .
أفلاطون ١٩١ .
الافوه الاوديّ ١٩ .
أكثم بن صيفي ٧٨ .
الالوسي — محمّد شكري ٢٢ .
إلياس بن مضر = قيس
أم ولد ١٧٥ .
امروء القيس ١٩، ٢٩، ٥٧ وما بعد، ٧٧، ٨٨، ٩١–٩٢ .
أمير المؤمنين ١٥١ .
أمية بن أبي الصلت ١٩، ٨٤ .
الاميّون ٨٨ .
الانباري — أبو بكر ١٩ .
الانباري — عبد الرحمن ٢١ .
أناكسمانس ١٩٠ ح .
أنس بن أوس بن عتيك ٣٣ .
الانسان ١٤٢ .
الانواء ١٠٠ .
أنوشروان ١٠٩ .
أهل الذمّة ١٢٦، ١٧٥ .
أهل السنّة والجماعة ١٨٥ .
أهرن بن أعين ١٩٥–١٩٦ .
الاوثان ٨٢ .
أوس بن حجر ١٩، ١١١–١١٢ .
إياس بن أوس بن عتيك ٣٣ .
أيام العرب ٦١ .
إيناس بن خمايا ١٦٧ .


**الباء**


البادية ٢٦ .
البحتري ١٩، ٨٦ .
البخاري ١٧
البداوة — تراثها ٣٩ ؛ البدواة والحضارة ٣٧، ٣٨، ٤٥، ٦٦، ١٥٢ .
بدراقس ١٩٩ .
البدو ٢٦، ٧٠ .
البرّ ( بكسر الباء ) ٤٧ .

بروكلمان ٢٣ .
بشر بن مروان ١٦٠ .
بكر بن وائل ٨١ .
البناء ١٧٨ .
بنت الحسّ ٩٠ .
بيت المال ١٢٩ .


**التاء**


التاريخ ١٠، ٣٧ .
تبّع بن كرب ٥٦ .
الترمذي ١٧ .
التشريعية ١٦١ .
تميم بن أبيّ بن مقبل ١٩ .
تياذوق ١٩٧ م .
تيم بن غالي بن فهر — قريش .


**الثاء**


الثريّا بنت علي بن عبد الله ١٩٨ .
الثعالبي ٢٠ .


**الجيم**


الجاحظ ١٥، ٢٢، ١٩١ م .
جالينوس ١٩٧ .
الجاهلية ٢٥—٣٥، ٤٠ .
جبلة بن أبي شمر ٥٣ .
جبّور — جبرائيل ١٥ ح .
جران العود ١٩ .
جرير ٧٠، ٧١م، ١٨١ .
جزء بن غالب بن عامر ٨٤ .
الجزية ١٧٠ .
جسّاس بن مرّة ٥٩ .
جفنة بن عمرو ٥٢—٥٣ .
الجمحي = ابن سلاّم الجمحي
جميل بن معمر العذري ١٨١ .
جميلة المغنّية ٢٠٣، ٢٠٧—٢٠٨، ٢٠٩ م .
الجنّ ٨٦ .
جندب ٣٨ م .
الجهات ١٠٠ .
الجهاد ٨٠، ٨١، ١٠٤، ١٢٩، ١٤٦ .


**الحاء**


حاتم ١٩ .
الحارث الاعرج بن أبي شمر ٥٣م، ٥٩
الحارث بن حلزة ١٩، ٦٩، ١٠٣، ١٠٥ .
الحارث بن ظالم ٩٢—٩٣ .
الحارث بن عمرو ٥٧ .
الحارث بن عوف ٦٠ .
الحارث بن كلدة ١٠٦، ١٠٧—١٠٨، ١١٠، ١١٤ م، ١٤١ .
حام ٢٧ م .
حبّابة ١٧٨ .





حبيش ٧١ .
الحجّ ٧٠، ٨٥ .
الحجّاج ١٦٠، ١٦١، ١٦٢م، ١٦٣، ١٦٧—١٦٨، ١٦٩، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣—١٨٤، ١٩٧ .
حجر بن عمرو ٥٦ .
الحداء — الغناء ١١٥ .
الحدس ١٠٣ .
الحديث ٩، ١٢ .
حذيم ١١٢ م، ١١٣ .
الحرب ٨٠، ٨١، راجع الجهاد .
حرب بن مسعر ١٠٤ .
الحركات ١٨٣ .
حسان بن ثابت ٣٢، ٣٣م، ١٥٥، ٢٠٤
الحسن البصري ١٨٨ .
حسين — طه ٢٣—٢٤ .
الحضارة = البداوة والحضارة
الحضر ٧٠ .
الحكم ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩ .
الحكومة ١٢٧ .
الحكومة = القضاء
حمزة بن عبد المطّلب ١٢٥ .
الحمس ٨٤ .
حنظلة الاسيدي ١٤٥ .
حنظلة بن صفوان ٨٤ .
الحنفاء ٨٢، ٨٣ .
حنين الحيري ٢٠٧ م .


**الخاء**


خالد بن سعيد ١٤٥ .
خالد بن سنان ٨٣ .
خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد ١٩٦
خالد بن أبي الهياج ١٨٣ .
خالد بن يزيد ١٩٠—١٩٤، ٢٠٠ .
خباب بن الارتّ ١٤٥ .
خديجة ١٢٥ .
الخراج ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠ .
خراش (خادم للحارث بن ظالم) ٩٢—٩٣ .
الخرافات ٨٦ .
الخرج ١٧٠ .
الخرنق ١٩ .
الخضر حسين — محمّد ٢٤ .
الخط ١٤٥—١٤٦، ١٨٣ .
الخطابة ١٨٠ .
الخفاجي ٢٠ .
الخلافة ١٥٦ .
الخلعاء ٧٧ .
الخلفاء — انتخابهم ١٥٧ .
خليفة ١٥٠، ١٥٩ .
خلق العالم ١٣٧ .

الخليل بن أحمد ٩٩ .
الخنساء ١٩، ٦٩ م .
الخوارج ١٥٥، ١٥٨ .

**الدال**

دار الندوة ٧٦ .
الدارمي ١٧ .
دريد بن الصمّة ٤٧–٤٨ .
الدلال ٢٠٦ م .
الدواوين ١٥١، ١٦٥ .
الدولة ١٢٧ .
الدولة الاسلامية ١٥١ .
الدين ٨١ .
الدينوري ٢٠، ٢١ .

**الذال**

الذمّة — أهل الذمة
ذو الاصبع العدواني ١٤١ ح .
ذو جدن ٥٧ م .
ذويد الكاتب ١٦٥–١٦٦ .

**الراء**

الرافضة ، الروافض ١٨٥، ١٨٦ .
الرافعي — مصطفى صادق ٢٣ .
الرئيس = شيخ القبيلة
رباح بن عجلة = عرّاف اليمامة
الربيع ٩٥ ٩٧ .
ربيعة بن نزار ٨١ م .
الردّة ١٥٠ .
رستم — أسد ٥٨ ح .
رسول الله = محمّد رسول الله .
الرفاهية ١٧٦ .
رفيدة الاسلمية ١٤٢ .
الرقّ ٧٢، ١٧٥ .
روسكا — يوليوس ١٩٢ ح، ١٩٣ م .
الرياح ١٠٠ .

**الزاي**

زادان فرّوخ ١٦٧، ١٦٨ .
زادويه ١٦٧ .
الزبير بن العوّام ١٥٥ .
زرقاء اليمامة ٩١ .
الزمخشري ١٧م، ١٩، ٢١ .
الزكاة = الصدقة
الزمان ١٣٤ .
الزهري ١٨٢ .
زهير بن جناب ٦٤–٦٥ .
زهير بن أبي سلمى ١٩، ٤٧، ٤٨، ٦٠م
٨٠، ٨٤، ٨٥، ١٠٤، ١٠٥ .
زناتي — محمد سلام ٢٣ .
الزواج ٧٣، ١٢٣ .
الزوزني ١٩ .
زياد بن أبيه ١٩٨ م .



زيد بن ثابت ١٤٥ .
زيد بن علي بن الحسين ١٨٥–١٨٦ .
زيد بن عمرو بن نفيل ٨٤ .
زيدان — جرجي ٢٣ م، ٦٣ .
الزيدية ١٨٥ .
زينب طبيبة بني أود ١١٤ .

**السين**

سائب خاسر ٢٠٣م، ٢٠٩ .
سارزاد ١٦٧ .
سام ٢٧ .
الساميّة ٢٧ .
الساميّون والعرب ٢٦ .
السجستاني ٢١ .
سرجون بن منصور ١٦٧ .
سعد بن معاذ ١٤٢ .
سعيد بن زيد ١٤٥ .
سكينة بنت الحسين ١٩٤–١٩٥، ١٩٩م
سلاّمة ١٧٨ .
سلامة بن جندل ١٩ .
سلم نصر (سلم نسر) = شلمانّصر
سليمان ٨٦، ٨٧ .
سليمان بن سعد ١٦٨ .
سليمان بن عبد الملك ١٦٠، ١٦٥م،
١٦٦، ١٨٠ .
السموأل ١٩، ٥٨ .
السنة ٩٦ .
السنّة = أهل السنة والجماعة
سهل بن عبد العزيز ١٦٣ .
سيبويه ٢٠ .
سيف بن ذي يزن ٥٥ م .
السيوطي ١٨، ٢٠ .

**الشين**

الشطّيّ — شوكت ٢٣ .
الشعر ٨٧، ١٨٠ .
الشعر الجاهلي ١٥ .
الشعوبية ١٧٤ .
شكري — محمود ٢٣ .
شلمانصّر ٣٨ م .
الشنفري ١٩ .
الشهر = الاشهر
الشورى ١٢٨، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨ .
شيخ القبيلة ٦٨ .
الشيعة ١٥٥، ١٨٥ .

**الصاد**

صاعد الاندلسي ٣٤، ٨٩–٩٠، ١٩٢.
صالح بن عبد الرحمن ١٦٨م، ١٨٢م.
الصحابة ١٢٥ .
الصحراء ٢٦ .
صخر بن عمرو الشريد ٦٩ .

الصدقة والزكاة ١٣٠م، ١٦٩ .
صرمة بن أبي أنس ٨٤ .
صعصعة بن ناجية ٧٤ .
صفرونيوس ١٧٩ .
صفوت — أحمد زكي ١٩ .
صموئيل = السموأل .
الصناعة ١٧٤ .


**الضاد**


الضبّي ١٩ .
الضحاك الاشهلي ٣٣ م .


**الطاء**


طارق ١١٧ .
الطبّ ١٠٧، ١٣٩، ١٩٦ .
الطباطبائي الرسّيّ ١٨ .
الطبري ١٤، ١٧ م، ٢١، ٣٤، ٦٢، ٦٣.
طبقات الناس والمجتمع ٧٠، ١٢٤، ١٧٣ .
طرفة بن العبد ١٩ م، ٤٧، ٤٨، ٧٦، ٧٧، ٨٨، ١٠٣—١٠٤، ١٠٥، ١٠٧، ١١٣، ١١٦—١١٧ .
الطرمّاح ١٨١ م .
طفيل الغنوي ١٩ .
الطلاق ٧٥، ١٢٣ .
طلحة بن عبيد الله ١٥٥ .
طويس ٢٠٥—٢٠٦، ٢٠٨م .
طيباريوس ٥٤ م .


**الظاء**


الظلم ٤٧، ٨٠ .


**العين**


عائشة ١٥٥، ١٨٧ .
عارض = عبد الله بن الصمّة
العالم — خلقه ١٣٧ .
عامر بن الظرب ٦٤، ٨٤ .
عبد الحميد الكاتب ١٦٦ .
عبد الرحمن بن الاشعث ١٦٨، ١٨٨ .
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ١٩٦ م.
عبد الرحمن بن سيحان ٢٠٠ م .
عبد الرحمن بن عوف ١٢٥ .
عبد شمس ٤٢ ح .
عبد العزيز بن مروان ١٦٧ .
عبد القادر البغدادي ٢٠ .
عبد القاهر البغدادي ١٨ .
عبد القيس بن أفصى ٨١ .
عبد القيس بن خفاف ١٩ .
عبد الله بن الزبير ١٥—١٦، ١٦٩، ٢٠٤، ٢٠٨ .
عبد الله بن أبي سرح ١٤٥ .
عبد الله بن الصمّة ٤٨ م .





عبد الله بن عبد المطّلب ٦٧ .
عبد الله بن عمرو بن الحارث ١٦٥ .
عبد الله بن المقفع ١٦٧ .
عبد المطّلب بن هاشم ٧٨ .
عبد الملك بن سعيد بن أبجر ١٩٨ م .
عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ١٦٣ .
عبد الملك بن مروان ١٥٢، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٥م، ١٦٨م، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٧م، ٢٠٦ .
عبد يغوث بن وقّاص ٤٢م .
عبيد بن الابرص ١٩، ٥٧ .
عبيد الله بن أوس الغسّاني ١٦٤ .
عبيد الله بن زياد ١٦٣ .
عبيد الله بن قيس الرقيّات ١٨١ .
عتبه بن غزوان ١٣٥ .
عتيك — أنس بن أوس ، إياس بن أوس .
عثمان بن عفّان ١٦، ١٢٥، ١٤٢، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٩، ١٥٣—١٥٤ ، ١٥٥م، ١٥٧م، ١٦٣، ١٧٣م، ١٨٥، ١٨٩، ٢٠٤ .
العجّاج ١٨١ .
العدد ٩٠ .
عدنان ٣١، ٤٢م .
عرّاف اليمامة ونجد وحجر ١١٠ — ١١١ .
العرافة ١٠١ .
العرب ٢٦، ٢٧، ٣٧، ١٧٦ .
عرب الشمال وعرب الجنوب ٤١ .
العرب المسلمون ١٧٣ .
العرجي ١٨١ .
عروة بن حزام ١١٠—١١١ .
عزّة الميلاء ٢٠٣، ٢٠٤م، ٢٠٥، ٢٠٨.
العشر ١٦٩ .
العشيرة ٦٦، ٧٢ .
العصبية ٦٠، ٦٦ .
العطّار ٢٣ .
عفراء ( حبيبة عروة بن حزام ) ١١٠.
العلاء الحضرمي ١٤٥ .
علقمة الفحل ١٩ .
العلم ٨٩، ١٣٢، ١٧٤، ١٨٩ .
علم الحياة ١٣٨ .
عليّ بن أبي طالب ١٢٥، ١٤٢، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٩، ١٥٤—١٥٦، ١٥٧، ١٥٨م، ١٨٥م، ١٨٦، ١٨٧ .
علي — جواد ٢٢—٢٣، ٤٢، ٦٤، ٦٨ .
عمر بن أبي ربيعة ١٨١، ١٩٤، ١٩٨م، ٢٠٣ .

عمر بن الخطّاب ١٧، ٣٢، ٦٧، ١٢٥، ١٤٥م، ١٤٩–١٥٣، ١٥٧م، ١٥٨م، ١٦٣م، ١٦٦–١٦٨، ١٧١م، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٩م، ١٨٥، ١٨٦ .
عمر بن عبد العزيز ١٦، ١٦١، ١٦٣م، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨م، ١٧٢، ١٧٣م ١٧٦، ١٧٨، ١٨٢، ١٨٤، ١٩٥م، ١٩٨ .
العمران = البداوة والحضارة
عمر بن الاهتم ٣٣م .
عمرو بن الزبير ١٦٤م .
عمرو بن شدّاد ٦٧م .
عمرو بن العاص ١٦٣ .
عمرو بن قميئة ١٩ .
عمرو بن كلثوم ١٩، ٤٨، ٦٩، ٧٠، ٨٠م.
عمرو بن هشام = أبو جهل .
عمرو بن هند ١٠٥ .
عمرو ( ذكره ذو الاصبع ) ١٤١ ح .
العملة ١٦٨ .
عنترة ١٩، ٣١م، ٣٢، ٦٧م، ٦٩، ٧١، ١٠٨، ١١١ .
عنترة بن أسد ٨١ .
العيافة ١٠١ .
عيزان ٥٥ .

### الغين

الغريض ٢٠٥، ٢٠٦م، ٢٠٧م، ٢١٠ .
الغمر اوي – محمّد أحمد ٢٤ .
الغناء ١١٤، ٢٠٢ .
الغنائم ١٣٠، ١٦٩ .
غيلان ميّة ١٨١ .

### الفاء

الفارابي ١١٥ .
فارمر – هنري ٢٣ .
فاطمة بن رسول الله ١٤٢م، ١٥٥ .
فاطمة بن الخطّاب ١٤٥ .
فاطمة بنت ربيعة ٥٧ .
الفرزدق ٧٠، ٧١م، ٧٤، ١٨١، ١٩٨.
الفصول الاربعة ٩٦ .
الفكر ٨٩، ١٨٠ .
الفلسفة ١٠٣ .
الفلك ٩١، ١٣٥ .
الفيء ١٣٠، ١٧٠ .
الفيروزابادي ٢٠ .
فيلسوف ٨٩ .

### القاف

القالي ٢٠ .
القاموس ١٩ .
قبيصة بن ذؤيب ١٦٥م .



القبيلة = العشيرة
القتّال الكلابي ١٩ .
القرآن الكريم ١٦، ١١٩، ١٥٠ .
قريش ٤٢ م .
قسّ بن ساعدة ٨٤ .
قسطنديوس ٥٥ .
قسطنطين الاول الكبير ٣٦، ٥٥ .
القضاء ٧٨، ٧٩، ١٢٨، ١٧٢ .
القصور ١٧٩ .
القيافة ١٠١ .
قيس ، قيس عيلان ٤١ م، ٤٢ حم .
قيس بن ذريح ١٨١ .
قيس بن عاصم ٣٣م .
قيس بن الملوّح = مجنون ليلى .

### الكاف

الكتابة والابجدية ١٠٤، ١٨١، راجع الخطّ ١٤٥–١٤٦ .
كثير عزّة ١٨١ .
كسرى أنوشروان ٥٥ .
كعب بن زهير ١٩ .
كعب بن مالك ٣٢ .
الكعبة ٨٥ .
كليب وائل ٥٧، ٥٩م، ٨١م .
الكميت ١٨١ .
الكهانة ١٠١ .
الكيّ ١١١ .

### اللام

لبيد ١٩، ١٠٥ .
لذريق ١٧٩ .
اللغة ٨٧ .
اللغة السامية واللغة العربية ٢٨ .
اللهو ٨٨ .
اللـواء ٨١ .

### الميم

الماء ١٣٨ .
ماريانوس ، ماريانس ، مورينوس ١٩٠، ١٩٢م، ١٩٣ .
ماسرجويه ( ماسرجيس ) ١٩٥–١٩٦.
مالك بن أنس ١٧، ١٤٠ .
مالك بن دينار ١٨٠ .
مالك الطائي ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٩–٢١٠.
المبرّد ٢٠ .
المتعة ٧٣ .
المتلمّس ١٩، ٩٢، ١٠٥ .
المتوكّل العبّاسي ٨٧ .
المثقّب العبدي ١٩ .
المجتمع ٧٠ .
مجنون ليلى ١١٢–١١٣، ١٨١ .
محمد رسول الله ٩م، ١٥م، ٣٢م، ٣٣م

٣٩، ٤٠م، ٧٦م، ٧٨، ١١٤، ١١٨،
وما بعد ، ١٢١، ١٢٤–١٣٣ ،
١٣٩–١٤٢، ١٤٣، ١٤٥م، ١٤٦،
١٤٩–١٥٠، ١٥٥م، ١٥٧م ،
١٥٨، ١٥٩، ١٦٧، ١٧٢م، ١٧٣،
١٧٤، ١٨٥ .
محمّد بن الحنفية ٢٠٨ .
المختار بن أبي عبيد ١٧٣ .
المخلوعون = الخلعاء
المداواة = الطب
المراجع ١٢ .
المرأة ١٢٣ .
المربد ١٨٠ .
المرتضى الزبيدي ٢٠ .
مردان شاه بن زادان فروخ ١٨٣ .
المرجئة ١٨٦ .
المرزباني ٢٢ .
مروان بن الحكم ١٥٣، ١٦٣ .
مروان بن محمّد ١٦٦ .
مريم ٥٣ ح .
مزيقياء = جفنة بن عمرو
مسافر بن أبي عمرو بن أمية ١١١ .
المسجد ١٦١–١٦٢، ١٨٠ .
المسعودي ١٤، ٢١ .
مسلم بن الحجّاج ١٧ .
مسلم بن زياد ١٦٧ .
مسلم بن عقبة ١٥ .
مسلم بن الوليد ١٧٤ .
مسلمة بن عبد الملك ١٦٥ .
المسيح ٥٣ م .
المصادر ٩ .
مصر ٤١، ٤٢ ح م .
مصطلح الحديث ١٠ .
مصعب بن الزبير ١٦٩ .
المظالم ١٧٢ .
معاذ بن جبل ١٢٨ م .
معاوية ١٤٥، ١٥٢، ١٥٤م، ١٥٥،
١٥٦م، ١٦٠م، ١٦١، ١٦٢،
١٦٤م، ١٧٦، ١٧٧م، ١٧٨،
١٨٥، ١٩٦م، ١٩٧ .
معاوية بن مالك بن جعفر ١٠٦ .
معاوية بن يزيد ١٦١ .
معبد الجهني ١٨٨ .
معبد بن وهب ٢٠٣، ٢٠٧م، ٢٠٩م،
٢١٠ .
المعتزلة ٢٨٧، ٢٠٠–٢٠٢ .
معدّ بن عدنان ٣٥، ٤١، ٤٢ح م .
المعرفة ١٣٣ .
المعلّقات ٨٧ .
معمر بن المثنّى = أبو عبيدة معمر



المفضّل الضبّيّ ١٩ .
المكان ١٣٤ .
الملأ ٧٥ .
المنافقون ١٢٦ .
المنذر الاسود بن المنذر ٥٩ .
المنذر بن ماء السماء ٥٣، ٥٤م .
المهلّب بن أبي صفرة ١٦٢ م .
مهلهل بن ربيعة ٥٧ .
الموالي ١٧٣ .
موسى بن طلحة ١٤٢ .
المولّدون ١٧٤ .
المؤلّفة قلوبهم ١٢٥، ١٢٦، ١٥٣ .
مؤنس — حسين ٦٤ .
ميثودولوجيا ١٠ .

**النون**

النابغة ١٩، ٤٨، ٨٦، ٩١، ١١٣ .
النادي ٧٥ .
الناس ١٢٤ .
الناس = الياس بن مضر = قيس .
الناسخ والمنسوخ ١٨
نافع ( مولى خالد بن المهاجر ) ١٩٦ .
النبي = محمد رسول الله
النثر ٨٧ .
النجار — عبد الحليم ٢٣ .
النحل في الشعر ١٤ — ١٥ .
نزار ٤١م، ٤٣م .
النسائي ١٧ .
النسب ٦٨ ، راجع ٦٦ وما بعد .
نسطاس بن جريج ١٩٢ ح م .
نسطور ٥٣ ح .
النسيء ٩٧ .
نشيط الفارسي ٢٠٣، ٢٠٩ .
النصارى ٣٦ .
النصب ( غناء ) ١١٦ .
نصر بن عاصم ١٨٠ .
النضر بن الحارث ١١٤ م .
نظام الحكم ١٢٧ .
نظرية المعرفة = المعرفة
النعمان ٨٦ .
النعمان بن المنذر بن ماء السماء ٥٤ .
النقائض ١٨٠ .
نقش النمارة ١٠ .
نلّينو ٢٣، ١٩٠م .
النمر بن قاسط ٨١ .
نوح ٢٧ .
النويري ٩٥ .

**الهاء**

هرقل ١٩٤ .
هرم بن سنان ٦٠ .
الهرمزان ١٦٦ .

هرمس ١٩٠–١٩١ .
هرون بن عمران ١٦٣ .
هشام بن عبد الملك ١٦٥–١٦٦ ، ١٧٨م
١٧٩ ، ١٨٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ .
الهمداني ٢١ .
هند بن الخس = بنت الخس

الواو
وائل بن ربيعة = كليب وائل
الواحدي ١٨ .
الوأد ٧٤ .
واصل بن عطاء ١٨٨ .
وجدي – محمد فريد ٢٤ .
ورقة بن نوفل ٨٤ .
الوزارة ١٥٧ .
ولاية العهد ١٦٠ .
الوليد بن عثمان بن عفّان ٢٠٠م .
الوليد بن عبدالملك ١٦٠م ، ١٦٥ ، ١٧٨ ،
١٨٤م ، ١٩٧ ، ١٩٩م ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ .
الوليد بن يزيد ١٧٨م ، ١٧٩ ، ١٨٠ .

الياء
يافث ٢٧ .
ياقوت الرومي ٢١ .
يربوع بن مالك ٣٤ .
يزيد بن رومان ١٩٣م .
يزيد بن عبد الملك ١٥٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ .
يزيد بن معاوية ١٥ ، ١٦٠م ، ١٦٧ ،
١٧٧ ، ١٧٨م ، ١٨٠ ، ١٩٦م .
يزيد بن الوليد ١٦٠ ، ١٦٦م ، ١٦٤ .
يزيد آخر ١٩٣ .
يعرب ٣٤م .
اليهود ٣٦ .
يوسطنيانوس ، يوستنيانوس ٥٣ ، ٥٨م
يوسطينوس ٥٤ .
يونس الكاتب المغنّي ٢١٠م .